توضيح التوحيد

من تحفة المريد على الجوهرة
والفرق الإسلامية

الجزء الأول

لطلبة الثالثة الثانوية بالمعاهد الأزهرية
أدبى وعلمى بشعبتيه

طبقا للمنهج المعدل لسنة ١٩٨٦

تأليف
حسين محمد المصرى
وكيل معهد الإسكندرية

حقوق الطبع محفوظة

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

جمهورية مصر العربية
الأزهر
الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية

توضيح التوحيد

من تحفة المريد على الجوهرة

والفرق الإسلامية

الجزء الأول

لطلبة الأولى الثانوية بالمعاهد الأزهرية
علمى وأدبى

طبقا لمنهج الأزهر المعدل سنة ١٩٦٨

تأليف

حسين محمد المصرى

وكيل معهد الاسكندرية

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م

حقوق الطبع محفوظة

الناشر
مكتبة الجامعة الأزهرية
ميدان الأزهر ت ٩٠٣٧٨٧

منهج التوحيد

للصف الأول الثانوى (درسان فى الأسبوع)

أولا: علم التوحيد، نشأة علم الكلام. نشأة الفرق الكلامية فى الإسلام، بيان عن كل فرقة من الفرق الآتية ومبادئها إجمالا: الشيعة، الخوارج، المرجئة، القدرية، الجبرية، المعتزلة، أهل السنة.

ثانيا: تعريف علم التوحيد، موضوعه فائدته، ثمرته، الحكم العقلى، الفرق بينه وبين الحكم الشرعى والعادى، أقسام الحكم العقلى، مفهوم كل منها وأقسامه. معرفة الله عزوجل، معناها: حكمها دليل وجوبها، طريق الوصول إليها، أول الواجبات على المكلف، النظر، مفهومه، حكمه: طرق وجوبه.

التقليد فى العقائد، آراء العلماء فى إيمان المقلد، الإيمان، آراء العلماء فى حقيقته، دليل كل رأى، صلة كل من النطق بالشهادتين والعمل به، الإسلام، مفهومه، علاقته بالإيمان، مذاهب العلماء فى زيادة الإيمان ونقصه، مبحث حدوث العالم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

إلى الإخوة الطلبة الأعزاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد تم بحمد الله وتوفيقه إعادة طبع كتاب العقيدة: "توضيح التوحيد من تحفة المريد على الجوهرة" المنشورة من المكتبة الأزهرية للمؤلف: "حسين محمد المصري"، والذي تم تحت إشراف جمعية معهد تحفيظ القرآن: "دار القرآن".

فيسسرنا نحن المشاركين القائمين بالتصحيح والتدقيق في مراجعة إعادة طباعة الكتاب وإنجاز هذا العمل، أن نقدم لإخواننا الطلبة والطالبات هذا الكتاب في صورة جديدة أكثر وضوحًا ودقة في الخط، لغرض اليسر والسهولة للجميع، مع الحفاظ على المضمون الأساسي لكتاب العقيدة: "توضيح التوحيد"، مع الإشادة بأنه لم يحدث أي تغيير عما في الكتاب الأصلي من حيث المنهج أو الموضوع، أو المحتوى. إلا أن فيه إضافة جديدة وهو بيان مصدر الآية للأدلة المذكورة في الكتاب من حيث اسم السورة ورقم الآية، وذلك لغرض السهولة للرجوع إلى تفسير معنى الآيات.

ونتمنى أن يكون هذا الإنجاز موفق وناجح بإذن الله، بالرغم من الصعوبات التي قد واجهناها خلال القيام بهذا العمل منذ البداية حتى نهايته من حيث الجهد والوقت، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وأخيرا لا ننسى إن نقدم أسمى آيات الشكر والعرفان لكل من ساهم في إنجاح هذا العمل، وأخلص الأمنيات، لتحقيق الفائدة والسهولة لقاريء هذا الكتاب كمرجع أساسي لدراسة مادة العقيدة الإسلامية. ولا نرجو منه سوى وجه ورضوانه علينا....

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الأعضاء المشاركين بالتصحيح والتدقيق في إعادة طبع كتاب العقيدة:

١. الأستاذ محمد عدلين صالح
٢. الأستاذ عبد الملك بن
٣. الأستاذة آسية عبد الرحمن جافاكيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، المتفرد بالخلق والايجاد المنزه عن المثيل والشريك، المتصف بصفات الكمال والجلال، كل شيء في الوجود بإرادته، يعزّ من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام على نبي الرحمة، رسول الإنسانيه، وخاتم الرسل، المبعوث للناس كافة، المنزل عليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سورة سبأ: ٢٨.

وبعد: فإن الإيمان الناشيء عن معرفة وإدراك، وفهم للأدلة والبراهين أرسخ فى نفوس أصحابه من إيمان التقليد، ولذلك أوجب الله على فريق من عباده أن يقيموا أنفسهم مكان الأساتذة يعلمون الناس ويبينون لهم أصول الدين وأحكامه، ويزيلون الشبه، ويردون الاعتراضات.

وقد أحببت أن أسهم فى هذا الخير بجهدى التواضع مبينا للعقائد الإسلامية، موضحا لها بالأدلة، مترسما خطى سلفنا الصالح، محاولا تبسيط المعلومات لتصل إلى القلوب وتدركها العقول من أقرب طريق.

وقد وجدت طلاب المعاهد الأزهرية، وهم الذين يهيئون لحمل الرسالة ونشر الدعوة، أحوج ما يكونون إلى هذا المجهود. لما يجدون من صعوبة فى فهم موضوعات التوحيد من التأليف القديمة مع نفاستها وجلالة قدرها، وقد لمست ذلك منهم أثناء دراستى لهم مادة التوحيد سنوات متتالية مما حملى على الاسراع فى إخراج ذلك الكتاب ليكون عونًا لهم ولغيرهم.

وهذا الجزء يشمل مقرر السنة الأولى الثانوية بمعاهد الأزهر حسب المنهج المعدل فى سنة ١٩٦٨ م.

وقد كان إقبال الطلاب على الطبعات السابقة من الكتاب مشجعًا على التفانى فى خدمتهم، وها أنذا أقدم هذه الطبعة باذلاً كل جهد لتخريج كما يرجو كل مخلص.

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه، وأن يعيننى على إتمامه، وأن ينفع به، إنه سميع مجيب.

حسين محمد المصرى
وكيل معهد الاسكندرية الأزهرى

علم التوحيد ونشأة علم الكلام

كان المسلمون يأخذون عقائدهم وأحكامهم من النبع الصافى ايام حياة الرسول عليه السلام، وكانوا يفهمون نصوص الكتاب والسنة بسليقتهم العربية الصافية، فإذا أشكل عليهم أمر أو اشتبه عليهم حكم رجعوا إليه عليه السلام يسألونه ويستوضحونه، فلم ينتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى حتى تمت الرسالة ووضحت المعالم، ونزل قوله سبحانه ﴿اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيْنًا﴾ سورة المائدة: ٣. فلم يكن هناك مجال لتشريع جديد.

العقيدة والأحكام فى القرآن الكريم

وقد اشتملت رسالة الإسلام على أمرين رئيسيين:

(أ) عقائد (ب) أحكام

(أ) العقائد: وهى التصديقات التى يلزم المكلف اعتقادها والتصديق حتى يدخل فى زمرة المؤمنين، وتتلخص:

١. أن العالم حادث.
٢. أن هناك إلها أوجد ذلك العالم ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ سورة الرعد: ١٧.
٣. أن هذا الاله متصف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص، فهو: موجود، قديم، باق، عالم، مريد، قادر، واجد ليس له شريك ولا شبيه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ- اَللَّهُ الصَّمَدُ - لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ - وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا اَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص.
٤. أن الله الواحد كلف عباده بمعرفته، وأرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ووعد من أطاعه بجنته ورضوانه، وتوعد من عصاه بغضبه وناره، ووعد بعدم تعذيب عباده حتى يرسل إليهم الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلًا﴾ سورة الإسراء: ١٥.
٥. أن هؤلاء الرسل المؤيدين بالمعجزات الدالة على صدقهم، معصومون من الكذب والخيانة.
٦. أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن كتب أنزلها الله على رسله فبلغوها

لعباده.

٧. أن الموت حق.

٨. أن الناس سيجتمعون يوم القيامة فيحاسبون على ما قدموا.

٩. أن الجنة حق، وأن النار حق.

١٠. أن الله ملائكة، وهم عباد مطهرون ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ ما يُؤْمَرُوْنَ﴾ سورة التحريم : ٦.

والأديان كلها تدعو إلى هذه العقائد منذ بعثة آدم إلى بعثة خاتم الرسل عليهم السلام ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّيْنِ مَا وَصَّى بِهِ نُوْحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيْمَ وَمُوْسَى وَعِيْسَى أَنْ أَقِيْمُوْا الدِّيْنَ وَلَا تَتَفَرَّقُوْا فِيْهِ﴾سورة الشورى : ١٣.

وتتماز شريعة الإسلام عن بقية الشرائع السابقة بأنها تركز العقائد فى النفوس وتدعمها بالأدلة مستعينة بالعقل والتفكير، فقد رفعت شأن العقل ودعت إلى الاستفادة به، يقول سبحانه ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار لَآيَاتٍ لِأُوْلِى الأَلْبَاب .. الآية﴾ سورة آل عمرن : ١٩.

وقد نعت على أولئك الذين يعطلون عقولهم وتفكيرهم، فىقول سبحانه فى أكثر من موضع ﴿أَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾، ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيْرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُوْنَ﴾ سورة الأنعام : ٥٠.

(ب) الأحكام: وهى التكاليف الشرعية التى تعبد الله بها عباده، وهى تختلف باختلاف البيئة، وتطور بتطور الزمن، فىحرم سبحانه على أمة ما يحمله لغيرها كما يقول على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ سورة الأنعام : ٥٠ وكما يقول سبحانه ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة : ٤٨.

حتى جاءت شريعة خاتم الرسل عليه السلام، فاستقر الأمر على التكاليف الصالحة لكل زمان ومكان ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ سورة المائدة : ٤٨.

أثر الفتوحات الإسلامية فى العقائد

وفى عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم شغل المسلمون بالفتوحات لنشر الدعوة

وتبليغ الرسالة وقد امتدت رقعة الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا، وجنوبا، وشمالا، واستجاب الناس لهذه الدعوة القتية، واهتموا بذلك النور الواضح.

وقد دخل فى الإسلام - نتيجة هذا التوسع - كثير من غير العرب، وكانت لهم عقائدهم وثقافاتهم ومدنياتهم، ولم يكن من السهل أن يتحولوا بين عشية وضحاها عن كل هذه المعتقدات والمعارف إلى معتقدات الدين الجديد وثقافته، ولم يكن لسانهم الأعجمى ليساعدهم على فهم نصوص الكتاب والسنة ومعرفة العقائد والأحكام واستنباطها من النصوص.

لذلك وجد المسلمون الأوائل من واجبهم أن يشرحوا عقائد الدين وأحكامه لهؤلاء الذين دخلوا فيه من غير العرب، وكلما امتد الزمن كلما بدت حاجة المسلمين إلى هذا النوع من الشرح والتوضيح، وكانت العلوم الإسلامية مختلطة ببعضها ببعض، فوجد العلماء أن الحاجة ماسة إلى فصل كل مادة حتى يمكن التفرغ لها والنبوغ فيها، وقد اهتم جماعة منهم بالعقائد وأفردوها بالتأليف والتصنيف فكان ذلك علم التوحيد.

والباحث فى أسباب نشأة هذا العلم يجدها تنحصر فى نوعين.

أسباب داخلية وأخرى خارجية، والمقصود بالداخلية التابعة من نفس الدين، والمقصود بالخارجية التي طرأت عليه من خارج بيئته. ونستطيع أن يجمل هذه الأسباب فيما يأتى:

الأسباب الداخلية:

١. لم يقصر القرآن الكريم دعوته على التوحيد وإلزام الناس بمعتقداته، وإنما تعرض بجوار ذلك إلى بيان المعتقدات المخالفة له وأبطالها وأثبت زيفها وأقام معالم الدين الجديد على أسس قوية ثابتة، وذلك كقوله تعالى فى حق الدهرين ﴿وَقَالُوْا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوْتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بذلك علم إِنَّ هم إِلَّا يَظُنُّونَ﴾سورة الجاثية : ٢٤ وذكر رأي منكرى البعث ورد عليهم فى قوله سبحانه ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُوْنَ. قُلْ نَعَم وَأَنتُم دَاخِرُونَ. فَإِنَّمَا هِيَ زَجرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَاهُم يَنظُرُونَ﴾ سورة الصافات : ١٦،١٧،١٨ ويقول ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَه قَالَ مَن يُحيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيم قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيْم﴾سورة يس : ٧٨،٧٩ ورد عل الطبيعيين الذين لا يعترفون بالخالق الموجد فى قوله فى

سورة الواقعة ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾سورة الواقعة : ٥٧ وقد نهج علماء المسلمين نفس النهج فعرضوا الآماء المخالفة والشبه الواردة وبينوا بطلانها وزيفها، وايدوا الحق الذى جاء به القرآن بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة.

٢. عندما استقر المسلمون بعد الفتوحات، شغلوا أنفسهم بتفهم خفايا القرآن والسنة فاستتبع ذلك وجود آراء ومذاهب مختلفة.

٣. كان للخلافات السياسية التى حدثت بين المسلمين بعد مقتل عثمان رضى الله عنه أثر فى الاتجاهات العقيدية، وأصبح كل فريق يدين برايه ويدعو إليه، وكان موضوع الإمامة أهم أسباب الاختلاف.

الأسباب الخارجية:

٢. كما كان نتيجة التوسع الثقافى بين المسلمين أن انتقلت إليهم عقائد الأمم الأخرى عن طريق الترجمة.

٣. ولقد انتقلت إليهم كذلك الفلسفة القديمة بعقائدها ونظرياتهم وأسلوبها فى الجدول والمناظرة مما اضطر علماء المسلمين لدراستها وتعرف أساليبها ليتسلحوا بنفس الأسلحة، ويردوا طعون الحادقدين.

وكان «الحسن البصري» من أئمة المسلمين الذين يعلمون العقائد، وقد وقع الخلاف بينه وبين تلميذه «واصل بن عطاء» وكان من أثره تكوين فرقة المعتزلة كما سيأتى.

واستمرت الخلافات قائمة بين الفريقين حتى جاء «أبو الحسن الأشعري» وكان تلميذا «للجبائى المعتزلى» فاختلف معه وايجاز إلى أهل السنة يؤيد مذهبهم ويرد على خصومهم بكتابات منظمة، وتآليف مرتبة، وكان «أبو منصور الماتردي» فى خراسان فى نفس العصر الذى يعيش فيه الأشعرى فنهج منهجه، وألف وصنف، فكان تصنيفها أو تأليف منظم فى ذلك الفن.

نشأة الفرق الكلامية فى الإسلام

كان عليه السلام ينظر بعين المستقبل، فيرى خلافا ينشب بين أتباعه، فأشفق عليهم، وهو الرءوف الرحيم، وبين لهم ذلك الخلاف، وحذرهم نتائجه، وحثهم علىألايحيدوا عن سنته،

وألا يتركوا مناهجه، فقال عليه السلام: «ألا إن من كان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهى الجماعة» رواه أحمد وأبو داود. وقد تحقق هذا الذى تنبأ به عليه السلام فتفرق المسلمون شيعاً وأحزاباً، ودخل الشيطان بينهم يزين لهم هوة ذلك الخلاف. ويحاول أن يلقى في نفس كل فريق أنه صاحب الحق، وأنه المقصود بالفرقة الناجية، ولو أن المسلمين تجردوا من الأغراض المادية والسياسية والعنصرية لما وقفوا فى هذا التفرق الذى جر عليهم الضعف والوبال.

وكانت أول صخرة تصدعت بسببها وحدة المسلمين مسألة الخلافة. فقد ابتدأت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان، واشتد النزاع بين على ومعاوية، وانقسم المسلمون إلى ثلاث فرق رئيسية تفرع عنها فرق شتى، وكانت هذه الفرق الثلاث هى:

١. الشيعة التى ترى أن علياً على الحق وأنه أحق بالإمامة وأن من نازعه فيها يكون ظالماً، بل يتغالى بعضهم فيرى أنه كان جديراً بعد موت الرسول، وأن أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبواها منه. فهم بذلك فسقة! بل منهم من يحكم عليهم بالكفر، ويتغالى البعض فى حب على ويدعى أن الرسالة كانت له فأخطأ جبريل ونزل على محمد! ومنهم من يصل يعلى إلى درجة الألوهية !.
٢. وتقابل هذه الفرقة فرقة الخوارج التي خرجت على علىّ لقبوله التحكيم، ونادت بأن الخلافة لا يصح أن تكون وقفاً على بيت علىّ بعينه يجب أن تكون بانتخاب حر بين المسلمين.
٣. والفرقة الثالثة هي فرقة المرجئة التي بعدت عن هذه الفتنة وهذا الخلاف ولم تنضم لأحد الحربين وأرجأت الحكم فيهم لله (١).

ولما استقر الأمر لمعاوية بعد مقتل على رضي الله عنه، وهدأت الحروب التي نشبت بين المسلمين، كما هدأت حركة الفتح والتوسع من قبل، ابتدأ أصحاب العقائد المغلوبة على أمرها ينفثون سمومهم ويلقون شبهاتهم بين ضعاف المسلمين.

وكانت العراق مركزاً ثقافياً هاماً. فقد التقت فيها ثقافات شعوب مختلفة فظهر في البصرة «معبد الجهنى» الذي نادى بأن الإنسان حر التصرف في جميع شئونه، وقال قولته الشنيعة: لا قدر وأن الأمر أنف، وتبعه جماعة أطلق عليهم: القدرية الأولى:

(١) هذه الفرقة من الصحابة رضوان الله عليهم غير المرجئة الضالة التى تؤخر العمل على النية والقصد أو يؤخرون الحكم على صاحب الكبير إلى يوم القيامة كما سيأتى الكلام عنهم.

وقام بجوارهم مجموعة تناقض رأيهم وتدعى أن الإنسان مجبور على ما يفعل وأنه كالريشة المعلقة فى الهواء تحركها الريح كيف شاءت، وكان على رأس هؤلاء الجبرين «جهم من صفوان» وقد قام المخلصون من علماء هذه الأمة الذين حفظ الله بهم هذه العقيدة - قاموا يناوئون هذا الزيغ ويدفعون هذه الأباطل، ويردون الشبه وكان من هؤلاء أهل السنة والمعتزلة الذين أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن حياض الإسلام، وسنذكر فيما يلى كلمة عن كل فرقة من هذه الفرق.

الشيعة

عندما انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى أخذ المسلمون يبحثون أمر الخلافة، واجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة حيث بايعوا أبا بكر رضى الله عنه، وقد تأخر عن مبايعته علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه ثم بايعه، وقد تشيع لعلى أفراد كانوا يرون أحقيته في الخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ومصاهرته له، ولمنزلته فى الإسلام، ولكن هؤلاء الأشياع لم يكن لرأيهم وزن أثناء خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فقد أجمع المسلمون عليها وبايع على نفسه كما بايع بقية المسلمين، فلما قتل عثمان وتولى السلطة علىُّ أخذ أشياعه ينشطون وينشرون مبادئهم، ثم قامت الفتنة وانتهت باغتيال على رضي الله عنه واستقرار الأمر لمعاوية، فأخذ الشيعة يظهرون حينا ويختفون أحيانا، ولم يستطيعوا أن يقيموا لأنفسهم سلطانا أثناء الدولة الأموية والعباسية، ومع ذلك فقد كانوا يتواصون بمبادئهم وإمامهم.

وكان المبدأ الأول الذى قامت عليه هذه الجماعة أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى يترك أمرها الناس يقضون فيه بما عليه المصلحة، وإنما هى ركن من أركان الدين لا يصح أن يهمله الرسول، بل عليه أن يعين الإمام الذى يخلفه، ثم هذا الإمام يعين من بعده وهكذا. والتعيين إنما هو بوحى وإلهام لأن الإمام فى رأيهم معصوم.

والشيعة يرون أن الرسول الله ﷺ أوصى لعلى بذاته، ويروون فى ذلك آثاراً ويؤولون نصوصاً يحملونها مالا تحتمل تأييداً لرأيهم. وقد دفعهم هذا الاعتقاد إلى القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان تعدوا على حق على فى الخلافة. ثم ينقسمون على أنفسهم، فيرى بعضهم أن هذا التعدى خلاف الأولى ويصححون إمامة الخلفاء الثلاثة، ويرون أنه لا مانع من إمامة المفضول مع وجود الفاضل، ويرى آخرون أن هذا التعدى محرم، ويحكمون على

الخلفاء الثلاثة بالفسق، ويتغالى البعض الآخر حتى يحكم بكفرهم، ويزيد بعضهم في هذا الغلو فيصل بعلى إلى درجة النبوة والعصمة، وقد يرتفع به إلى درجة الألوهية، ويقولون بالحلول، أي أن روح الإله حلت بعلى ثم تنتقل لتحل فى الإمام الذى يليه وهكذا.

وبذلك ظهرت عقائد باطله كالرجعة، والحلول والتناسخ والتجسيم والتشبيه وعدم ختم النبوة، وكان المقصود من كل ذلك هدم هذه الدعوة الفتية وإثارة الشكوك بين ضعاف الإسلام، وهم بذلك يظهرون حقدهم الكامن، إذ لم يستطيعوا الوقوف بالسيف أمام قوته الغالية، فلم يجدوا إلا أن يتظاهروا بالإسلام وينفثوا سمومهم، وقد وجدوا فى التشيع مباءة خصبة لإظهار الحقد الدفين.

فرق الشيعة

اتفق الشيعة على أحقية علىٌ رضى عنه فى الخلافة، واعتمدوا على نصوص يروونها في إثبات معتقدهم، وقد انقسموا في فهم النصوص إلى فرقتين رئيسيتين: فرقة ترى أن النصوص تشير إلى على بالوصف لا بالشخص، وهم الزيدية، وفرقة ترى أن النصوص تشير إليه بالشخص وهم الإمامية. وقد تفرع من كل من الفرقتين فرق شتى.

الزيدية

هم أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن الإمام على بن أبى طالب رضي الله تعالى عنه. وكان تلميذاً لواصل بن عطاء.

ومن أهم مبادئهم:

١. أن يكون الإمام فاطميا.
٢. لا يكفرون ولا يفسقون أحداً من الصحابة بمبايعة أبى بكر لاعتقادهم على اجتهاد.
٣. يرون أن مرتكب الخطيئة مخلد فى النار إذا مات دون أن يتوب توبة نصوحا.

الإمامية

وهم الذين يعتقدون أن الإمامة من أركان الدين، وقد ناظروا زيداً في أمر أبى بكر

وعمر فاعترف بإمامتها ولم يكفر أو يفسق أحداً من أتباعهما فرفضوا إمامته، لذلك سموا الإمامية الرافضة.

ومن أهم مبادئهم:

١. يحكمون بكفر من نازع علياً الخلافة بما في ذلك أبي بكر وعمر ومن بايعهما.
٢. لا تخرج الإمامة عن أولاد عليّ من فاطمة رضي الله عنها.

الإسماعيلية

وهم الذين يقولون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، ويسمون أيضاً الباطنية لقولهم إن للقرآن ظاهراً وباطناً ويفسرونه حسب أهوائهم.

من أهم مبادئهم:

١. ليس العالم حادثاً وإنما هو قديم يدبره الله من ناحية والنفس الإنسانية من ناحية أخرى .. أي أن له مدبرين اثنين!
٢. يؤمنون بالقرءآن ولكنهم يجعلون تفسيره حقاً لأئمتهم فحسب .. يفسرونه حسب أهوائهم دون الاعتماد على لغة أو أصول.
٣. لا يعترفون بالجنة والنار على حقيقتهما المشهورة، وإنما يرون أن الجنة: نعيم الدنيا، وأن العذاب اشتغال المكلفين بالعبادات!
٤. ينكرون المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء.

النصرية

فرقة من الإمامية ينسبون إلى محمد بن نصير يقطنون في شمال سوريا ومن أهم مبادئهم بالإضافة إلى مبادئ الإمامية:

١. يتغالون في تقديس على رضي الله عنه فيرفعونه إلى درجة الألوهية!
٢. يدعون ألوهية الأئمة من بعد على.
٣. يحتفلون بالأعياد المسيحية ولا يصومون رمضان.

٤. يبيحون الخمر.

وهؤلاء كفار يجب قتلهم كما أفتى بذلك ابن تيمية.

الدروز

هم أتباع عبد الله الدرزى الذي كان كبير دعاة الحاكم بأمر الله فى مصر، وقد دعا إلى عبادة الحاكم بعد أن ادعى الألوهية، وقد حوربت الدعوة فى مصر وكاد أهلها يقضون عليها، ولكن هؤلاء جمعوا شملهم وفروا إلى الشام حيث اعتصموا بجبل الدروز.

وأهم مبادئهم:

١. عنوان دينهم «ليس فى السماء إله موجود ولا على الأرض رب معبود إلا الحاكم بأمره».
٢. لا يبيحون تعدد الزوجات.
٣. للشباب أن يفعل ما يشاء حتى يأخذ العهد على شيوخهم فيصبح مكلفا وهؤلاء كفار لعبادتهم لغير الله.

البابية

هم أتباع (المرزا محمد على) الذى ظهر فى إيران، وقد أطلق على نفسه الباب وادعى أنه المهدى المنتظر، ثم ادعى النبوة والرسالة، وقد نسخ القرآن ثم ادعى أنه المسيح المنتظر، ثم ادعى الألوهية ثم قتل بعد فتوى العلماء بذلك سنة ٨٥٠ م.

البهائية

هم أتباع حسين الملقب بالبهاء أحد أتباع المرزار محمد على، وقد سار على نهجه حيث ادعى النبوة والرسالة ثم الألوهية. ونشاط هذه الجماعة محظور رسمياً فى إيران، ومع ذلك فلا

تزال لها معابد هناك أشهرها: مشرق الأذكار وقرة العين.

وقد حاول أتباعه أن يكون لهم كيان فى مصر فأصدروا كتابا عام: ١٩٢ م اسمه «مجموعة الألواح المباركة» ادعوا فيه أنه من وحي ربهم البهاء! وقد أصدر الأزهر حكمه على البهائيين بأنهم مرتدون، وكذلك حكم عليها مجلس الدولة.

وقد صدر قرار جمهوري في مصر سنة ١٩٧١ م بحل جميع تشكيلاتها ومصادرة أموالها وعدم التصريح بأى اجتماع أو نشاط لها أو نشر أى شئ يتعلق بمبادئها.

ومن أهم مبادئهم:

١. تالية البهاء!
٢. نسخ جميع الكتب والأديان السابقة.
٣. جعل القبلة عكا والحج إليها للرجال فقط.

وهؤلاء كفار أيضًا.

القديانية

هم أتباع غلام أحمد المولود في قديان بالهند، وسار في طريق الباب والبهاء حيث انتهى إلى ادعاء النبوة والرسالة وأنه نزل عليه كتاب.

وأهم مبادئهم:

١. الاعتراف برسالة محمد عليه السلام غير أنه ليس آخر الرسل.
٢. كتابه نسخ ما قبله من الكتب، وهو مؤيد للقرآن في جملته، ناسخ لبعض أحكامه.
٣. حرم الجهاد على المسلمين وأوجب طاعتهم للانجليز!.

الخوارج

عندما قامت الفتنة الكبرى بمقتل عثمان رضى الله عنه، وانقسام المسلمين إلى معسكرين،

أحدهما بقيادة عليّ رضى الله عنه، والآخر بقيادة معاوية، ووقع الصدام بين الفريقين، وكل منهما يرى أن الحق معه، اندس فى صفوف على رضى الله عنه جماعة من الفرس الموتورين، تظاهروا بالإسلام والتشيع لعلى رضى الله عنه ليحدثوا الفرقة بين المسلمين انتقامًا من هذا الدين الذى قوى شوكة العرب، حتى أزالوا ملك فارس العظيم، وقد وجدوا فى الفتنة مجالا واسعاً لكيدهم. ففى موقعة صفين كادت كفة على ترجح فلجأ أصحاب معاوية رضي الله عنه إلى رفع المصاحف على رؤوس الرماح داعين إلى تحكيم كتاب الله. فأدرك عليٌ رضى الله عنه أنها خدعة، ورغب أن يستمر أصحابه فى القتال حتى يتم لهم النصر، ولكن الأشعث بن قيس، ومسعود ابن فدا كى التميمي، وزيد بن حصين الطائى، عارضوا علياً في راية وحملوا رايه وحملوا راية العصيان فى جيشه، وقالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف؟ فقال علي رضي الله عنه: أنا أعلم بما فى كتاب الله، ولكنهم اصروا على قبول التحكيم وألزموه أن يدعوا الأشتر - قائد جيشه - إلى وقف القتال وإلا انقلبوا عليه وفعلوا به كما فعلوا بعثمان، وخشى عليّ أن يتفرق الجند من حوله فأجابهم إلى وقف القتال، وبعث إلى الأشتر - الذى كاد يقضى على جيش معاوية - أن يوقف القتال، فاستجاب الأشترلأمر على. ثم جاء دور اختيار الحكم فاختار عليٌ عبدالله بن عباس فعارضه هؤلاء وقالوا: هومنك. وحملوه على أن يبعث أبا موسى الأشعري على أن يحكم هو والحكم الآخر بكتاب الله، واختار معاوية عمرو بن العاص، وكانت الخدعة التى دبرها الخوارج رءوس الفتنة، فإذا بهؤلاء الذين حملوه على وقف القتال وقبول التحكيم يخرجون عليه ويحملونه مسئولية التحكيم ويقولون: لم حكمت الرجال؟ لا حكم إلا لله.

أقسام الخوارج:

تجمع الخوارج على عليّ بالنهروان ووقعت الفرقة بينهم فانقسموا إلى ستة أقسام: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والأباضية، والثعالبة، وكل فريق من هؤلاء تفرعت منه فروع مختلفة.

آراؤهم:

١. يجمع الخوارج على التبرؤ من على وعثمان ويقدمون ذلك التبرؤ على كل طاعة.
٢. لا يصححون المناكحات إلا إذا أقر المتعاقدان بالبراءة من عثمان وعلى.
٣. يكفرون أصحاب الكبائر.
٤. يوجبون الخوارج على الإمام إذا خالف السنة.

والمحكمة الأولى: برياسة «عبد الله الكوا» يزيدون فى المبادئ.

١. يجوز أن تكون الإمامة من غير قريش.
٢. إقامة الإمام أمر جائز فيصح خلو العالم عن إمام، وإن احتاج إليه جاز أن يكون عبدًا أو حرًا أو قبطيًا أو قريشًا.

وقد قاتلهم على رضى الله عنه حتى أبادهم ولم ينج منهم إلا أقل من عشرة هرب اثنان إلى عمان، واثنان إلى كريان، واثنان إلى سجستان، واثنان إلى الجزيرة، وواحد إلى تل مورن باليمن حيث أظهروا بدعهم فى هذه المواضع، واستمر إحداثهم فى أمور الدين.

والأزارقة أصحاب «أبي راشد بن نافع بن الأزرق» يزيدون فى مبادئهم:

١. إباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم.
٢. إسقاط الرحم عن الزانى لأنه لم يذكر فى القرآن.
٣. إسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، ووجوب حد من قذف المحصنات من النساء.
٤. الحكم بخلود أطفال المشركين فى النار مع آبائهم.
٥. لا يوجبون عصمة الأنبياء، فيجوز على النبى الكفر قبل البعثة وبعدها، ويجوز أن يرتكب الكبائر والصغائر!.

أما بقية الفرق وما تفرع منها فلم تخرج عن هذه الطرق المعوجة، وكانوا جميعاً يتغالون فى التقى والصلاح، وكانوا يضحون بأنفسهم في سبيل عقائدهم، وكان فيهم الفوارس والشجعان أمثال «قطرى بن الفجاءة» وقد أخذوا يناوئون الحكام والخلفاء، فيظهرون إذا ضعفت شوكة الحكم ويختفون إذا قويت سلطة الحاكم حتى انقرضوا.

المرجئة

فى فترة الصراع العقيدى الذى نشأ فى الفتنة الكبرى ظهرت آراء كثيرة متضاربة لا تمت إلى الحق بطلة، وإنما تنبع من الأهواء النفسية والأحقاد الخفية، فبينما نجد الخوارج يكفرون

(١) هؤلاء غير المرجئة التى بعدت عن الفتنة فى الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما ولم تنضم للشيعة ولا للخوارج وإنما وقفت على الحياد وأرجأت الحكم فى الخلافة كما مر.

مرتكب الكبيرة، إذا بنا نجد فريقاً آخر يقابلهم فى العقيدة وهم المرجئة الذين يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.(١)

والأرجاء: معناه التأخير والإهمال، والمرجئة يؤخرون العمل على النية والقصد، أو يؤخرون الحكم على صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضون عليه بشئ فى الدنيا، أو معناه إعطاء الرجاء. فإنهم يؤملون من آمن بالجنة مهما فعل فلا تضر مع الإيمان معصية.

فرقهم: والمرجئة فرق شتى فكلما ظهر بينهم شخص بمقالة جعل منها مذهباً نسب إليه، فمنهم «اليونسية» أصحاب «يونس السمرى» ومنهم «العبيدية» أصحاب «عبيد المكبت» ومنهم «الغسانية» أصحاب «غسان الكوفى» ومنهم «الثوبانية» أصحاب «أبى ثوبان المرجىء» إلى غير هؤلاء.

مبادئهم:

١. زعموا أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة بالقلب، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن، وما سوى المعرفة من الطاعة فليس من الإيمان ولا يضر تركها.
٢. زعم بعضهم أن الله-تعالى عن قولهم-على صورة إنسان.
٣. الإيمان هو المعرفة الإجمالية دون التفصيل.
٤. الإيمان يزيد ولا ينقص.

وإنما دفعهم إلى قولهم هذا أنهم قالوا: لو عفا الله سبحانه عن عاص يوم القيامة لعفا عن كل عاص فى مثل حاله. وإن أخرج من النار واحداً أخرج من هو فى مثل حاله، وهذا رأى باطل لأنه ينفى المشيئة الثابتة فى قوله سبحانه ﴿لِّلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾سورة البقرة: ٢٨٤. ولأنه يبيح الناس ارتكاب المحرمات، فيفسد نظام المجتمع ولا يكون هناك معنى لإقامة الحدود وتطبيق الأحكام.

القدرية الأولى

هم أصحاب «معبد الجهنى» أول من أثار الكلام فى هذا الموضوع، وزعم أن علم الله لم

يسبق وجود الأشياء، وقال هذه المقالة الشنيعة: إن الأمر أنف، أي يستأنف الله علم الأشياء عند حدوثها، وهو قول باطل لأنه ينسب إلى الله سبحانه الجهل بالأشياء قبل حدوثها، وأن أفعاله ليست عن علم ولا تدبير سابق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومع أنهم ينفون العلم عن الله سبحانه، فإنهم يثبتونه لأنفسهم فيقولون إن الإنسان هو الذى يقدر أعمال نفسه بعلمه ويتوجه إليها بإرادته، وينفذها بقدرته، والله لا يعلمها إلا بعد وقوعها فضلا عن أن يكون لإرادته أو لقدرته دخل فى إحداثها وهؤلاء الكفار بلا خلاف كما يدل عليه كلام ابن عمر رضى الله عنهما حين سأله يحيى بن يعمر فقال: [يا أبا عبد الرحمن إنه ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف! فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برئ منهم وأنهم برآء منى، والذى يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر. الخ]. رواه الخمسة إلا البخارى. وقد انقرض أشياع هذا المذهب ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه.

الجبرية

الجبر فى اللغة: الإكراه، يقال أجبره وجبره على كذا أى أكرهه، وهو ضد القدر، وفى اصطلاح المتكلمين: هو نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى. وأول من أظهر مقالة الجبر هذه «جهم بن صفوان» الذى ظهر فى «ترمز» ببخاري، وانتقل إلى «مرو» بفارس وقتل بها فى آخر ملك بنى أمية، وقد انقرض الجبريون ولم يبق أحد على مذهبهم.

وقد اشتهر مذهبهم بأن العبد مجبور، وأنه كالريشة المعلقة فى الهواء تحركها الريح كيف شاءت، فليست للإنسان قدرة ولا اختيار، وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات، ونسبة الأفعال إلى العبد مجازية كنسبتها إلى الجمادات فكما تقول، تحرك الحجر، وطلعت الشمس، وجرى الماء، تقول صلى فلان وصام فلان وقتل فلان وسرق فلان، ولا فرق بين الفعل الاختياري والاضطرارى، كقولك مرض فلان ومات فلان وصلى فلان وصام فلان، فالنسبة فى الكل مجازية، وعلى ذلك فالتكاليف الشرعية جبر، والثواب والعقاب جبر.

وهذا رأى باطل لأنه يلزم عليه نسبة العبث إلى الله فى إرسال الرسل وإنزال الشرائع، والله سبحانه منزه عن العبث وهو القائل ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِيْنَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ سورة الدخان : ٣٨-٣٩ كما يلزم نسبة الظالم إلى الله سبحانه لتعذيب العبد على غير فعله، وتكذيب الله فى صريح قوله ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيْدِ﴾ سورة الحج : ١٠.

والجهم بن صفوان وأتباعه من الجبريين شطحات أخرى غير القول بالجبر أخرجتهم من دائرة الناجين، فمن ذلك قولهم: إنه لا يجوز أن يوصف الله سبحانه بصفة يوصف بها خلقه حتى لا يكون شبيهاً لهم، فينفى عن الله الوصف بالحياة والعلم، ويثبت له القدرة والفعل والخلق، وهذا تخبط عجيب، إذ كيف تثبت له القدرة والخلق دون أن يكون حياً؟

ومنها إثباتهم علوما حادثة لله سبحانه لا في محل، بعدد المعلومات الموجودة، ولا يجوز أن يكون العلم الحادث متصلا بذاته، لأنه متغير، وذاته سبحانه ليست محلا للحوادث، فتعين أن العلم لا محل له.

وهذا قول باطل لأن الله سبحانه يقول ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾سورة الحشر : ٢٢ ويقول ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾سورة الملك : ١٤ وعلم الله صفة تنكشف بها المعلومات فهى قديمة، ولو لم يكن عالما لكان جاهلا والجهل نقص وهو محال.

ومنها قولهم بفناء الجنة والنار بعد دخول أهلها، وتلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بعذابها، لأنهم لا يتصورون البقاء الأبدى إلا الله، ويؤولون الخلود بالمكث الطويل. وهذا رأى باطل، كذلك يخالف صريح الكتاب والسنة، ولا داعى للتأويل مادامت الحقيقة ممكنة، والبقاء الأبدى لتعلق إرادة الله وقدرته به أمر ممكن، والممتنع إنما هو البقاء لذاته، فليس هناك باق لذاته إلا الله.

ومنها قولهم: إن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله، فإيمان الأنبياء، وإيمان أفراد الأمة متساويان، وهذا يخالف صريح قوله عليه الصلاة والسلام: ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشئ وقر فى نفسه.

المعتزلة

وفى الفترة التى وجدت فيها الآراء المتباينة والمذاهب المختلفة كان الناس يبحثون عن الحق من بينها ويسألون أهل الذكر، وقد سأل سائل «الحسن البصرى» رضى الله عنه عن مرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب منها: هل هو كافر كما يقول الخوارج، أو مؤمن لا تضره المعصية كما يقول المرجئة؟

وقبل أن يجيب الحسن البصرى تصدى أحد تلاميذه وهو «واصل بن عطاء» للاجابة فقال: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر. ولم تعجب هذه الإجابة الحسن الذي يرى أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاص، فاعتزل واصل مجلسه وأخذ يقرر رأيه، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، وأطلق الناس عليهم المعتزلة، ولكنهم لم يرضوا عن هذه التسمية وأطلقوا على أنفسهم أهل العدل والتوحيد، لأنهم ينفون عن الله لظلم بنسبة أفعال العباد الاختيارية إليهم، حتى لا يعذبهم على شئ لم يفعلوه، ولأنهم يتغالون فى توحيد الله سبحانه، فينفون الصفات الزائدة على الذات حتى لا نشاركه فى القدم.

وقد بنى مذهب المعتزلة على أصول نذكر منها:

١. نفى الصفات القديمة عن الذات حتى لا تشاركه في القدم، فليست هناك - فى رأيهم - صفة علم أو قدرة أو إرادة وإنما هو عالم بذاته وقادر بذاته ومريد بذاته.
٢. أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لهم بقدرة أودعها الله فيهم.
٣. يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين.
٤. يقولون إن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد. ولذلك نسب إليهم القول بوجوب الصلاح والأصلح.
٥. يقولون إن مرتكب الكبيرة الذى مات دون توبة ليس مؤمنا ولا كافراً، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ويحكمون بخلوده فى النار، ولكنه يكون فى درك أخف من الكفار.
٦. يقولون إن القرآن مخلوق فهو حادث.

وكان زعماء المعتزلة ممن حصلوا العلوم والمعارف، ودرسوا الفلسفة واستخدموا أساليب الجدل فى إقناع الخصوم، وكان لهم فضل رد شبه المارقين، وقد أبلوا فى هذا الميدان

بلاء حسناً، ولكنهم كانوا من ناحية أخرى يتعصبون لآرائهم، ويستعينون بالحكام لإرغام الناس على اعتناق مذاهبهم، وقد لاقى الفقهاء والمحدثون عنتاً من جراء هذا التعصب، مع حمل الناس على مقتهم واتهامهم بالمروق عن الدين.

أهل السنة

كان السلف الصالح يفهمون نصوص الشريعة بالسليقة دون أن تصرفهم عنها الأهواء والشهوات، وقد ظهرت فرق ومذاهب خالفت فى بعض مفاهيم الشريعة، وبقى جماعة على نفس المنهج الذى كان يسير عليه سلف الأمة وأطلقوا على أنفسهم أهل السنة والجماعة، كما أطلقوا على خصومهم أسماء تتناسب مع آرائهم ومذاهبهم كالقدرية والمرجئة والمعتزلة.

وقد امتاز أهل السنة بإثبات الصفات لله فأطلق عليهم: أهل التوحيد والصفات أو الصفاتية، أما المعتزلة فقد نفوا الصفات حتى لا يكون هناك أكثر من قديم، وقالوا إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ليحاسب عليها فسموا: أهل التوحيد والعدل، وفسروا العدل بأنه ما يقتضيه العقل من حكمة، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة. أما أهل السنة فقد فسروا العدل بأنه وضع الشئ فى موضعه؛ وهو التصرف فى الملك على مقتضى المشيئة والعلم. كما امتاز أهل السنة بأنهم كانوا يتفهمون روح الإسلام من نصوص القرآن والسنة دون أن يحملوها فوق طاقتها فإذا اشتبه عليهم نص رجعوا إلى أساليب اللغة، وفي نفس الوقت لا يهملون العقل وإنما يستعينون به على الوصول إلى الفهم الصحيح.

وكان أئمة أهل السنة هم أول من دون علم التوحيد وردوا على المخالفين، واهتموا بإبطال مذهب المعتزلة الذين كانوا يناقضونهم فى كثير من آرائهم. وهم ينسبون إلى إمامين كبيرين كان لهما فضل السبق فى هذا المضمار وهما: أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى.

أبو الحسن الأشعرى

نشأ أبو الحسن الأشعرى فى البصرة على مذهب الاعتزال ويتلمذ على إمام المعتزلة فى عصره «أبى على الجبائى» وكان واسع الاطلاع، سريع البديهة، قوى الحجة، فكان يتولى الجدل والنقاش نيابة عن أستاذه الجبائى الذى كان يجيد التأليف دون المناقشة، وقد حدث

أن اختلف مع أستاذه عندما كان يقرر وجوب الصلاح والأصلح على الله، فسأله عن ثلاثة أخوة: مات أحدهم كبيراً مؤمناً، ومات الثانى كبيراً كافراً، ومات الثالث صغيراً، فقال الجبائى: أما الأول فيثاب بالجنة، وأما الثانى فيخلد فى النار، وأما الثالث فلا يثاب ولا يعاقب. فقال الأشعرى: فإن قال الصغير: يا رب لم أمتنى صغيراً وما أبقيتنى حتى أكبر فأطيعك فأدخل الجنة؟ فقال الجبائى: يقول الرب: إنى أعلم أنك لو كبرت لعصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيرًا. فقال الأشعرى: فإن قال الثانى: يا رب لم تمتنى صغيراً حتى لا أدخل النار؟ فبهت الجبائى، فترك الأشعرى مذهبه وانضم إلى أهل السنة، وقد عرف أساليب المعتزلة ووجه خلافهم، فاحتجب عن الناس مدة ثم خرج إليهم وصعد منبر المسجد الجامع بالبصرة وأعلن أنه انسلخ عن آراء المعتزلة التى كان يعتنقها، وأنه يقول برأى أهل السنة والجماعة، وأنه أودع آراءه فى الكتب التى صنفها فى فترة الاحتجاب عن الناس. فلما قرأ هذه الكتب أهل الحديث وجدوا أنها صورة صادقة لأراء أهل السنة فاتخذوه إماماً لهم ونسب إليه أتباعه وسموا بالأشاعرة.

أبو منصور الماتردى

ولد أبو منصور فى قرية «ماتريد» من أعمال «سمرقند» بخراسان، ونبغ فى علوم الفقه والكلام، وتفقه على مذهب أبى حنيفة النعمان، وكان يعيش فى نفس العصر الذى عاش فيه «أبو الحسن الأشعرى» وقد ألف فى علم الكلام على طريقة أهل السنة، ورد شبه المخالفين وأبطل حجج المعاندين حتى كانت له الرياسة فى علم الكلام، ونسب إليه أتباعه وسموا «الماتريدية».

والناظر فى آراء «أبى منصور الماتريدى وأبى الحسن الأشعرى» يجد أنهما ينبعان من معين واحد، ويصلان إلى غاية واحدة، وليس بينهما خلاف إلا فى أمور يسيرة من فروع هذا العلم الواسع، كاختلافهم فى وجوب المعرفة هل هو بالشرع أم بالعقل، وكاختلافهم فى مفهوم الإيمان والإسلام، وفى مفهوم القضاء والقدر.

وقد تلقى المسلمون آراء الإمامين بالقبول، واعتبارهما علماً على هذا الفن، وسار عل منها جهما المصنفون، وتداولت الأمة هذه الكتب فى مختلف العصور، وكان من أنصارها كثير من المحققين مثل القاضى أبو بكر الباقلانى، والأستاذ أبى إسحق الإسفراييني.

علم التوحيد

تعريفه: التوحيد لغة: العلم بأن الشئ واحد، وشرعا: إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق بها ذاتا وصفات وأفعالا. فليست هناك ذات تشبه ذاته، ولا صفة تشبه صفته. ولا فعل يشبه فعله، أو هو إثبات ذات غير مشبهة للذوات.

واصطلاحا بمعنى الفن المدون: علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسبة من أدلتها اليقينية، أي هو علم يبحث فيه عن ذات الله وصفاته، وذات رسله، وعن أحوال الممكنات والسمعيات، وليس المقصود بالبحث عن ذات الله معرفة كنهها. فإن هذا مما تتقاصر عنه الهمم، فلا يعرف الله إلا الله، وإنما المقصود معرفة ما يجب له سبحانه وما يستحيل وما يجوز، والبحث عن الصفات من حيث إثباتها بالأدلة اليقينية، وتقسيمها إلى نفسية وسلبية ومعان، ومعرفة ما يتعلق منها ومالا يتعلق.

أما البحث عن الرسل فمن حيث ما يجب لهم وما يجوز وما يستحيل، وعن حكم الرسالة وإثباتها بالمعجزة، والبحث عن الممكنات من حيث إثبات حدوثها والتوصل من وراء ذلك إلى إثبات موجدها، والبحث عن السمعيات من حيث اعتقاد وجودها ووقوعها كما أخبر بذلك المعصوم.

موضوعه: ومن ذلك يتبين أن موضوع علم التوحيد هو ذات الله من حيث ما يجب وما يستحيل وما يجوز، وذات رسله من حيث ما يجب لهم وما يجوز وما يستحيل، والممكن من حيث التوصل من ورائه إلى إثبات وجود الله، والسمعيات من حيث اعتقادها كما أخبر بها المعصوم.

ثمرته: معرفة الله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية، والمعرفة: اطمئنان النفس ويقينها نتيجة الاقتناع بالبراهين فتكون عبادة العارف أفضل من عباده المقلد، ثم إن العارف يستطيع أن ينشر الدعوة عن يقين واقتناع، وأن يرد شبه المعترضين المارقين.

فضله: هو أشرف العلوم لتعلقه بذات الله سبحانه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

نسبته: يعتبر علم التوحيد أساساً لجميع العلوم الشرعية، إذ لو لم تؤمن بوجود الله

وإرساله الرسل فكيف نؤمن بالشرائع والكتب؟ فهو أساس التفسير والحديث والفقه.

واضعه: التوحيد رسالة كل رسول وأساس كل دين، أما باعتبار الفن المدون فأول من كتب فيه كتابة منظمة: أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى إماما أهل السنة، ثم سار على منهاجهما كثير من العلماء.

اسمه: تطلق على هذا العلم أسماء متعددة، أشهرها: علم التوحيد لأن مبحث الوحدانية من أهم مباحثه وأشهرها، ويسمى: علم الكلام لأن المتقدمين كانوا يقولون: الكلام فى كذا، والكلام فى كذا، أو لأن الاختلاف قد وقع فى صفة الكلام.

استعداده: يعتمد هذا العلم على القرآن والسنة والعقل، يستمد منها الأدلة النقلية والعقلية.

حكمه: يجب شرعاً على كل مكلف أن يعرف مسائل هذا العلم ولو بطريق الإجمال.

مسائله: هي قضاياه الباحثة عن الواجبات والجائزات والمستحيلات.

هذه هى المبادئ العشرة التي يهتم بها قدامى المؤلفين ويعتبرونها مقدمة كل علم.

التكليف

خلق الله تبارك وتعالى هذا العالم مكونا من أحياء وغير أحياء؛ والأحياء أجناس ثلاثة، ملائكة خلقوا للعبادة والطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وحيوانات تدفعها الشهوة وليس عندها عقل؛ والثقلان عن الإنس والجن، ركبت فيهم الشهوة وركب فيهم العقل، فكان هذا الصنف الأخير هو الذى يقبل التكليف بطبيعته، أى أن يقال له افعل أو اجتنب، ولك على الطاعة ثواب وعلى المعصية عقاب.

فالتكليف طلب ما فيه كلفة ومشقة، أو هو إلزام ما فيه كلفة ومشقة. والأحكام الشرعية خمسة: الإيجاب والندب والتحريم والكراهة والإباحة.

فعلى القول بأن التكليف طلب ما فيه كلفة، فهو يشملها ما عدا الإباحة، وعلى القول بأنه إلزام فلا يشمل إلا الواجب والمحرم.

ولما كان التكليف طلباً أو إلزاماً فلا بد أن يكون المكلف قابلا لهذا التكليف مستعداً له، قادراً عليه، وإلا سقط التكليف. فالمكلف هو: العاقل البالغ سليم الحواس.

فالعقل هو الميزة الكبرى التى تميز بها الإنسان وبه يعرف الخير والشر، والحسن والقبيح، ويدرك الأمر والنهى، فإذا سلب العقل سقط التكلف، فالمجنون غير مكلف، ولا بد أن يكون العقل كاملا حتى تترتب عليه المسئولية، والعقل يتكون فى الطفل من جميع المعلومات والمعارف والتجارب، ولا يتكامل إلا بالبلوغ، فغير البالغ لا تكليف عليه إلا فى رأى الأحناف الذين يقولون بتكليف الصبى المميز.

والمعلومات والتجارب التي يتكون منها العقل تصل عن طريق الحواس الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وليست كلها فى منزلة واحدة بالنسبة لتوصيل المعلومات، فالسمع والبصر لهما منزلة خاصة، فمن طريقهما تنتقل أهم المعلومات إلى العقل، فإذا فقدهما معاً شخص فلن يستطيع إدراك ما فى ذلك لكون من دلائل على وجود مبدعه، ولذلك يسقط عنه التكليف. أما من فقد السمع فقط فإنه يستطيع الوصول عن طريق النظر، ومن فقد النظر فإنه يستطيع الوصول عن طريق السمع.

وقد اقتصر المعتزلة على هذه الشروط الثلاثة: العقل والبلوغ وسلامة الحواس. أما أهل السنة فيزيدون شرطاً رابعاً وهو بلوغ الدعوة، فالذى نشأ فى معزل بعيداً عن الناس ولم تبلغه دعوة نبى ليس مكلفاً، أخذاً من قوله سبحانه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُوْلًا﴾ سورة الإسراء: ١٥ ويرى المعتزلة أن العقل وحده يكفى فى إدراك معرفه الله، ويفسرون الرسول فى الآية بالعقل.

أهل الفترة: ويترتب على هذا الخلاف الحكم على أهل الفترة الذين لم يبعث إليهم رسول، وكذلك من نشأ فى معزل عن الناس ولم يتصل بأحد، أو الذين بلغتهم الدعوة بلوغاً مشوهاً كعوام الأجانب الذين لم يعرفوا عن الإسلام إلا ما نقله لهم رؤساؤهم الدينيون نقلا غير صحيح وهم فى غير دار الإسلام، فهؤلاء جميعاً غير ناجين عند المعتزلة، ناجون فى رأى أهل السنة، وهذا هو الصحيح الذى تؤيده الأدلة.

والمطلوب من المكلف معرفة الواجب والجائز والمستحيل فى حق الله سبحانه وتعالى، ثم فى حق رسله، وهذا يتطلب منا معرفة الواجب والجائز والمستحيل ثم بحث المعرفة المطلوبة، ونقدم لذلك بمعرفة الحكم وأقسامه.

الحكم وأقسامه

الحكم هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، وقد يكون هذا الحكم مستنداً إلى العقل، كالحكم بأن الواحد نصف الإثنين، وبأن الجسم يشغل حيزًا من الفرغ فيسمى حكما عقليا، وقد يكون مستنداً إلى الشرع كثبوت وجوب الصلاة أو حرمة أكل الخنزير، فيسمى حكما شرعياً، وقد يكون مستنداً إلى العادة والتجربة بقطع النظر عن العقل والشرع، كإحراق النار للأجسام القابلة للاحتراق، وإطفاء النار بالماء، وقطع السكين اللحم، فهذا يسمى حكما عاديا، فأقسام الحكم ثلاثة: عقلى، وشرعى، وعادى.

فالحكم العقلى: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه دون توقف على تجربه أو وضع واضع.

والحكم الشرعى: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه استناداً إلى وضع واضع.

والحكم العادى: هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه استناداً إلى التجربة والعادة، والذى يهمنا فى هذا العلم هو الحكم العقلى وأقسامه.

الحكم العقلى

الواجب والمستحيل والجائز العقلى

قلنا إن الحكم معناه: إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه، وهذا الإثبات أو النفى إما أن يكون على طريق الوجوب وعدم التخلف فهو الواجب أو المستحيل، وإما أن يكون الإثبات والنفى متساويين فهو الجائز أو الممكن.

فالواجب العقلى: هو إثبات الذى لا يقبل الانتفاء لذاته،
أو هو الموجود الذى لا يقبل العدم لذبته،
أو هو الذى لا يتصور العقل عدمه.
والمستحيل العقلى: هو المنفى الذى لا يقبل الثبوت لذاته.
أو هو المعدوم الذي لا يقبل الوجود لذاته.
أو هو الذى لا يتصور العقل وجوده.

والجائز العقلي : هو الذى يقبل الثبوت والانتفاء لذاته.
أو الذى يقبل الوجود والعدم لذاته.

أو الذى يتصور العقل وجوده وعدمه، أى يتوالي عليه الوجود والعدم، فليس المعنى أن يكون ثابتاً ومنفياً فى وقت واحد، أو موجودا ومعدوماً فى وقت واحد، فهذا مستحيل.

وكل من هذه الأقسام الثلاثة قد يكون ضرورياً، أى بديهياً، يدركه العقل لأول وهلة من غير تفكير وبحث، وقد يكون نظرياً أى يتوقف التصديق به على النظر والاستدلال والبحث والتفكير.

ولنضرب لكل نوع مثلا يوضحه:

الواجب الضرورى: مثل كون الواحد نصف الاثنين والكل أكبر من الجزء.

الواجب النظرى: مثل وجود الله واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص.

المستحيل الضرورى: مثل اجتماع الحركة والسكون فى جسم فى آن واحد، وكون الجزء أكبر من الكل، وتقدم الابن على الأب.

المستحيل النظرى: مثل قدم العالم، وعدم وجود إله.

الجائز الضرورى: مثل أن يكون الجسم ساكناً أو متحركا، موجوداً أو معدوما.

الجائز النظرى: مثل تعذيب المطيع، وإثابته العاصى، فهو جائز عقلا مستحيل شرعاً.

وقد لاحظنا فى تعريف الواجب والجائز والمستحيل أن يكون الواجب موجودا لذاته. والمستحيل معدوما لذاته، والجائز قابلا للأمرين لذاته.

وإنما كان ذلك الشرط احترازاً عن أن يكون الوجوب أو الاستحالة لا لذات الواجب والمستحيل، وإنما لأمر آخر طارئ، فيكون واجباً أو ومستحيلا لغيره، مع أنه فى حد ذاته جائز. وذلك كوجود الدنيا جائز فى حد ذاته ولكنه واجب لتعلق إرادة الله به، فتكون واجبة لا لذاتها بل لغيرها وكذلك تعذيب المطيع جائز فى ذاته ولكنه مستحيل لغيره، لأن الله وعد بثواب المطيع ووعده لا يتخلف.

معرفة الله عزوجل

المعرفة فى اللغة الإدراك والعلم، وفى الاصطلاح: الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل، فالإدراك جنس فى التعريف يشمل الجازم وغير الجازم، والمطابق وغير المطابق، والناشئ عن دليل أو تقليد، وخرج بالجازم الإدراك غير الجازم سواء أكان شكا: وهو إدراك الطرف المرجوح، أو ظناً، وهو إدراك الطرف الراجح، فكلاهما لا يكون معرفة. والإدراك الجازم قد يكون مطابقاً للواقع وقد لا يكون كاعتقاد الفلاسفة قدم العالم، وكاعتقاد النصارى فى التثليت وفى أن المسيح ابن الله فهذا عندهم اعتقاد جازم، ولكنه مخالف للواقع فلا يسمى معرفة، وقد يكون الإدراك الجازم المطابق للواقع ناشئاً عن اقتناع بالدليل فيكون معرفة، وقد يكون الجزم عن تقليد فلا يسمى معرفة.

والمعرفة المطلوبة من المكلف حتى يكون ناجيا يوم القيامة لا بد فيها من تحقق الجزم والقطع وعدم الشك والظن والوهم، ولا بد فيها من المطابقة للواقع، فإذا فقد أحد هذين الشرطين فلا معرفة ولا نجاة بالإجماع أما الشرط الثالث وهو أن تكون المعرفة عن دليل فقد وقع الخلاف فيه، والصحيح أن المقلد ناج إن شاء الله كما سيأتى.

والدليل هو لبرهان الموصول إلى العقيدة، وهو نوعان: تفصيلى وإجمالي.

الدليل التفصيلى: هو الذى يعرف المكلف تفاصيله وأجزاءه، ومقدماته ونتائجه، ويستطيع رد الشبه حتى توجه إليه، وذلك كمعرفة أن العالم حادث لأنه متغير، ويلزم على ذلك أنه يحتاج إلى محدث مع القدرة على إثبات كل مقدمة بدليلها.

الدليل الإجمالى: هو الذى لا يعرف المكلف تفاصيله وأجزاءه ولا يستطيع رد الشبه عنه، كأن يقول: الدليل على وجود الله وجود ذلك العالم، من غير أن يستطيع التفصيل، والمطلوب فى المعرفة، عند من يشترط الدليل، هو الدليل الإجمالى فقط. أما التفصيلى فهو فرض كفاية، بمعنى أنه يلزم أن يكون فى كل بلد أو قطر من يتعلم الأدلة التفصلية ليعلم الناس ويرد الشبه، فإذا وجد سقط الوجوب عن الجميع وإذا لم يوجد أثم الجميع ووجب عليهم أن يبعثوا من بينهم من يتعلم الأدلة التفصيلية ليعلم الناس، يقول سبحانه ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوْا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنهُم طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّيْنِ وَلِيُنْذِرُوْا قَومَهُم إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُم يَحْذَرُوْنَ﴾ سورة التوبة : ١٢٢.

حكم المعرفة: وقد أوجب الله سبحانه على كل فرد من أفراد المكلفين معرفته، والمقصود بالمعرفة بالنسبة إليه سبحانه، معرفة الواجب له والمستحيل عليه، والجائز فى حقه، أما معرفة ذاته فتقصر عنها العقول كما مر، فلا تكليف بها، بل العجز عن إدراك كنهها هو غاية المعرفة والتسليم، ولذلك يدفعنا الإسلام دائماً إلى التفكير في آلآء الله ونعمه، ويحول بيننا وبين التفكير فى ذاته، وصدق من قال: لا يعرف الله إلا الله، فترك الإدراك إدراك، والبحث عن الذات إشراك.

ومعرفة الله سبحانه بصفات الكمال أساس كل عبادة ولذلك تعتبر المعرفة أصلا للدين يوجبها العقل كما توجبها الشرائع، فالعاقل يستطيع أن يصل من وراء تفكيره السليم إلا الاعتراف بوجود الله واتصافه بصفات الكمال، والشرائع تركز أول ما تركز عقيدة التوحيد، وفيها معرفة الله بالوحدانية والخلق والإيجاد فالمعرفه واجبة وجوب أصول، فمن تركها كان كافراً لأنها أساس الدين.

وقد فرط البعض فجعل المعرفة غير واجبة أصلا، بل هى مندوبة، وهو رأى ساقط لا اعتداد به.

ودليل وجوبها: قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ سورة محمد : ١٩، وإجماع الأمة على وجوب الإيمان ودعوة المخالفين إلى الإيمان وعلى وجوب الفروع كالصلاة والصوم وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

من تجب عليه المعرفة:

وتجب معرفة الله تعالى على البالغ العاقل سليم الحواس، كما مر فى مبحث التكليف.

طريق وجوب المعرفة:

رأينا أن العقول السليمة تستطيع أن تصل عن طريق النظر والتفكير إلى معرفة خالق هذا الكون، وأن الشرائع تركز عقيدة التوحيد وتدعوا إليها، فهل الذى يوجب المعرفة هو العقل لو لم يرد شرع؟ أو الوجوب لا يكون إلا بورود الشرع عن طريق إرسال الرسل؟

رأى المعتزلة: وقد بينا فى تعريف المكلف أن المعتزلة لا يشترطون فيه غير العقل والبلوغ، فمن تحقق فيه الشرطان كان مكلفاً بالمعرفة فى رأيهم، ودليلهم على ذلك: أن

العقل يدرك حسن الأشياء وقبحها، فيستطيع أن يعرف بطريقة حكم الله فيها. فيعرف أن الحسن يطلبه الله، وأن القبيح ينهى عنه، وهذا في الأمور العامة التي يستطيع العقل إدراك حسنها وقبحها كوجوب الصدق والأمانة والمحافظة على النفس، وكحرمة الكذب والخيانة والإضرار بالناس، ثم يأتي الشرع مؤكداً ومقوياً لهذا الذي أدركه العقل، فلو لم يرد شرع لكنا ملزمين بمعرفة الله وإيجاب الحسن وتحريم القبيح.

ولهم دليل على وجوب المعرفة بالعقل، وهو أنه لو لم تجب المعرفة بالعقل للزم إفحام الرسل، أي إبطال دعواهم وإقامة الحجة عليهم، وإفحام الرسل باطل لإجماع الأمة على أن الرسل أفحموا خصومهم وثبتوا قواعد دينهم.

وإنما يلزم إفحام الرسل لأنه لو قال الرسول لمن يدعوه: أنا رسول من عند الله وانظر إلى معجزتي لتعرف صدقي؛ فإن الخصم يستطيع أن يقول له: أنا لا أنظر إلى معجزتك حتى يجب النظر علي: والنظر لا يجب إلا إذا ثبت صدقك فأما غير مكلف الآن بالنظر.

نقض أدلة المعتزلة: وهذا أسلوب في المحاجة لا يقول به عاقل، لأن الرسول شأنه شأن من يخبر شخصاً بخطر يكاد يدهمه ليأخذ حذره منه ويقول له: إذا أردت التيقن من صدقي فانظر خلفك إلى الخطر الداهم، فهل يقف الشخص ويقول أنا لا أنظر حتى يثبت صدقك، وصدقك لا يثبت إلا إذا نظرت، والنظر ليس واجباً علي؟ إنه يورد نفسه مورد الهلكة. وشأن الرسول كهذا النذير، لأنه ينذر الناس بعذاب أليم يترصدهم بعد الموت إن لم يأخذوا منه حذرهم ويقول: دليل صدقي هذه المعجزة فمن نظر وتيقن وآمن نجا، ومن أعرض واستكبر هلك.

أما الدليل الأول فيرد عليه كذلك أن العقل لا يستطيع وحده إدراك حسن الأشياء وقبحها، ولا يستطيع تبعاً لذلك معرفة حكم الله فيها، فالعقول لا تكاد تجمع على كل شئ، بل إن العقل الواحد قد يحكم بحسن الشئ ثم هو يتحول عن ذلك الحكم إلى الحكم بقبحه نتيجة تغير الزمن والبيئة أو الظروف المحيطة.

رأى الأشاعرة من أهل السنة: أما الأشاعرة فهم وإن كانوا يقدسون العقل ويجلونه ويجعلونه شرطاً في التكليف إلا أنهم لا يجعلونه وحده أساساً لذلك التكليف، بل يضيفون شرطا آخر وهو بلوغ الدعوة، وعلى ذلك فيكون وجوب المعرفة بالشرع، فلو لم يرد شرع فلا وجوب، وهذا صريح قوله سبحانه ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ سورة الإسراء: ١٥ ولا معنى لصرف اللفظ عن ظاهره وتفسير الرسول بالعقل، فالآية الأخرى صريحة في إثبات هذا المعنى

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوْا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُوْلًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾ سورة طه : ١٣٤ وقد قطع سبحانه على الكفار حجتهم، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ﴿لِئَلَّا يَكُوْنَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ سورة النساء : ١٦٥. ثم كيف يستطيع العقل وحده معرفة الطاعات التى تقرب إلى الله والمعاصى التى تغضبه؟ على أن أصل التكليف سواء أكان إلزاما أم طلبا إنما هو أمر أو نهى ممن يملك التكليف، وهو الله سبحانه، ولا بد من توصيل الأوامر والنواهى إلى المكلفين وذلك بطريق الرسل، وجعل التكليف بالعقل تضييق لرحمة الله الواسعة، مع أنه سبحانه تفضل ووعد أن لا يعذب إلا إذا أرسل الرسل.

رأى الماتريدية من أهل السنة: والماتريدية يعترفون بمنزلة العقل كذلك ويوافقون المعتزلة فى أنه يستطيع إدراك حسن بعض الأشياء وقبحها، ثم ينقسمون إلى فريقين فريق يقول بقول المعتزلة ويوجب المعرفة بالعقل، وفريق آخر، وهو أغلبهم، يقول بقول أهل السنة ويوجب المعرفة بالشرع، ويترتب على هذا الخلاف الحكم على أهل الفترة بالنجاة أو عدمها كما تقدم.

يقول صاحب الجوهرة:

فكل من كلف شرعا وجبا   عليه أن يعرف ما قد وجبا
لله والجائز والممتنعا   ومثل ذا لرسله فاستمعا

طريق الوصول إلى المعرفة

معرفة الله هى الغاية والمقصد، وللوصول إليها لا بد من المرور بالمراحل السابقة وهى الوسائل القريبة والبعيدة، ويكون ذلك عن طريق النظر فى هذا الكون، وإلى ذلك يرشدنا قوله سبحانه ﴿وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوْقِنِيْنَ. وَفِى أَنْفُسِكُم أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الذاريات : ٢٠،٢١ ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سورة يونس : ١٠١.

فالذى ينظر إلى نفسه كيف وضع بذرة فى بطن أمه، وكيف نما وخرج إلى الحياة وتدرج حتى وصل إلى الكهولة والهرم ثم الموت، وتوالت عليه أوصاف وأوصاف، والذى ينظر إلى ذلك العالم العلوى والفلى، وما يحوى من عجائب وأسرار، لا بد أن يصل إلى

أن ذلك العالم البديع لا بد له من صانع حكيم متصف بصفات الكمال، منزه عن صفات النقص فيحقق بذلك المعرفة.

أول الواجبات

بعد اتفاق من يعتد برأيهم على أن المعرفة والنظر الموصل إليها واجبان على كل مكلف من ذكر وأنثى عبد أو حر، وقع خلاف فى تعيين الواجب أولا منهما، ومن المقدمات الموصلة إليهما، أو النتائج المترتبة عليهما، وليس تعيين أول الواجبات من أصول الدين فلا يضر الاختلاف فيه.

وقد كثرت الأقوال فى تعيين أول الواجبات حتى بلغت اثنى عشر قولا:

١. رأى الأشعرى: أن أول الواجبات: المعرفة، أى معرفة الله بصفاته لأنها أساس معرفة الدين.
٢. رأى أبى إسحاق الاسفرايئى: أنه النظر الموصل إلى المعرفة لأنها تبتى عليه، والمقصود بالنظر الدليل الموصل إلى معرفة الله، كقولنا: العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، ويخلص من ذلك إلى معرفة الله.
٣. رأى القاضى الباقلانى: أن أول الواجبات معرفة المقدمة الأولى للنظر أى للدليل، فالواجب الأول فى مثالنا أن يعرف أن العالم حادث، فعلى معرفة ذلك يترتب النظر، ثم تجىء معرفة الله.
٤. رأى إمام الحرمين: أنه يسبق المقدمة الأولى للنظر: القصد إليه، وهو تفريغ القلب عن الشواغل حتى يستطيع تفكير فى المخلوقات ليصل عن طريقها إلى معرفة الله. فأول الواجبات هو القصد.
٥. وقال بعضهم: إنه يسبق كل ذلك تقليد الآخرين فى المعرفة والاعتقاد، ثم ينتقل إلى القصد والنظر، فيكون التقليد أول الواجبات.
٦. وقال آخرون: إن أول واجب أن ينطق بالشهادتين حتى يسارع بالدخول فى الإسلام ثم يتدرج نحو المعرفة.
٧. رأى أبى هاشم وبعض المعتزلة: أن أول واجب هو التردد والشك؛ ثم يكون القصد والنظر ليزول الشك والتردد.
٨. أنه الإيمان.

٩. أنه الإسلام، وهما قولان متقاربان، ويعتبران نتيجة لا مقدمة، فلا يكون أحدهما أول الواجبات.
١٠. اعتقاد وجوب النظر.
١١. أنه وظيفة الوقت، أي يكون فى كل شخص بحسب حاله، فيقدم الأولى، كصلاة ضاق وقتها ومعها فوائت فتقدم ويسقط الترتيب.
١٢. أول الواجبات أحد أمرين: المعرفة أو التقليد، من غير تحديد لأحدهما، وكأنه يقول: إنه الإدراك سواء أكان عن دليل أم لا، فهو مخير بينهما.

وأصح هذه الأقوال ثلاثة: وهى الأول والثانى والرابع، ويمكن الجمع بينها بأن الاختلاف من ناحية أنها وصيلة أو مقصد.

فأول الواجبات باعتباره وسيلة بعيدة: القصد إلى النظر، ثم باعتباره وسيلة قريبة: النظر، ثم باعتباره مقصداً ونتيجة: المعرفة.

ملحوظة:

من هنا إلى نهاية الكتاب مقرر على القسم (الأدبى) فقط.

النظـــــر

مفهومه: لغة الإبصار والفكر، أى حركة النفس وترتيبها على مقدمات فيأخذ العقل الأمور البديهية ويرتب عليها أمورا أخرى حتى يصل إلى النتيجة اليقينية، بعد أن تسلم جميع المقدمات من الاعتراضات.

حكمه: والنظر واجب إذا كان موصلا لمعرفة العقائد، لأن مقدمة المعرفة الواجبة، ويشير إلى الوجوب أمره سبحانه بالنظر فى قوله ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ سورة يونس : ١٠١ كما يشير إلى ذلك قوله سبحانه ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ﴾ سورة آل عمران : ١٩٠ ويؤكد عليه الصلاة والسلام وجوب النظر حين يقول تعليقا على هذه الآية: ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتفكر فيها. والويل هو الهلاك، وهو توعد لمن ترك التفكير والنظر.

طريق وجوبه: ولا خلاف بين المعتزلة وأهل السنة فى وجوب النظر، وإنما الخلاف فى

طريق وجوبه، هل هو الشرع أو العقل، وهو كخلافهم فى وجوب المعرفة.

يقول صاحب الجوهرة:

واجزم بأن أولا مما يجب معرفة، وفيه خلف منتصب
فانظر إلى نفسك ثم انتقل للعالم العلوى ثم السفلى
تجد به صنعا بديع الحكم لكن به قام دليل العدم

التقليد

القلد: بسكون اللام، فى اللغة الجمع، يقال: قلد الماء فى الحوض يقلده أى جمعه، ومنه التقليد يقال قلدت فلانا ولاية كذا أى جعلتها إليه، ومنه قلادة المرأة لأنها تجمع معها لتزين بها، فيقال قلدتها قلادة، أى جعلتها في عنقها، وفى العرف: محاكاة الغير فى قوله أو فعله أو هيئته، يقال قلد فلانا فى قوله أو مشيه أو لبسه، أى حاكاه وفعل مثله.

وفى الاصطلاح: الأخذ بقول الغير من غير أن يعرف الدليل.

وقد سبق فى بيان المعرفة أنها الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل.

ونستطيع أن نقول هنا: إن التقليد فى الاصطلاح: إدراك جازم مطابق للواقع ينشأ عن تقليد الغير لا عن دليل. فالفرق بين المعرفة والتقليد فى الاعتقاد أن المعرفة إدراك ناشىء عن دليل، والتقليد إدراك ناشىء عن محاكاة الغير من غير دليل. وقد مثل ذلك الشيخ السنوسى بجماعة ينظرون الهلال فى أول الشهر العربى ويبحثون عنه فى الأفق فسبق بعضهم إلى رؤيته، وصدق الآخرون من غير معاينة؛ فحكم الأول بدخول الشهر ناشىء عن دليل وهو الرؤية فهو معرفة، وحكم الآخرين تصديق من غير دليل، بل أخذ بقول الغير فيكون تقليدا، فإذا حاول أن يرشدهم إلى موضع الهلال حتى رأوه أصبحوا عارفين، لأنهم حصلوا الدليل، وكذلك العوام يقلدون فى عقائد التوحيد فإذا عرفهم أساتذتهم الأدلة أصبحوا عارفين.

أما بقية الشروط من الجزم، والقطع، والمطابقة للواقع، فمعتبرة فى المعرفة والتقليد.
والتقليد قد يكون فى أصول الدين وعقائده، وقد يكون فى فروعه وأحكامه، ومقصودنا الآن بيان حكم التقليد فى الأصول والعقائد.

حكم إيمان المقلد

سبق أن قلنا إن المعرفة واجبة على كل مكلف، والمعرفة لا تتم إلا بالدليل الإجمالى أو التفصيلى، فإذا فقط الدليل فلا معرفة وأصبح التصديق تقليداً. فهل يكفى التقليد فى العقائد ويعتبر إيمان المقلد صحيحاً ينجويه صاحبه من العذاب يوم القيامة ؟.
وقد وقع الخلاف فى الإجابة عن هذا السؤال، وينحصر فى ستة أجوبة:

١. التقليد لا يكفي لأن المعرفة واجبة وجوب أصول، والمقلد غير عارف لفقده الدليل، فيكون كافراً غير ناج يوم القيامة.
٢. التقليد يكفى مع العصيان مطلقاً، سواء أكان قادرا على تحصيل الدليل أو غير قادر، لأن المعرفة واجبة وجوب فروع.
٣. التقليد يكفى مع العصيان إن كان عنده قدرة على النظر وتحصيل الدليل ولم يفعل، ولا عصيان إن لم تكن عنده قدرة، وهو مبنى كذلك على أن المعرفة واجبة وجوب فروع وتكون مشروطة بالاستطاعة.
٤. تقليد القرآن والسنة القطعية هو الصحيح المنجى، لأنه تقليد للمعصوم، وغيره لا يؤمن خطؤه فلا يصح تقليده.
٥. التقليد يكفى من غير عصيان مطلقاً، أى سواء أكان قادراً على النظر أم غير قادر، لأن الدليل شرط كمال، فتركه خلاف الأولى.
٦. التقليد يكفى ويحرم النظر لأنه قد يضل بسببه كما حدث مع كثير من الفلاسفة.

والصحيح من هذه الأقوال هو القول الثالث المبنى على وجوب المعرفة بالدليل وجوب فروع عند الاستطاعة، أخذاً من قوله سبحانه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ سورة البقرة : ٢٨٦ ولأن النبي عليه الصلاة والسلام قبل من الناس الإيمان دون أن يطالبهم بالدليل، وعندما سئل عن الإيمان فى حديث جبريل المشهور قال: أن تؤمن

بالله وملائكته.... الخ. دون أن يتعرض للدليل، ومن لم تكن عنده المقدرة على النظر والاستدلال تسقط عنه المطالبة بهما، كما تسقط المطالبة بالحج عن غير المستطيع.

إيمان العوام: وعلى ذلك فإيمان العوام صحيح، وهم مؤمنون عارفون بربهم، وهم حشو الجنة. كما جاءت الأخبار بذلك، والعقد به الإجماع، لأن فطرتهم جبلت على توحيد الله سبحانه واعتقاد قدمه، وحدوث ما سواه، وهذه هى الفطرة التى ذكرها الله فى قوله: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ سورة الروم : ٣٠. وأشار إليها عليه الصلاة والسلام بقوله: كل مولود يولد على الفطرة. وقد أجمع المتكلمون-كما حكاه الآمدى-على انتفاء كفر المقلد: ولم يعرف القول بعدم صحة إيمان المقلد إلا لأبى هاشم الجبائى من المعتزلة وقد شذ بقوله هذا عن الإجماع فلا عبرة به.

هل الخلاف حقيقى أم لفظى: وقبل أن نجيب على هذا السؤال يجدر بنا أن نعرف الفرق بين الخلاف الحقيقى والخلاف اللفظى.

فالخلاف الحقيقى يكون حكم المختلفين على الشئ من ناحية واحدة، والخلاف اللفظى يكون حكم المختلفين من ناحيتين مختلفتين بحيث لو اطلع أحدهما على حقيقة رأى صاحبه لأقره.

والظاهر أن الخلاف حقيقى لأنه فى موضوع محدود وهو: هل المعرفة وهى مشروطة بالدليل، واجبة وجوب أصول أو فروع؟

وقد حاول بعض العلماء أن يجعله خلافا لفظياً فيجعل التقليد الجازم هو الصحيح المقبول المنجى، والتقليد غير الجازم هو المردود، ويفرقون بين التقليد الجازم وغير الجازم بأن المقلد الجازم هو الذى يثبت على عقيدته ولو تحول عنها صاحبها الأصلى، والمقلد غير الجازم هو الذى يتحول مع صاحب الرأى الأصلى.

والصحيح أن المقلد غير الجازم شاك متردد، لا يقبل إيمانه لأنه ليس تصديقا فلا بد فى التصديق من الجزم والقطع وعدم التردد، والخلاف إنما هو فى المقلد المصدق ولا يكون متردداً، وعلى هذا فالخلاف حقيقى. وهذا الخلاف مطلق فى كل معرفة، سواء أكانت متعلقة بمعرفة الله سبحانه أم بمعرفة غير ذلك من العقائد كمعرفة الرسل، وقد ظن بعض العلماء أن الخلاف فى النظر الموصل إلى معرفة غير الله أما النظر الموصل إلى معرفة الله فهو واجب بالإجماع، والصيح أن الخلاف مطلق كما مر.

وهذا معنى قول صاحب الجوهرة:

إذ كل من قلد في التوحيد ... إيمانه لم يخل من ترديد
ففيه بعض القوم يحكى الخلفا ... وبعضهم حقق فيه الكشفا
فقال: إن يجزم بقول الغير ... كفى، وإلا لم يزل فى الضير

الإيمان

الأمن فى اللغة: ضد الخوف، والإيمان التصديق مطلقا، وكأنه أمن من خوف التكذيب، يقول سبحانه على لسان إخوة يوسف ﴿وَمَآ أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَو كُنَّا صَادِقِينَ﴾ سورة يوسف ١٧ أى وما أنت بمصدق لنا. وفى الاصطلاح: التصديق بما جاء به النبى وعلم من الدين بالضرورة.

والإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، هو غاية كل دعوة سماوية، والمعرفة أو التقليد اللذان نقدم بحثهما ما هما إلا وسيلة للإيمان الذي ينجى من عذاب الله، ولذلك كان لزاما علينا أن نعرف الإيمان، ونعرف بجوار ذلك الإسلام، والعلاقة بينهما لارتباط ذلك بالعقائد التى نحن بسبيل بيانها.

وقد افترق المتكلمون فى تعريف الإيمان الاصطلاحى إلى ثلاث فرق كل منها يدعى أن رأيه هو الصواب، والخلاف إنما هو فى الإيمان الذى ينجى صاحبه يوم القيامة من عذاب الله ومن الخلود فى النار، أما إجراء الأحكام الإسلامية فى الدنيا فيكفى النطق بالشهادتين عند الجميع.

مراتب الإيمان

والإيمان الذى هو التصديق بما جاء به النبى، وعلم من الدين بالضرورة، له مراتب مختلفة:

١. إيمان المقلد الذى أخذ بقول غيره ولم يحصل الدليل وهو إيمان العوام.
٢. إيمان العارف الذي نظر وأقام الدليل وهو إيمان العلماء.
٣. إيمان عن عيان، وهو إيمان من يراقب الله بقلبه، فلا يغيب عنه طرفة عين وهو مقام المراقبة.
٤. إيمان عن حق وهو الناشىء عن مشاهدة الله بالقلب وهو مقام المشاهدة.

٥. إيمان عن حقيقة وهو الناشيء عن كونه لا يشهد إلا الله وهو مقام الفناء لأنهم يفنون عن غير الله ولا يشهدون إلا إياه.

وهناك منزلة رفيعة بعد ذلك وهى حقيقة الحقيقة ولا يدركها إلا الأنبياء ولا يستطيع غيرهم كشفها.

الإيمان عنا أهل السنة

يرى أهل السنة - أشاعر وماتريدية - أن الإيمان هو التصديق القلبى بما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام وعلم من الدين بالضرورة، أى اشتهر أمره حتى عرفه جميع الناس كوجوب الصلاة وحرمة السرقة.

والمقصود بالتصديق القلبى الإذعان والقبول، لا مجرد وقوع النسبة، فقد كان كثير من الكفار تقع فى قلوبهم نسبة التصديق ولا يذعنون فاعتبروا كفاراً، ولم ينفعهم ذلك التصديق لخلوه عن الإذعان، وقد قال الله في أمثال هؤلاء ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ سورة النمل : ١٤ أى أنهم يعتقدون نسبة الصدق لآيات النبوة ولكنهم جحدوا لتسكباراً وتعالياً وظلماً، وكذلك يقول أهل الكتاب بالنسبة لنبينا عليه الصلاة والسلام ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ سورة الأنعام : ٣٠ حتى قال عبد الله بن سلام: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى، ومعرفتى لمحمد أشد.

ومعرفة ما جاء به النبى وعلم من الدين بالضرورة قد تكون إجمالية، قد تكون تفصيلية. فتكفى المعرفة الإجمالية فيما كان التكليف فيه إجمالا، كالإيمان بغالب الأنبياء والرسل والملائكة، ولا بد من التفصيل فيما طلب فيه التفصيل كمعرفة الأنبياء المذكورين فى القرآن وهم خمسة وعشرون جمعهم العلماء فى قوله:

حتم على كل ذى التكليف معرفة	بأنبياء على التفصيل قد علموا
فى تلك حجتنا منهم ثمانية	من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو
إدريس هود شعيب صالح وكذا	ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

فلو عرض واحد من هؤلاء على المكلف فأنكر نبوته كان كافراً، لأنه كذب القرآن، إلا

أن يكون عامياً يجهل ذلك فلا يحكم بكفره إلا إذا أنكر بعد تعليمه.

علاقة النطق والعمل بالإيمان: والمقصود بالنطق الإقرار باللسان، والتصريح بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والمقصود بالعمل أداء الواجبات وترك المنهيات.

والنطق عند أهل السنة ليس داخلا فى حقيقة الإيمان، وإنما هو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية فحسب، فالتصديق أمر باطنى لا يطلع عليه إلا الله، فلا بد من علامة ظاهرة حتى يعامل معاملة المسلمين فى الدنيا من الصلاة خلفه ومناكحته وتغسيله وتكفينه، والصلاة عليه، ودفنه فى مقابر المسلمين والتوارث بينه وبين أقربائه المسلمين.

فمن صدق بقلبه وأذعن ولم ينطق بالشهادتين لا لعذر ولا لإباء وامتناع، يكون مؤمناً عند الله غير مؤمن من عندنا، فإذا لم ينطق لإباء وامتناع، كان غير مذعن فيكون كافراً فيهما، أما من امتنع لعذر كالخرس فهو مؤمن فيهما، وتكفى منه الإشارة. والنطق شرط لكافر يريد الدخول فى الإسلام، أما أولاد المسلمين فتجرى عليهم أحكام الإسلام فى الدنيا ولو لم ينطقوا بالشهادتين.

والإقرار باللسان لا بد أن يكون بلفظ أشهد، وتكديره، سواء بالعطف أو بدونه، ولا بد من الترتيب فى الشهادتين، والموالاة بينهما وعدم التراخى، ولا بد من التصريح بالاعتراف بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام إذا كان ممن يعتقدون اختصاص رسالته بالعرب، وإذا كان ممن يعتقدون قدم العالم وجب الاعتراف بحدوثه، وهكذا، وتساهل بعض العلماء فقال لا ضرورة للفظ أشهد فإذا قال: الله واحد ومحمد رسول صح إسلامه، ولا يشترط النطق بالشهادتين باللغة العربية، فلو شهد بغيرها صح إسلامه، وإن أحسن العربية. أما من نطق بلسانه ولم يصدق ويذعن بقلبه فهو كافر عند الله مؤمن عندنا، نعامله معاملة المسلمين، إلا إذا اطلعنا على كفره بعلامة كسجوده لصنم أو إهانته المصحف.

أما العمل فهو شرط كمال، فمن أتي بالعمل فقد حصل الكمال، ومن تركه فهو مؤمن فوت على نفسه الكمال فكان عاصياً بترك العمل، إلا إذا شك فى مشروعية ما عمل وجوبه، أو استحل ما علم تحريمه فيكون كافراً.

مذهب أبو حنيفة وبعض الأشاعرة

الإيمان الذى ينجى صاحبه يوم القيام مكون من جزءين: التصديق القلبى مع الإذعان والقبول، والنطق بالشهادتين، فالنطق على هذا شطر أى جزء من الإيمان وليس شرطا فقط، فمن صدق وأذعن بقلبه ولم يقر بلسانه من غير عذر لا يكون ناجياً يوم القيامة.

وهذان الجزءان للإيمان ليسا فى منزلة واحدة، فأحدهما-وهو التصديق-لا يحتمل السقوط، وثانيهما، وهو الإقرار، يحتمل السقوط عند عدم القدرة عليه كما فى الأخرس.

أما العمل على هذا المذهب فهو شرط كمال كما هو الحال فى المذهب الاول.

مذهب المعتزلة

يرى المعتزلة أن الإيمان مكون من ثلاثة أجزاء: التصديق القلبى مع الإذعان، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فمن لم يحصل هذه الثلاثة فلا نجاة يوم القيامة. أما من صدق وأقر ولم يعمل فليس مؤمناً لإهماله العمل، وهو جزء الإيمان وليس كافراً لأنه مصدق، ولذلك قالوا بالمنزلة بين المنزلتين وحكموا عليه بالخلود فى النار فى درك أخف من درك الكفار.

مذهب الخوارج

والخوارج يرون كما يرى المعتزلة أن الإيمان مكون من الأجزاء الثلاثة: التصديق، والاقرار، والعمل، ولكنهم يجعلونها فى مرتبة واحدة فمن ترك العمل حكموا عليه بالكفر والخلود فى النار.

شبه المعتزلة والخوارج:

دفع المعتزلة والخوارج إلى جعل العمل شطر الإيمان شبه نذكر منها:

١. أن العاصي، وهو الذى ترك الواجب أو فعل المنهى عنه. حكم الله عليه بالخلود فى النار وذلك فى قوله سبحانه ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ سورة النساء: ١٤ وفى قوله ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾ سورة النساء: ٩٣ وهذا صريح فى مرتكب المنهى عنه.
٢. وقد نفى عليه السلام الإيمان عن العاصى فى قوله: ﴿لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن .. الخ﴾

وهذه شبه يسهل ردها فالمراد بعصيان الله ورسوله وتعدي حدوده هو الكفر وعدم الإذعان، والقاتل الذى يخلد فى النار هو من يستحل القتل، أو المقصود بالخلود طول المكث لكبر الجريمة، والمنفى فى الحديث إنما هو الإيمان الكامل، أو المقصود أنه لا يقدم على الكبيرة وهو مستحضر للإيمان والخشية من الله وإلا لا متنع عنها، ويؤيد هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة فقال أبو ذر: وإن زنى وإن سرق! فقال عليه السلام: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر».

الرأى الصحيح وأدلته

والرأى الصحيح هو الأول، وهو أن الإيمان هو التصديق القلبي مع الإذعان والقبول. أما النطق فشرط لإجراء أحكام الدنيا، وأما العمل فشرط كمال.

يدل على صحة هذا الرأي عدة أدلة نذكر منها:

١. الإيمان فى اللغة مطلق التصديق، ونقل فى الاصطلاح إلى تصديق خاص وليس هناك ما يدل على نقله للنطق أو العمل.
٢. الإيمان هو التصديق لأن محله القلب. يدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ سورة المجادله: ٢٢. وقوله: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ سورة النحل: ١٠٦. وقوله عليه الصلاة والسلام: اللهم ثبت قلبى على دينك.

٣. الكفر هو الجحود، ومحله القلب كما أن محل الإيمان القلب فترك العمل أو النطق لا يكون كفراً.

٤. معظم النصوص تدل على التغاير بين الإيمان والعمل كقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سورة البقرة : ٢٧٧ والعطف يقتضى المغايرة.

٥. وجود وصف الإيمان قبل العمل كقوله سبحانه ﴿يَأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَام﴾سورة البقرة : ١٨٣.

٦. وصف العاصى بالإيمان فى قوله سبحانه ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾سورة الحجرات : ٩. فقد جامع البغىالإيمان، والبغى معصية فدل على أن العمل غير الإيمان، وكذلك قوله سبحانه ﴿الَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَم يَلْبِسُوا إِيْمَانَهم بِظُلْم﴾سورة الأنعام : ٨٢ فكأن هناك غيرهم آمن ولبس إيمانه بظلم.

٧. جعل الإيمانَ شرطاً لقبول العمل فى قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِه﴾سورة الانبياء : ٩٤ والشرط غير المشروط.

وقد جمع الآراء المختلفة صاحب الجوهرة في قوله:

وفسر الإيمان بالتصديق ... والنطق فيه الخلف بالتحقيق

فقيل شرط كالعمل، وقيل بل ... شطر، والإسلام اشرحن بالعمل

الإسلام

الإسلام لغة الانقياد والامتثال مطلقاً، سواء أكان ظاهراً أم باطنا، فى الدين أو فى غيره، وشرعاً بالانقياد والامتثال لما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام وعلم من الدين بالضرورة، ولذلك فسروه بالامتثال للعمل الذى جاء به الإسلام من صلاة وصوم وحج وزكاة، والمقصود بالامتثال والانقياد الإقرار بشرعية هذه الأعمال سواء أعمل بالفعل أم لم يعمل، وهذا رأى جمهور الأشاعرة.

أما الماتريدية والمحققون من الأشاعرة فيرون أن الإسلام هو الإذعان الباطنى ويستدلون بقوله سبحانه ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَام﴾سورة الزمر : ٢٢ فموضع الإسلام القلب فهو

إذعان باطنى، ويرد الأولون هذا بأن المقصود شرح صدره لقبول الإسلام، ولا داعى لهذا التقدير، فإن الأصل عدم الحذف، وعلى هذا الرأى يكون النطق دليلا على الإسلام والعمل كمالا له.

الصلة بين الإيمان والإسلام

من البحث الماضى فى كل من الإيمان والإسلام نجد علاقة وثيقة بينهما، وهذه العلاقة تختلف باختلاف المذاهب.

الصلة بينهما لغة:

قلنا إن الإيمان هو التصديق والإسلام هو الانقياد، وبين التصديق والانقياد مغايرة فى المعنى، فمفهوم كل منها غير مفهوم الآخر، أما باعتبار المحل، أى الأفراد الذين يوصفون بكل منها وهو ما يعبر عنه المناطقة «بالماصدق» فبينهما عموم وخصوص وجهى، أى يصح أن يوصف فرد بالإيمان وبالإسلام إذا صدق وانقاد، وينفدر كل منها، فينفرد الإيمان فيمن صدق بقلبه ولم يمتثل ظاهراً، وينفرد الإسلام فيمن امتثل ظاهراً ولم يصدق بقلبه.

الصلة بينهما شرعاً:

رأى الأشاعرة: الإيمان عندهم هو التصديق القلبى، والسلام هو الانقياد الظاهرى، فالصلة بينهما فى الاصطلاح كالصلة بينهم فى اللغة، عموم وخصوص وجهى وتغاير فى المفهوم ،الماصدق وإن كانا متلازمين إذا اعتبرنا الإيمان المنجى والإسلام المنجى. فكلما وجد أحدهما وجد الآخر لاتحاد المحل وهو المؤمن المسلم، فكل مسلم مؤمن وكل مؤمن مسلم، إذا نظرنا إلى النتيجة المقصودة من كل منهما وهى النجاة يوم القيامة.

وأما من صدق بقلبه ومات فجأة قبل أن ينطق بلسانه فهو مؤمن مسلم عند الله وليس مؤمنا ولا مسلماً عندنا، لأننا لم نطلع على قلبه ولم توجد علامة تدل على إسلامه، فنعامله فى الدنيا معاملة الكفار، أما حكمة فى الآخرة فهو النجاة.

رأى الماتريدية: إن الإيمان والإسلام متحدان فى المفهوم، فالإيمان تصديق والإسلام

إذعان باطنى فهما مترادعان فى المعنى والمفهوم وفى المحل والماصدق فكل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن.

تحقيق الخلاف: يرى البعض أن الخلاف فى هذا الموضوع حقيقى لتفسير كل فريق الإسلام بما يغاير تفسير الآخر. ويرى آخرون أنه لفظى باعتبار النتيجة، فحمل القول باتحاد المفهومين على أن من اتصف بأحدهما اتصف بالآخر شرعا وإن تغاير معنى. وحمل القول بتغايرهما على مغايرة أحدهما للآخر فى المعنى وإن اتحدا محلا، والحق أن الخلاف حقيقى، والرأى الذي تؤيده اللغة والنصوص هو رأى الأشاعرة، بقول الله سبحانه فى حق المنافقين: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيْمَانُ فِى قُلُوبِكُم﴾ سورة الحجرات : ١٤ وهذا يدل على تغايرهما فى المعنى.

الخلاصة: أنهما متغايران معنى وأفراداً، فمعنى الإيمان التصديق الباطنى وأفراده تصديقات كالتصديق بالله والتصديق باليوم الآخر وهكذا، ومعنى الإسلام الانقياد الظاهرى، وأفراده انقيادات للأمور العملية كانقياده لفرضية الصلاة وفرضية الصوم ولفرضية الزكاة وهكذا.

أما المحل الذى يوصف بكل منهما فهو أفراد العباد، وكل فرد يصلح محلا للإيمان وللإسلام، فيوصف بهما إذا اجتمعا فيه، ويوصف بأحدهما دون الآخر إذا وجد أحدهما ولم يوجد الآخر، يقول صاحب الجوهرة:

والإسلام اشرحن بالعمل

مثال هذا: الحج والصلاة كذا الصيام قادر والزكاة

زيادة الإيمان ونقصانه

عرفنا أن الإيمان هو التصديق القلبى، والنطق دليل عليه، والعمل كمال له، كما هو رأى الأشاعرة. فهل يزيد الإيمان وينقص، أو لا يزيد ولا ينقص؟

إذا نظرنا إليه باعتبار العمل، الذي هو شرط كماله على التحقيق، وجدنا أنه يزيد بزيادة العمل الصالح وينقص بنقصه، أى أن درجة العاملين تزداد رفعة ورقيا كلما ترقوا

فى درجات الطاعة.

أما باعتبار حقيقة الإيمان وهو التصديق فقد اختلف فى زيادته ونقصه.

رأى أبو حنيفة: يرى الإمام أبو حنيفة أنه لا يزيد ولا ينقص، لأنه أعلى درجات الإدراك فإذا نقص صار تردداً وشكا، فلا يكون إيمانا، وليس هناك مرتبة بعد الجزم والقطع واليقين.

رأى الأشاعرة: أما الأشاعرة فيقولون إنه يزيد وينقص، ويستدلون على ذلك بأدلة عقلية ونقلية نذكر منها:

١. لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان بالزيادة والنقص لكان إيمان أفراد الأمة مساويا لإيمان الأنبياء والملائكة وهذا باطل فبطلت المساواة وثبت التفاوت بالزيادة والنقص.
٢. إيمان المقلد ليس فى قوة إيمان العارف، وإيمان العارف أدنى من إيمان المشاهد، وهذه درجات فى التصديق وهو الجزم والقطع.
٣. النصوص الكثيرة التى تنص على الزيادة كقوله سبحانه.﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آيَاتِه زَادَتْهُم إِيْمَانًا ﴾سورة الانفال : ٢ وقوله ﴿لِيَزْدَادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴾سورة الفتح : ٤ وقوله (وَيَزْدَادَ الَّذِيْنَ آمَنُوا إِيْمَانًا ﴾سورة الحجرات : ١٢٤ وقوله ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ آمَنُوا فَزَادَتْهُم إِيْمَانًا وَهُم يَسْتَبْشِرُونَ ﴾سورة التوبة. ولا داعى لصرف الآيات عن هذا المعنى الواضح لنقول إن الزيادة بالمؤمن به وهو الآيات والأحكام التى تنزل.
٤. سأل ابن عمر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : هل الإيمان يزيد وينقص؟ قال: نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار.
٥. يقول عليه الصلاة والسلام فى شأن أبى بكر: لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به.
٦. وأصرح من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى شأن أبى بكر أيضا: ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصيام ولكن بشئ وقر فى نفسه، والذى وقر فى النفس واستقر فى القلب هو التصديق.

والذى يقبل الزيادة عقلا يقبل النقص، فثبت من مجموع ذلك أن الإيمان يزيد وينقص.

والرأى الراجح: هو رأى الأشاعرة لتضافر الأدلة العقلية والنقلية على تحقيق الزيادة والنقص فى نفس التصديق، ويبدوهنا التفاوت من نواح ثلاث:

١. من ناحية الأدلـة، فالتصديق الناشىء عن دليل واحد لا يكون فى منزلة التصديق الناشىء عن أدلة متعددة.
٢. التصديق الناشىء عن أدلة إجمالية غير الناشىء عن أدلة تفصيلية أزيلت فيها الشبه والاعتراضات.
٣. التصديق الذى ينتج عنه ثمرة ويترتب عليه العمل، أقوى وأثبت من التصديق النظرى دون نتائج.

أقسام المصدقين: وإذا كان التصديق يقبل الزيادة والنقص عقلا، فلا يلزم من ذلك أن يكون إيمان كل فرد قابلا للزيادة والنقص فى الواقع ونفس الأمر، لأنه قد قامت الأدلة على أن المصدقين-من هذه الناحية-ثلاثة أقسام:

١. قسم يزيد إيمانه ولا ينقص وهم الأنبياء، فهم يتدرجون فى مدارج الرقى وهم معصومون من النقص، والكامل يقبل الكمال.

فالإيمان بعد المشاهدة أكمل منه قبلها، ويشير إلى هذا قول الله على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾سورة البقرة : ٢٦٠ وكأنه عليه السلام يقول: لقد حصلت إيمان العارف وأريد أن أترقى حتى أحصل إيمان المشاهدة؛ فلم يكن قوله شكا ولا ترددا، أما قوله عليه الصلاة والسلام فى هذا الشأن: نحن أحق بالشك من إبراهيم. فمعناه أنه لو لحق الشك إبراهيم للطرق إلينا من باب أولى لأن إبراهيم من العارفين المصدقين، والرسول يعبر بذلك عن حال الامة لا عن حاله عليه الصلاة والسلام، وإذا قلنا إنه يعبر عن حاله فيكون ذلك تواضعا منه عليه الصلاة والسلام إظهارا لمنزلة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

٢. قسم لا يزيد إيمانه ولا ينقص، وهم الملائكة، فإيمانهم ناشىء عن فطرتهم، وليس فى قدرتهم النظر والتفكير وتحصيل الأدلة.
وذكر الشيخ الأجهورى أن إيمانهم كإيمان الأنبياء يزيد ولا ينقص.

٣. قسم يزيد إيمانه وينقص وهم بقية لعباد من الإنس والجن القادرين على النظر والاستدلال أو الاندفاع وراء الهوى والشيطان.

هل الخلاف لفظى أم حقيقى؟ يرى الإمام الرازى وإمام الحرمين أن الخلاف فى زيادة الإيمان ونقصانه لفظى، إذ أن الذى يقول بالزيادة والنقص ينظر الى العمل الذى به كمال الإيمان، والذى بقول بعدم الزيادة والنقص ينظر إلى الأصل وهو التصديق الباطنى، والحق-كما تبين-أن الخلاف حقيقى لأنه منصب على الأصل وهو التصديق الباطنى، بقطع النظر عن العمل أى أن التصديق وهو الجزم والقطع هل له مراتب بعد ذلك أولا؟ يقول الأشاعرة نعم يزيد وينقص ويقول أبو حنيفة لا، لا يزيد ولا ينقص.

وقد رأى صاحب الجوهرة أن زيادة الإيمان ونقصانه إنما هي باعتبار العمل، ورجح رأى الأشاعرة، وأشار إلى الخلاف بقوله:

ورجحت زيادة الإيمان ... بما تزيد طاعة الإنسان

ونقصه بنقصها، وقيل لا ... وقيل لا خلف، كذا قد نقلا

حدوث العالم

يطلق لفظ العالم على ما سوى الله جل جلاله من الموجودات، وهو يشمل كل ما فى ذلك الكون علوية وسفلية، فعلوية السموات وما فيها من أفلاك وكواكب، وسفلية الأرض وما عليها من نبات وجماد وحيوان وهواء، ونحن مطالبون بأن نبحث فى هذا العالم، ونفكر كيف وجد؟ ومن الذى أوجده؟ وما هى نهايته؟

فقد أوجبنا على المكلفين النظر، وإعمال الفكر؛ وترتيب القضايا، واستنتاج النتائج، حتى نصل من وراء ذلك إلى معرفة موجد الكون فيتحقق الإيمان به الذى النجاة يوم القيامة.

والمفكر يجد فى كل شئ فى ذلك الكون آية من آيات الصانع الحكيم دالة على الوحدانية والقدرة والعلم، فحيثما وجه نظره وفكره بدت الأدلة والبراهين ناطقة بوجود خالق الكون ومدبره، فمن نظر إلى نفسه كيف تكونت رمم ركبت، وكيف تسير آلاتها وأعضاؤها

بقوة ونظام، وكيف تتغذي خلايا الجسم من الدم المتدفق في الشرايين يدفعه القلب النابض في حركة دائبة منتظمة، ثم كيف يفكر العقل ويفهم ويحل المشاكل، ثم كيف يشعر بالسرور أو الألم، وبالراحة أو التعب، وبالصحة أو المرض، وكيف تصل إليه المعلومات عن طريق سمعه وبصره ولمسه وذوقه، وكيف تدرك هذه الأعضاء تلك المعاني، وكيف يستطيع التفاهم مع الآخرين بالكلام أو الإشارة، ثم ما تحمله نفسا من معاني الحب والكراهية والوفاء والخيانة، والصدق والكذب، كل هذه أمور تعرض للنفس وتزول، فمن الذي أبدع النفس هذا الإبداع وأوجدها على هذه الصورة؟ إنه الخلاف العظيم الذى يقول ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾سورة الانفطار : ٦،٧،٨.

وإذا نظر إلى السموات العلا، وما يجري فيها من كواكب وأفلاك، وكيف تسير منذ ملايين السنين بهذا النظام المحكم البديع دون أن يطرأ عليها خلل، ولا يصيبها وهن، وكيف رفعت السماء بغير عمد، أدرك أن مبدع السموات الحكيم العليم الذى يقول ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾سورة يس : ٣٨،٣٩،٤٠.

وإذا نظر إلى الأرض وما تحوى من زرع ونبات وحيوان وجماد، كل له طابعه ومميزاته، وكيف تشق البذرة الأرض فتجرج منها الشجرة تحمل ثمرا مختلفاً، أكله صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد، إنه الحكم الخبير الذى يقول ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾سورة فطر : ٢٧-٢٨.

هذا العالم يحمل فى طياته دليل حدوثه واحتياجه إلى خالق موجود مدبر حكيم هو الله الذي لا إله إلا هو، ولكن قوما أعمتهم الدنيا وأضلهم الشيطان فأنكروا وجود ذلك الصانع الحكيم ليتحللوا من قيود الشرائع، وليسيروا فى هذه الحياة كالحيوانات بل هم أضل، قد أثاروا شبهات لقيت مجالا فى النفوس الضعيفة فكان واجباً على حماة الحق أن يبينوا زيف هذه الشبه، وأن يوضحوا دليل وجود الصانع الحكيم، عن طريق إثبات حدوث العالم بنفس الأسلوب الذي يستعلمه الخصوم، وهو أسلوب المنطق السليم، من ترتيب

قضايا بديهية تبني عليها قضايا أخري فيضطر الخصم إلى التسليم بالنتيجة. أدعي خصوم الأديان أن العالم قديم فليس محتاجاً إلي موجد، وهي دعوى باطلة بالأدلة القاطعة.

دليل حدوث العالم: العالم مكون من صنفين: جواهر وأعراض والجواهر ما قام بنفسه، أي الذات والجسم الذي يشغل حيزاً من الفراغ، والعرض هو الصفة التي تعرض للذوات، ولا بد للذات من صفات فلا تعقل ذات بدون صفات، ولا صفات بدون ذات، فبين مطلق الصفة والموصوف تلازم في الوجود والعدم، فكلما وجد موصوف وجدت صفات، وكلما وجدت صفات وجد موصوف، وإذا الحق العدم الموصوف عدمت الصفات، وإذا عدمت الصفات مطلقاً عدم الموصوف لأن النقيضين لا يرتفعان، فلا يوجد جسم ليس متحركا ولا ساكنا.

دليل حدوث العرض:

والأعراض حادثة لأنه يطرأ عليها العدم بالمشاهدة في بعضها وبالقياس في البعض الآخر، فنحن نشاهد كثيراً من الأعراض تزول ويحل محلها وصف آخر كالحركة والسكون، فقد يكون الجسم متحركا ثم يسكن فتنعدم الحركة، وإذا تحرك انعدم السكون، والأعراض الأخرى التي لم نشاهد عدمها تشبه هذه الأعراض، وما جاز على أحد المثلين يجوز على الآخر، وما دامت الأعراض تنعدم فهي حادثة، لأنها لو كانت واجبة الوجود لما طرأ عليها العدم.

دليل حدوث الجوهر:

والجوهر ملازم العرض، إذ لا يعقل جوهر بغير عرض، وملازم الحادث حادث، فلو كان الجوهر قديماً للزم على ذلك أن يكون خاليا من الأعراض قبل حدوثها وهو محال، فثبت أن العالم بقسميه حادث وكل حادث لا بد له من محدث. فالعلم لا بد له من محدث وهو الله سبحانه.

الشبه على هذا الدليل وإبطالها: وقد حاول الخصوم أن يثيروا على ذلك الدليل شبهاً لإبطاله ولكنهم أفحموا، وكلما أثاروا شبهة وظهر بطلانها سلموا وبحثوا عن شبهة أخرى. وتتخلص شبههم فيما يأتي:

١. قالوا إن تقسيم العالم إلى جواهر وأعراض، وجعل الأعراض زائدة على الجواهر

لنستدل بها على حدوث العالم أمر غير مسلم، فلا يوجد زائد، وهذه شبهة تافهة، فزيادة الأعراض على الجواهر أمر بديهى لا يختلف فيه إثنان، فالكل يدرك الفرق بين الجسم الساكن والجسم المتحرك، فهذا له وصف آخر زائد على ذاته.

٢. **قالوا**: سلمنا أن العرض زائد عن الجوهر، ولكنا لا نسلم أنه ينعدم إذا جاء النقيض، فالمتحرك إذا سكن لا تنعدم حركته لجواز أن الوصف قام بنفسه عندما فارق الجوهر: وهذا الفرض باطل، لأن العرض لا يمكن أن يقوم بنفسه لأنه لا يعقل وجود صفة بدون موصوف، فلا يمكن أن توجد حركة بدون متحرك ولا سكون بدون ساكن.

٣. **قالوا**: سلمنا أنه لا يقوم بنفسه: ومع ذلك لا نسلم أنه ينعدم، لجواز أنه ينتقل من ذلك الجوهر إلى جوهر آخر، أى أن حركة الجسم عندما يسكن تنتقل عنه إلى جسم آخر يتصف بها، وهذا باطل، لأنه لو انتقل للزم أن يقوم بنفسه فى الفترة التى يترك فيها الأول ويصل إلى الثانى. وقد ثبت أن العرض لا يقوم بنفسه.

٤. **قالوا**: سلمنا أنه لا ينتقل، ومع ذلك لا نسلم أنه ينعدم، لجواز أن يكون الوصف قد كمن واختفى فى الجسم حينما ظهر الوصف الآخر، وهذا أيضا باطل لأنه يلزم عليه اجتماع النقيضين وإن كان أحدهما ظاهراً والآخر كامناً، فيكون الجسم متحركا وليس محركا فى آن واحد وهذا محال.

٥. **قالوا**: سلمنا أنه لا يكن وسلمنا أنه ينعدم. ومع ذلك لا نسلم أنه يلزم من حدوثه حدوث الجوهر لأننا لا نسلم التلازم بين الجوهر والعرض، فقد يوجد الجوهر دون العرض، وهذا فرض باطل لأن التلازم قائم حتى لا يرتفع النقيضان فيكون الجسم غير متصف بحركة ولا سكون مثلا، وارتفاع النقيضين محال.

٦. **قالوا**: سلمنا أن العرض ينعدم، وأنه ملازم الجوهر، ومع ذلك نقول إنه قديم وينعدم، وهذا باطل. لأن القديم لا يكون وجوده إلا واجباً، والواجب لا يطرأ عليه العدم.

٧. **قالوا**: سلمنا أن العرض حادث، وأنه ملازم الجوهر، ولكنا لا نسلم أن ملازم الحادث حادث، لجواز أن تكون الأعراض حوادث لا أول لها فيكون ملازما قديماً، وهذا الفرض يحمل دليل بطلانه، فما دامت حوادث فلا بد أن يكون لها أول، فقولهم: حوادث لا أول لها فيه تناقض فيكون باطلا.

هذه هى الاعتراضات السبعة، أو الشبه السبعة، أو المطالب السبعة، كما يقول علماء الكلام، وقد ظهر أنها شبه واهيه لا تقوى على البقاء، وثبت أن العالم حادث وقد أشار بعض المتكلمين إلى رد هذه المطالب السبعة فى بيت من النظم يقول:

زيد مقام ما انتقل ما كمنا   ما انفك لاعدم قديم لاحنا

فقوله زيد: إثبات لزيادة الأعراض، زقوله مقام، نفى لقيام العرض بنفسه، وما انتقل: نفى لفرض انتقاله، وما كمنا: نفى لجواز كمونه، وما انفك: نفى لجواز انفكاكه عن الجوهر، وقوله لاعدم قديم: نفى لفرض انعدامه مع أنه قديم، وقوله لاحنا منحوت من قولهم: حوادث لا أول لها.

الخلاصة: أن العالم بقسمية، الجواهر والأعراض، حادث، وهذه نتيجة لقياس صورته: العالم جائز عليه العدم، وكل ما جاز عليه العدم استحال عليه القدم، وإذا استحال القدم ثبت الحدوث، وكل حادث لا بد له من محدث، وهذه هى النتيجة المطلوبة، لأن النظر فى أحوال النفس والعالم واجب ليصل بنا إلى معرفة موجد هذا الكون وهو الله سبحانه.

اعتراض الطبيعيين: ادعى جماعة من الطبيعيين أن الذى أوجد ذلك العالم هو الطبيعة، أو أنه موجود بطبيعته، أى ليس محتاجا إلى موجد موصوف بصفات الكمال كما يقول أصحاب الأديان.

وإذا سألنا هؤلاء الطبيعيين: ما هى الطبيعة التى أوجدت هذا العالم؟ وقالوا: إن كل جرم فى ذلك العالم له طبيعة خاصة، فالبذرة فيها طبيعة النمو، والمعادن فيها طبيعة المطاوعة، والخشب فيه طبيعة الاحتراق. ونحن نرى البذرة تشق الأض فتخرج منها الشجرة بطبيعتها ويخرج الثمر ثم تقع بعض البذور على الأرض لينبت غيرها وهكذا.

الرد عليهم: ما أسهل الرد على هؤلاء فكلامهم يحمل بين طياته أدلة بطلانه، إن طبيعة الأشياء هى الأوصاف التى تلازم هذه الأشياء سواء أكانت الأوصاف ظاهرة أم كامنة، فطبيعة البذرة أنها تقبل النمو إذا وضعت فى تربة صالحة وجود مناسب فلا بد إذن من وجود البذرة ووجود التربة موصوفة بهذه الأوصاف التى يقولون إنها الطبيعة، وهل يعقل أن توجد الطبيعة أي الأوصاف وحدها بدون الأجسام؟ إنه تصوير لشبهة الفلاسفة-التى ثبت بطلانها-بصورة حديثة براقة فيخدع بها الضعاف لأول وهلة، ثم لا يلبثون أن يدركوا

زيفها. حينما يظهر لهم أن هذه الطبيعة هي التي سميت أعراضاً، وأن الأجسام التي تلازمها هي الجواهر، وقد ثبت حدوث هذه وحدوث تلك واحتياجهما إلى محدث، لأن كل صنعة لا بد لها من صانع.

وقد حث صاحب الجوهرة المكلفين على النظر والفكر للوصول عن طريقة إلى معرفة الله وذلك في قوله:

فانظر إلى نفسك ثم انتقل   للعالم العلوي ثم السفلي
تجد به صنعاً بديع الحكم   لكن به قام دليل العدم
وكل ما جاز عليه العدم   عليه قطعاً يستحيل القدم

نماذج أسئلة جزء ١ توضيح التوحيد

س: كيف نشأ علم التوحيد؟

س: ما معنى العقيدة؟ وما هى أهم العقائد التى يشتمل عليها القرآن؟

س: ما معنى الحكم الشرعى وهل أحكام جميع الشرائع متشابهة؟

س: ما أثر الفتوحات الإسلامية فى العقائد؟

س: ما المقصود بكل من الأسباب الداخلية والأسباب الخارجية لنشأة علم التوحيد؟

س: ما هى الأسباب الداخلية لنشأة علم التحيد؟

س: ما هى الأسباب الخارجية لنشأة علم التوحيد؟

س: كيف نشأت الفرق الكلامية فى الإسلام؟

س: ما هو المبدأ الأول الذى قامت عليه جماعة الشيعة ولمن يتشيعون وكيف قامت جماعتهم وهل هم جميعاً على رأى واحد وما هى أهم العقائد التى قامت نتيجة التشيع؟

س: ما هى أهم فرق الشيعة. أذكر نبذة مختصرة عن كل فرقة وأهم مبادئها؟

س: أذكر ما تعرفه عن البابية، البهائية، القديانية وصلة كل منها بالأخرى وأهم مبادئها؟

س: من هم الخوارج وإلى كم قسم ينقسمون وما هى أهم آرائهم؟

س: ما هو الإرجاء وكيف نشأت فرقة المرجئة وما هى أهم مبادئهم؟

س: من هم القدرية الأولى وما هى أهم مبادئهم وبم تحكم عليهم. وهل يوجد أحد على هذا الرأى الآن؟

س: ما معنى الجبر لغة واصطلاحا ومن أول من قال بالجبر وما هى أهم مبادىء الجبريين وما الآثار المترتبة على الأخذ بهذا؟

س: كيف نشأت فرقة المعتزلة ولم سموا بهذا الاسم وبماذا سموا أنفسهم وما هى أهم مبادئهم؟

س: من هم أهل السنة وما هى أهم مبادئهم ومن هم أشهر أئمتهم؟

س: أذكر ما تعرفه عن كل من. أبى الحسن الأشعرى، وأبى منصور الماتريدى؟

س: ما هو التوحيد لغة وشرعا واصطلاحا؟

س: ما موضوع علم التوحيد، وما ثمرته وما فضله ونسبته إلى بقية العلوم؟

س: هل لعلم التوحيد أسماء أخرى؟ وما هى أوجه تسميته بهذه الأسماء؟

س: ما المنبع الذى يستمد منه علم التوحيد مسائله وما هى هذه المسائل وما حكمه؟

س: ما هو التكليف ومن هو المكلف ومتى يسقط التكليف؟

س: ما هو الحكم وإلى كم قسم ينقسم. عرف كل قسم.

س: ما هو الحكم العقلى وما أقسامه مثل لكل قسم.

س: معرفة الله سبحانه غاية كل عاقل فما هى المعرفة لغة واصطلاحا وما هى المعرفة المطلوبة من المكلف حتى تتحقق نجاته يوم القيامة.

س: رأى بعض المتكلمين أن المعرفة لا تكون إلا عن دليل فما هو الدليل وما أقسامه وما تعريف كل قسم؟

س: ما دليل وجوب المعرفة وما طريق وجوبها ومن الذى تجب عليه المعرفة. أذكر رأى أهل السنة، ورأى المعتزلة فى ذلك؟

س: اختلف المتكلمون فى أول الواجبات على المكلف فما هى أهم الأقوال وما أصحها وهل يمكن التوفيق بينها؟ وهل هذا الخلاف يضر فى العقيدة؟

س: ما المقصود بالنظر الموصل إلى معرفة الله؟ وما حكمه وهل هو واجب بالعقل أو بالشرع؟

س: ما الفرق بين المعرفة والتقليد، وما حكم إيمان المقلد أذكر خلاف العلماء والرأى الراجح؟

س: هل إيمان العوام كاف لنجاتهم يوم القيامة؟

س: وقع خلاف بين المتكلمين فى إيمان المقلد فهل الخلاف حقيقى أم لفظى وجه ما تقول.

س: الإيمان غاية كل دعوة سماوية. فما هو الإيمان الذى ينجى صاحبه من النار؟

س: اختلف المتكلمون فى تعريف الإيمان فما هو الرأى الراجح فى نظرك وما أدلته؟

س: يختلف الإيمان فى نفوس الناس أذكر مراتب الإيمان؟

س: ما الفرق بين مذهب المعتزلة ومذهب الخوارج فى تعريف الإيمان، وما الفرق بينهم وبين جمهور المتكلمين وما هى الشبه التى دفعتهم إلى هذه المخالفة؟

س: ما هو الإسلام لغة وشرعا وهل هناك خلاف فى التعريف؟ أذكر الخلاف إن وجد.

س: ما هى العلاقة والصلة بين الإيمان والإسلام من ناحية اللغة والشرع:
وهل الخلاف بين المتكلمين فى معنى الإيمان والإسلام حقيقى أم لفظى؟

س: الإيمان هو التصديق القلبى فهل تتوارد عليه الزيادة والنقصان؟ أذكر آراء العلماء وأدلتهم وما الرأى الذى تختاره ولماذا؟

س: المؤمن هو المصدق فهل جميع المؤمنين فى منزلة واحدة من ناحية التصديق؟

س: وهل الخلاف فى زيادة الإيمان ونقصانه حقيقى أم لفظى؟

س: ما المقصود بالعالم وكيف نصل عن طريقه إلى معرفة الخالق سبحانه؟

س: العالم مكون من صنفين جواهر وأعراض فما هى الجواهر وما هى الأعراض وهل هما أو أحدهما حادث أو قديم. أذكر دليل ما تقول.

س: ما هى الشبة التى أثيرت على دليل حدوث العالم وكيف تزيل هذه الشبه ليسلم الدليل؟

س: أدعى الطبيعيون أن العالم موجود بطبيعته. اشرح رأيهم ثم احكم عليه واذكر دليل رأيك؟

كلمة ختامية

لقد حاولت فى هذا الكتاب، تبسيط المعلومات حتى تكون سهلة المأخذ، قريبة الفهم، وكنت أستلهم القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأقوال علماء الأمة السابقين، لأصل إلى تركيز وتوضيح العقائد الإسلامية فى نفوس المؤمنين، فإن أكن قد وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإذا كانت الأخرى فإنى ألتمس العفو والمغفرة، وشفيعى أننى بذلت عليه جهدى، وأخلصت ما استطعت نيتى.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه وأن ينفع به طلاب العلم، وأن يدخر لى ثوابه يوم ألقاه سبحانه بقلب سليم.

وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والحمدلله رب العالمين.

أشرف على هذه الطبعة بتصحيحها
أحمد حسين البحه
شيخ معهد غيط العنب بالاسكندرية

جمهورية مصر العربية
الأزهر
الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية

توضيح التوحيد

من تحفة المريد على الجوهرة

الجزء الثانى

لطلبة الثانية الثانوية بالمعاهد الأزهرية
علمى وأدبى

طبقاً لمنهج المعدل سنة ١٩٦٨

تأليف

حسين محمد المصرى
وكيل معهد الاسكندرية

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ م

منهج التوحيد

للصف الثانى الثانوى

القسم الأدبى

١. الإلهيات: صفات الله عزوجل، بيان معنى كل قسم، تعريف كل صفة، وإقامة الدليل النقلى والعقلى على وجوبها لله تعالى، تقسيم صفات المعانى من حيث التعلق وعدمه، معنى تعلق الصفة، بيان ما تتعلق به كل صفة، وجهة تعلقها، وما تتعلق به المستحيل والجائز فى حقه تعالى.

أفعال العباد، مذاهب العلماء فيها، ودليل كل مذهب الثواب والعقاب إرادة الخير والشر، القضاء والقدر، رؤية الله تعالى.

٢. النبوات: حاجة البشر إلى الرسالة، الوحي وأنواعه، حكم إرسال الرسل، الفرق بين المعجزة وبين الكرامة والإرهاص والسحر.

٣. السمعيات: إعادة الأجسام ومذاهب العلماء فيها حكم مرتكب الكبيرة مبحث الشفاعة، حكم إنكار ما علم من الدين بالضرورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

إلى الإخوة الطلبة الأعزاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد تم بحمد الله وتوفيقه إعادة طبع كتاب العقيدة: "توضيح التوحيد من تحفة المريد على الجوهرة" المنشورة من المكتبة الأزهرية للمؤلف: "حسين محمد المصري"، والذي تم تحت إشراف جمعية معهد تحفيظ القرآن: "دار القرآن".

فيسسرنا نحن المشاركين القائمين بالتصحيح والتدقيق في مراجعة إعادة طباعة الكتاب وإنجاز هذا العمل، أن نقدم لإخواننا الطلبة والطالبات هذا الكتاب في صورة جديدة أكثر وضوحًا ودقة في الخط، لغرض اليسر والسهولة للجميع، مع الحفاظ على المضمون الأساسي لكتاب العقيدة: "توضيح التوحيد"، مع الإشادة بأنه لم يحدث أي تغيير عما في الكتاب الأصلي من حيث المنهج أو الموضوع، أو المحتوى. إلا أن فيه إضافة جديدة وهو بيان مصدر الآية للأدلة المذكورة في الكتاب من حيث اسم السورة ورقم الآية، وذلك لغرض السهولة للرجوع إلى تفسير معنى الآيات.

ونتمنى أن يكون هذا الإنجاز موفق وناجح بإذن الله، بالرغم من الصعوبات التي قد واجهناها خلال القيام بهذا العمل منذ البداية حتى نهايته من حيث الجهد والوقت، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وأخيرا لا ننسى إن نقدم أسمى آيات الشكر والعرفان لكل من ساهم في إنجاح هذا العمل، وأخلص الأمنيات، لتحقيق الفائدة والسهولة لقاريء هذا الكتاب كمرجع أساسي لدراسة مادة العقيدة الإسلامية. ولا نرجو منه سوى وجه ورضوانه علينا....

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الأعضاء المشاركين بالتصحيح والتدقيق في إعادة طبع كتاب العقيدة:

١. الأستاذ محمد عدلين صالح
٢. الأستاذ عبد الملك بن
٣. الأستاذة آسية عبد الرحمن جافاكيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، بديع السموات والأرض الحكيم الخبير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، بيده الملك والملكوت، منزه عن الشريك، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، منفرد بالخلق والإيجاد، يعز من يشاء ويذل من يشاء لحكم يعلمها ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾سورة الأنبياء: ١٦،١٧.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، البشير النذير المؤيد بالمعجزات.

وبعد: فقد رأيت الاختلاف كثيراً، والتطاحن شديداً بين علماء الكلام في موضوع أفعال العباد وما يتفرع عليه من الثواب والعقاب والقضاء والقدر وغير ذلك، ورأيت الطلاب في حيرة من أمرهم تجاه هذه المواضع، فحفزني ذلك لكتابة هذه الرسالة شاملة لمقرر السنة الثانية الثانوية بالأزهر والمعاهد حسب المنهج المعدل في ٩/١٢/ ١٩٦٨ راجيا الله سبحانه أن يعينني على إتمامها وأن يجعلها خالصة لوجهه، وأن ينفع بها إنه سميع مجيب الدعاء.

وقد كان إقبال الطلاب على الطبعات السابعة حتى نفدت سريعا: دليلا على وصولها إلى قلوب القراء ونفعهم بها، ومشجعاً على بذل أقصى جهد حتى نخرج هذه الطبعة وافية بالغرض، فله الحمد والمنة.

حسين محمد المصرى
المدرس الأول بمعهد الاسكندرية الأزهر

مباحث علم التوحيد

في دراستنا السابقة بالجزء الأول وصلنا إلى النتيجة المطلوبة، وهي الاعتراف بحاجة ذلك العالم إلي محدث وموجد، فيجدر بنا الآن أن نعرف الصفات التي يجب أن يكون عليها ذلك الموجد لهذا الكون، ثم كيف تعبدنا بالشرائع التي بعث إلينا بها الرسل والأنبياء، ثم ماذا يكون شأن من أطاع ومن عصى، وهذا يحدد لنا الأبحاث التي يتناولها هذا العلم وهي ثلاثة:

١. الإلهيات ويبحث فيها عما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من صفات النقص، وما يجوز في حقه سبحانه.
٢. النبوات: ويبحث فيها عن الواجب للأنبياء والرسل الذين يصطفيهم الله لتبليغ دعوته وما يستحيل عليهم وما يجوز.
٣. السمعيات: ويبحث فيها عن الأمور التي أخبر بها الأنبياء ولم تصل العقول إلى معرفتها وحدها. بل تعتمد في إثباتها على السمع من الصادقين، كوجود العرش والكرسي والقلم واللوح، والملائكة والجن، والجنة والنار، والحساب والميزان والصراط والحوض.

الإلهيات

يشمل البحث في هذا الباب كل ما يتعلق بموجد ذلك الكون، من معرفة الواجب له والمستحيل عليه والجائز في حقه. أما معرفة ذاته سبحانه فأمر تقصر عنه العقول ولا تحيط به الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولذلك أمر عليه الصلاة والسلام أن نفكر في صفاته وآثاره سبحانه دون التفكير في ذاته.

والمقصود بالواجب له والمستحيل عليه والجائز في حقه الواجب والمستحيل والجائز العقلي. فيجب له عقلا بطريق الإجمال: كل كمال يليق بذاته العلية، وكمالاته سبحانه لا نهاية لها، وقد أوجب الشارع على المكلفين أن يعرفوا بعض صفاته بطريق التفصيل، وهي ثلاثة عشر إليها يرجع غيرها من الصفات.

صفات الله عزوجل

تقسيمها باعتبار مفعولها

وهذه الصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام لأنها إما أن تكون نفس الذات، أو ليست نفسها. الأولى هى النفسية، والثانية إما أن تسلب عن الله وصفا لا يليق وهى السلبية، وإما أن تثبت معنى واجبا له سبحانه، وهى المعانى.

١ . نفسية: وهى التى يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها، وهى منحصرة فى صفة واحدة هى: الوجود.
٢. سلبية: وهى التى تسلب عن ذاته سبحانه معنى لا يليق به، وهى خمس صفات: القدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس والوحدانية.
٣. معانى: وهى الصفات الوجودية التى تثبت له سبحانه معنى قائما بذاته وهى القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر، وزاد البعض: الإدراك والتكوين.

كما زاد بعض العلماء قسما رابعا وهو المعنوية: وهى لازمة للمعانى فيوصف سبحانه بكونه قادراً، ومريداً، وعالماً، وحياً، ومتكلماً، وسميعاً، وبصيراً، ومدركا، ومكوناً، عند من أثبت الإدراك والتكوين.

طريق إثبات الصفات: والاعتماد فى إثبات أغلب هذه الصفات على الدليل العقلى الذى يقنع الخصم لأنه لا يعترف بالنقل إلا بعد إيمانه.

فالصفات التى يتوقف عليها الخلق والايجاد لابد فى إثباتها من الاعتماد على العقل، ويأتى الدليل النقلى مؤيدا للعقل، وهذه الصفات هى: الوجود، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث، والقيام بالنفس، والحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة.

والصفات التى لا يتوقف عليها الخلق والايجاد نعتمد فى إثباتها على النقل ونستعين بالعقل، وهى السمع والبصر والكلام. أما الوحدانية فقد اختلف فى طريق إثباتها هل الاعتماد فيه على العقل او النقل؟ والصحيح أن الاعتماد فى إثباتها على العقل ونستشهد بالنقل كالنوع الأول.

الوجود صفة يتصف بها الموجود، ومعناه التحقق والثبوت، أو الوجود ما يقابل العدم، والموجود إما أن يكون وجوده لذاته أو لغيره، ومعنى وجوده لذاته أنه لم يكن نتيجة تأثير خارجي نتج عنه الوجود، والموجود لغيره أي أن الغير أثر فيه وأوجده، فالعلم-وهو ما سوى الله-وجوده لغيره، بمعنى أن هناك مؤثراً أخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود، أما الله سبحانه فوجوده لذاته، أي أنه لا يوجد مؤثر يؤثر فيه الوجود، لأن وجوده لم يسبق بعدم حتى يحتاج إلى من يخرجه إلى حيز الوجود.

والوجود صفة واجبة لله سبحانه، وهي ليست زائدة على ذاته كصفات المعاني، وإنما هي نفس الذات، ولذلك سميت صفة نفسية.

فالوجود: صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها، ولما كان الوجود ليس زائداً على الذات «وهو ثابت للذات» فقد يرد هنا سؤال: هل هو عين الذات أو غيرها؟ وبمعنى آخر هل الموجود عين الوجود أو الوجود غير الموجود؟ أي هل صفة الوجود هي عين الموصوف وهو الموجود؟ وقد اختلف العلماء في الاجابة عن هذا السؤال.

رأي الأشعري: أن الوجود عين الموجود، وقد أبقى كثير من العلماء قول الأشعري هذا على ظاهره فيكون عد الوجود من الصفات تجاوزاً أو تسامحاً لأن الشئ لا يوصف بنفسه ولا بد من التغاير بين الموصوف والصفة.

وفريق آخر «كالسعد» وأمثاله قالوا إن الأشعري لم يقصد بقوله هذا أن الوجود عين الذات حقيقة، لأن الوجود له معنى والموجود له معنى آخر، وإنما قصد أنه ليس زائداً على الذات بحيث يمكن عقلا تصور الذات بدونه كصفات المعاني. فيكون على هذا أمرا اعتبارياً وهذا يكفي بين الصفة والموصوف. فلا يكون هناك تسامح، ويشبه هذا اعتبارهم ما يدل على سلب النقص صفات فوصفوا الله بالقدم والبقاء مع أنها سلوب معدومة.

رأي الرازي: أن الوجود غير الموجود. لأن الصفة تغاير الموصوف ضرورة وهي ليست زائدة على الذات، ولذلك اضطر إلى القول بوجود واسطة بين الموجود والمعدوم وسماها حالا، وعرف الوجود بناء على هذا فقال:

الوجود: هو الحال الواجبة للذات ما دامت الذات غير معللة بعلة، أى أن الصفة ليست موجودة ولا معدومة، بل هى حال، فهى واسطة بين الموجود والمعدوم، وهذه الحال واجبة وثابتة للذات العلية مدة دوام الذات ولا يكون ثبوت هذه الحال للذات تنيجة تأثرها بعلة، وإنما هى ثابتة للذات حال كون هذه الحال غير معللة بعلة، أى ليست لازمة لملزوم إذ أن هناك صفات تثبت للذات متأثرة بعلة أخرى. كالصفات المعنوية عند من يقول بها. فكونه قادراً لازم ومعلل لوصفه بالقدرة، فصفة القدرة علة وملزوم للوصف بكونه قادراً فلصفة الوجود إذن تعريفان:

تعريف الأشاعرة: الوجود صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها.

تعريف الرازى: الوجود هو الحال الواجبة للذات ما دامت الذات غير معللة بعلة.

وقد رأى بعض العلماء أن الخلاف بين التعريفين لفظى، فمقصود الأول أنها ليست زائدة على الذات، أى هى أمر اعتباري، ومقصود الثانى أنها حال، وهو نفس الأمر الاعتبارى الذى قصده الأول، والصحيح أن الخلاف حقيقى، لأن الأشاعرة ينكرون الحال التى هى واسطة بين الموجود والمعدوم.

وتحقيق هذا الخلاف ليس من مسائل العقائد فلا يلزم المؤمن أن يعرف أن الوجود عين الموجود أو غيره لأن هذا من غوامض علم الكلام، بل يكفيه أن يعرف أن الله موجود.

دليل ثبوت الوجود لله: إثبات وجود الله سبحانه يعتبر أساس التدين. فعليه ينبنى وصفه بالحياة والعلم والقدرة والإرادة وجميع صفات الكمال، فالحكم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات وجواز الممكنات، كل ذلك فرع إثبات الوجود له سبحانه، فلا يعقل شىء من ذلك لو لم يكن موجوداً واجب الوجود، أى لا يقبل العدم أبداً ولا أزلا، أى لا فى الماضى ولا فى المستقبل، ولإثبات هذه الدعوى نقول: الله يجب افتقار العالم إليه وكل من وجب افتقار العالم إليه فهو واجب الوجود، فالله واجب الوجود، ودليل الصغرى ما ثبت فيما مضى من أن العالم حادث، لا بد له من محدث، ودليل الكبرى أن محدث العالم لو لم يكن واجب الوجود لكان جائزه فيكون حادثا ويحتاج هو الآخر إلى محدث فيلزم على ذلك الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل، فبطل ما أدى إليهما من كونه جائز الوجود، وثبت كونه سبحانه واجب الوجود.

الدور هو: توقف وجود شيء على آخر، وتوقف وجود الأخير على الأول سواء أكان بينهما واسطة أم لا، فإذا كان بينهما واسطة فهو الدور المضمر، كتوقف وجود محمد على أحمد وأحمد على محمود، ويتوقف محمود وهو الأخير على محمد وهو الأول، وإذا لم تكن بينهما واسطة كتوقف محمد على أحمد وأحمد على محمد فهو الدور المصرح، وكلاهما باطل، لأنه يلزم عليه أن يتقدم الشيء على نفسه ويتأخر عنها، لأنه علة فيما بعده فيكون متقدما عليه، وهو معلول لما بعده فيكون متأخراً عنه، وهذا باطل بداهة، وهذان النوعان يسميان الدور السبقي لأن فيهما سبق أحد الأمرين على الآخر وعلى نفسه.

وهناك نوع ثالث من أنواع الدور يسمي: الدور المعي، أي يكون وجود أحد الشيئين مع الآخر مع توقف كل منهما على الآخر كتوقف الأبوة على البنوة والبنوة على الأبوة، وكل منهما يوجد مع الآخر، فعند الولادة توجد الأبوة والنبوة معاً، وهذا ليس باطلا. أما التسلسل: فهو توقف وجود الشيء على آخر والآخر على آخر إلى ما لا نهاية.

والتسلسل: باطل لأدلة كثيرة أقامها العلماء، وسنكتفى هنا بذكر دليلين: الأول برهان العلل والمعلومات: لو فرضنا أن العالم موجود بطريق التسلسل كما يقول الخصم، وليس هناك منشيء له واجب الوجود وإنما هناك علل ومعلولات تؤثر العلة فى المعلول فيوجد، والعلة والمعلول أمران متضايفان فهما متساويان عددا، فلا يمكن أن تزيد العلل على المعلولات ولا المعلولات على العلل لأن كل علة لا بد أن يكون لها معلول، وكل معلول لا بد أن يكون ناشئا عن علة.

وفى فرض التسلسل تزيد المعلولات عن العلل لأن الموجود الأخير معلول فقط، والموجودات المتوسطة كل منها علة ومعول، فلا بد أن يقابل المعلول الأخير علة أولى ليست معلولة حتى يتساوى عدد العلل والمعلولات لأن زيادة المعلولات عن العلل يلزم عنه نقض القاعدة المتفق عليها، وهى تساوى العلل والمعلولات لأنهما متضايفان فعدم التساوى باطل، فبطل ما أدى إليه، وثبت أن فى المبدأ علة ليست معلولة لغيرها.

ومع أن المتدينين لا يقولون بأن العالم نشأ بطريق العلة والمعلول. لأنه يلزم عليه أن يكون العالم قد نشأ عن الله عن غير اختيار ولا إرادة. لأن العلة تؤثر فى المعلول بدون

اختيار. كحرمة الخاتم الموجود فى الأصبع تنشأ عن حركة الإصبع. فكلما وجدت حركة الأصبع وجدت حركة الخاتم. وكلما وجدت حركة الخاتم وجدت حركة الاصبع. وكعربات قطار السكة الحديد المتصلة بعضها ببعض. فإذا تحركت الاولى تحركت الثانية والثالثة وهكذا إلى الاخيرة. فحركة الاولى علة فى حركة الثانية، والثانية ومعلولة لها، وهى فى نفس الوقت علة فى حركة الثالثة وهكذا إلى الاخيرة. فتكون معلولة فحسب. فيتساوى عدد العلل والمعلولات. وهى ناشئة بغير إرادة واختيار ومع أننا لا نقول إن العالم نشأ هكذا إلا أننا نبطل دعواهم بنفس المنطق الذى يقرون به.

الثانى برهان التطبيق: لو فرضنا سلسلتين كل منهما مكونة من حلقات تبدأ إحداهما من الآن وتتجه إلى ما لا نهاية فى الماضى السحيق، ولنسمها «الآنية» نسبة إلى الآن، الثانية تبدأ من حادث حوادث التاريخ المشهورة كالطوفان مثلا وتتجه هى الأخرى إلى ما لا نهاية فى الماضى السحيق ولنسمها «الطوفانية» نسبة إلى الطوفان، ثم طبقنا هاتين السلسلتين، وعدنا إلى الخلف حلقة حلقة وكلما ألقينا من الآنية حلقة ألقينا فى مقابلتها خلقة من الطوفانية فإما أن بينهما معاً، وإما ألا ينتهيا، وإما تنتهى إحداهما ولا تنتهى الاخرى. فهذه هى الفروض العقلية. فرذا انتها معاً أو انتهت إحداهما فلا بد أن تنتهى الأخرى لأنها تزيد عليها بقدر محدود له مبدأ ونهاية. وبذالك يثبت مطلوبنا، وإذا لم تنتهيا. وهو ما فرضه الخصم. يلزم مساواة الناقص للكامل وهو باطل فبطل ما أدى إليه وهو التسلسل. وثبت نقيضه وهو أن هناك مبدأ للعالم فيكون محتاجا إلى من وجده ولا بد أن يكون هذا الموجود واجب الوجود.

والآن وقد ثبت اتصاف الله سبحانه بالوجود الذاتى فليس هناك موجود لذاته غيره سبحانه. أما العالم فوجوده لغيره كما مر.

وقد تغالى بعض الصوفية فى نفى كل وجود غير وجود الله، وعبر بألفاظ توهم الاتحاد والحلول، كقول «الحلاج» أنا الله! وكقول غيره: ما فى الجبة إلا الله! وهذه ألفاظ غير جائزة، لأنها توهم الاتحاد والحلول كما مر، وقد أفتى «الجنيد» بقتل الحلاج لمقالته هذه، وقد شاع على ألسنة العوام مثل ذلك فهم يقولون: الله موجود فى كل الوجود، وهذا تعبير غير جائز شرعا لإيهام الحلول كذلك، ويجب الاكتفاء باعتقاد أن الله موجود.

الصفات السلبية

هى التى تفيد سلب ونفى كل معنى لا يليق بالله سبحانه، أى أنها تنفى عنه صفات النقص، وهى غير منحصرة فى صفات محدودة. وذلك كنفى الولد والزوجة والمعين، وإنما وجب علينا معرفة خمس صفات منها بطريق الخصوص لأنها تعتبر أمهات صفات السلب وما عداها يرجع إليها ولو بطريق الالتزام وهذه الصفات هى: القدم والبقاء والمخالفة للحوادث والقيام بالنفس والوحدانية.

القدم

القدم فى اللغة: التقادم، وعدم الحدوث، والتقادم زمنى ونسبى. فالقدم يطلق لغة معان ثلاثة لأنه إما أن يكون ذاتياً لم يسبق بعدم، وهو الذى يوصف به الله، وإما أن يكون زمانيا، وهو الذى يدل على التقادم ومرور الزمن ومنه قوله سبحانه ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُوْنِ الْقَدِيْمِ﴾سورة اليس : ٣٩ وهو من صفات الحوادث، وإما أن يكون إضافا كقدم الأب بالنسبة للابن، وهو من صفات الحوادث ذلك.

وفى الاصطلاح: عدم أولية الوجود، أو عدم افتتاح الوجود وهذا هو معنى عدم الحدوث، وهو أحد المعانى اللغوية.

والقدم: الذى يوصف به الله سبحانه: صفة سلبيه تدل على عدم أولية الوجود أو على أنه لم يسبق بعدم، وهذا الوصف من لوازم الوصف بالوجود الذاتى. فمعنى الوجود الذاتى أن غيره لم يؤثر فيه فلم يسبق بعدم، ومع ذلك يصرح العلماء بوصف الله بالقدم لأنهم لا يكتفون بالمزلوم عن اللازم فى العقائد.

والقدم واجب لله تعالى. ودليل وجوبه أنه لو يكن قديما لكان حادثاً، ولو كان حادثا لكان جائز الوجود مع أنه قد ثبت أنه واجب الوجود فبطل ما يخالف وجوب الوجود، وثبت أنه قديم.

أو نقول: لو لم يكن قديماً لكان حادثاً ولو كان حادثا لا يحتاج محدث ومحدثة إلى محدث فيلزم على ذلك الدور أو التسلسل، وقد بطل كل منهما. فبطل ما أدى إليه من

كونه حادثا وثبت أنه قديم.

ولفظ قديم لم يرد فى القرآن أو السنة وصفا لله تعالى، وإنما ورد ما يدل عليه كقوله سبحانه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوْقِيْنَ﴾سورة الواقعة : ٦٠ وكقوله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾سورة الحديد : ٣ والمقصود بالأول الذى لم يسبق بعدم. الفرق بين القديم والأزلى: يطلق لفظ أزلى على ما لا أول له، وهو منسوب إلى الأزل أى القدم.

وفى الاصطلاح يطلق الأزلى على ما لا أول له، سواء أكان وجودياً أم عدمياً، والقديم له إطلاقات ثلاثة:

١. القديم هو ما لا أول له. فيكون مرادفاً للأزلى فكل قديم أزلى وكل أزلى قديم، فيطلق كل من اللفظين على الله سبحانه وعلى صفاته، ويطلق على المعدوم الذى لا أول لعدمه كعدم الشريك وعدم الولد والزوجة فكل من هذه قديم وأزلى.

٢. القديم هو الموجود الذى لا أول لوجوده فيخرج بذلك المعدوم فلا يسمى قديما، وإنما يسمى أزليا، ويطلق القديم على الله وصفاته، فيكون بين القديم والأزلى عموم وخصوص مطلق، يجتمعان فى الموجود الذى لا أول له وينفرد الأعم وهو الأزلى فى المعدوم الذى لا أول له.

٣. القديم هو القائم بنفسه الذى لا أول له، فيكون اطلاقه قاصرا على الذات العلية، أما الصفات-على هذا-فلا توصف بالقدم، وإنما توصف بالأزلية، ويكون بينهما العموم والخصوص المطلق أيضا.

البقاء

«علمى وأدبى»

البقاء لغة ضد الفناء، أو هو استمرار الوجود، أو سلب لحوق العدم. واصطلاحا هو: صفة سلبية يدل الوصف بها على نفى الفناء، أو فى لحوق العدم، وهى صفة ثابتة له سبحانه، وهى من لوازم وجوب الوجود. أى كون الوجود ذاتيا يلزم منه أن لا يلحقه عدم.

ودليل ثبوتها: أنه لو لم يكن باقيا لكان فانيا، ولو كان فانيا لما كان واجب الوجود، وقد ثبت أنه واجب الوجود فبطلَ ما أدى إليه من كونه يفنى، وثبت أنه لا يفنى ولا يلحقه عدم.

أو نقول إنه: لو لم يكن باقيا لكان فانيا، ولو كان فنيا لكان حادثا ولو كان حادثا لاحتاج إلى محدث ومحدثه إلى محدث، فيلزم الدور أو التسلسل وكل منها باطل. فبطل ما أدى إليه من كونه يفنى وثبت له البقاء.

أو نقول: قد ثبت وصف الله بالقدم، وقد اتفق جميع العقلاء على أن ما ثبت قدمه استحال عدمه، وإذا استحال العدم ثبت البقاء، وإلى ذلك، يشير صاحب الجوهرة بقوله:

وكل ما جاز عليه العدم   عليه قطعاً يستحيل القدم

والمقصود باستحالة عدم القديم هو القديم الوجودى. فلا يرد أن عدم الحوادث قديم، على القول بترادف القديم والأزلى، وقد انقطع هذا العدم بوجودنا. فالقاعدة المجمع عليها: ما ثبت قدمه استحال عدمه فى الوجودى دون العدمي .. أو نقول: إن عدمنا الأزلي كان جائزا فانقطع بوجودنا. أما العدم الواجب كعدم الشريك فلا نهاية له كذلك.

وقد ورد وصف الله تعالى بالبقاء في القرءان الكريم، وذلك قوله سبحانه ﴿كُلُّ مَن عَلَيهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾سورة الرحمن : ٢٦-٢٧.

ويطلق على الله سبحانه لفظ أبدى أى دائم، وذلك فى مقابل أزلى، وهو نسبة إلى الأبد، وهو استمرار الوجود فهو مرادف للبقاء، ومن ذلك يتبين أن الأقسام من حيث الأولية والآخرية خمسة، أثنان للواجب والمستحيل وثلاثة للجائز.

١. فالله سبحانه لا أول له ولا آخر، ولا يوجد غيره بذلك الوصف، فهو قاصر عليه.
٢. والعالم له أول وآخر.
٣. وعدم المستحيل كالشريك لا أول له ولا آخر.
٤. وعدم العالم فى الأزل لا أول له وله آخر.
٥. والجنة والنار لهما أول وليس لهما آخر. لثبوت ذلك شرعاً وإن كان العقل يجيز عدمها لأن وجودهما لتعلق إدارة الله لا لذاتهما فالجائز، وهو العالم، يمر بثلاث مراحل: ١- عدم أزلى ينقطع بالوجود. ٢- وجود ينقطع لعدم عند نهاية العالم. ٣- وجود بعد العدم للجنة والنار يستمر إلى ما لا نهاية او كل ذلك جائز

لتوارد العدم والوجود عليه فيكون بذلك مخالفا للوجود الذاتي المستلزم للقدم والبقاء معاً.

وقد جمع صاحب الجوهرة الصفات الثلاث الماضية في قوله:

فواجب الوجود والقدم كذا بقاء لا يشاب بالعدم

المخالفة للحوادث

«علمي وأدبي»

والمقصود بالمخالفة عدم المماثلة والمشابهة، فالله سبحانه مخالف للحوادث لا يشبهها ولا تشبهه في شيء، لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال. فإذا كانت الحوادث توصف بأنها أعراض أو جواهر، ولها طول وعرض تحل كما في مكان، وتوصف بالحركة أو السكون والكل أو الجزء فتكون كبيرة أو صغيرة إلى غير ذلك من الأوصاف الحادثة-فإن الله منزه عن مشابهتها في شيء من ذلك، فليس عرضاً ولا جوهراً، ولا كلا ولا جزءاً وليس موصوفا بشيء من لوازم هذه الأوصاف.

فلا يوصف بأنه طويل أو قصير، أو كبير أو صغير، أو متحرك أو ساكن، أو يشغل حيزاً من الفراغ إلى غير ذلك من أوصاف الحوادث، وليس في متناول العقل تصور الذات العلية: فإذا ألقى الشيطان شبهه في النفس فقال إذا لم يكن الله كلا أو جزءاً ولا جوهراً فماذا يكون؟ فليكن الرد عليه: لا يعلم الله إلا الله، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فالمخالفة الحوادث صفة سلبية تنفي عن الله مشابهة الحوادث في الذات أو الصفات أو الأفعال. وقد ثبتت مخالفة الله سبحانه للحوادث بالدليل العقلي والنقلي.

الدليل العقلي: لو كان مشابهاً للحوادث لكان حادثاً مثلها، ولو كان حادثاً لما كان واجب الوجود، وقد ثبت أنه واجب الوجود فبطل ما أدى إليه وهو مشابهته للحوادث، وثبت أنه مخالف لها.

أو نقول: لو لم يكن مخالفا للحوادث لكان مشابها لها، ولو كان مشابها لها لكان حادثاً مثلها، ولو كان حادثا لاحتياج إلى محدث ومحدثه إلى محدث فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل فبطل ما أدى إليه وهو المشابهة وثبتت المخالفة.

الدليل النقلى: يقول الله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾سورة الشورى : ١١ فنفى المثيل والشبيه عنه سبحانه، وفى الآية أداتا تشبيه هما الكاف ومثل. ولذلك ورد هنا اعتراض، وهو أن نفى مثل المثل لا يؤدى إلى نفى المثل، والجواب على ذلك: أن إحدى الأداتين زائدة للتوكيد، فيكون النفى منصبا على المثل مباشرة والتقدير ليس مثله شيء، أو ليس كهو شيء، أو يجاب بأن مثل يقصد به الذات كقولك مثلك لا يبخل، أى أنت لا تبخل، فكنى عن الذات بالمثل للمبالغة فالمعنى ليس كذاته شيء، وبذلك يندفع الاعتراض.

يقول صاحب الجوهرة:

وأنه لما ينال العدم مخالف، برهان هذا القدم

النصوص الموهمة للتشبيه

ثبت أن الله سبحانه مخالف للحوادث، ليس كمثله شيء لا فى ذاته، ولا في صفاته، ولا فى أفعاله، وقد وردت بعض النصوص فى الكتاب والسنة يوهم ظاهرها وقوع الشبه بين الله والحوادث، كنسبة الوجه أو اليد إليه، وكنسبة المكان أو النزول بما ثبت تنزهه سبحانه عنه.

ولما كان ذلك الظاهر مخالفا للعقل والنقل فقد اتفق جميع المتدينين ما عدا المجسمة والمشبهة على وجوب تأويل هذه النصوص وصرفها عن الظاهر الذى تدل عليه، واعتقاد أن الظاهر ليس مقصودا، وإنما المقصود شيء آخر، فهل نستطيع بعقولنا تعيين المقصود؟

يرى السلف أننا لا نستطيع التعيين، ويقول الخلف إننا نستطيع تعيين المراد. والمقصود بالسلف هم الأجيال الثلاثة الأولى من المسلمين، وهم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين. أما من بعدهم فهم الخلف، وقيل إن السلف هم الذين عاشوا فى الخمسمائة سنة

الأولى من عصر النبوة الزاهر، والخلف من جاء بعد هذه القرون الخمسة.

ومنشأ الخلاف: قوله سبحانه في شأن المتشابه ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا اللَّه وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾سورة آل عمران : ٧ فالسلف يجعلون الحصر بما وإلا خاصا بالله سبحانه، ويقفون على قوله: إلا الله، ويجعلون ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾سورة آل عمران : ٧ جملة مستأنفة في مقابلة قوله ﴿فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهِ﴾سورة آل عمران : ٧.

أما الخلف فإنهم يعطفون ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ على لفظ الجلالة، ويجعلون جملة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾سورة آل عمران : ٧ هي المستأنفة لبيان سبب التماس التأويل، وهو إيمانهم الذي يدفعهم إلى التنزيه.

بعض النصوص: التي يوم ظاهرها التشبيه بإثبات الجهة أو الجسمية أو الصورة أو الجوارح، وبيان تأويلها عند الخلف.

١. ما يوهم الجهة: قوله سبحانه ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوقِهِمْ﴾سورة النحل : ٥ فالمراد بالفوقية التعالي في العظمة ويكون معنى الآية: يخاف الملائكة ربهم بسبب تعاليه وعظمته، وقوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾سورة طه : ٥ فمعنى الاستواء: الاستيلاء والملك على حد قول الشاعر:

استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾سورة الملك : ١٦ أي من في السماء سلطانه وأمره. أو هو الملك الموكل بتعذيب العصاة، وقوله ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوْحُ إِلَيْهِ﴾سورة المعارج : ٤ أي إلى مكان يتقرب إليه بالطاعة فيه.

أما السلف فيقولون ليس المقصود الفوقية والاستواء المعهود، وإنما هناك هناك فوقية واستواء يعلمهما الله سبحانه، والعروج إليه غير العروج إلى غيره وهو في السماء لا في مكان، ولا نستطيع تحديد المراد، وقد سئل الإمام مالك عن معنى الاستواء في الآية فقال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

٢. ما يوهم الجسمية: قوله سبحانه ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾سورة الفجر : ٢٢ وحديث الصحيحين «ينزل ربنا كل ليلة سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ويقول من يدعونى فاستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟» فلا يمكن أن يكون المجىء، والنزول هذا الذى نعرفه، بل الكلام فيه حذف والأصل: وجاء عذاب ربك أو أمر ربك الشامل للعذاب، وفى النزول: المراد ينزل ملك ربنا فيقول عن الله كذا وكذا.

أما السلف فيقولون مجىء ونزول لا يشبه مجيئنا ولا نزولنا.

٣. ما يوهم الصورة: ما رواه الصحيحان [أن رجلا ضرب عبده فنهاه عليه السلام وقال. إن الله خلق آدم على صورته]، فإذا كان الضمير راجعا على المضروب أى خلق آدم على صورة المضروب، كما يؤيد هذا المعنى الحديث الذى رواه مسلم.

فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته. أى صورة الأخ، إذا كان المعنى كذلك فلا إيهام للتشبيه، أما إذا كان الضمير راجعاً على الله سبحانه كما يدل على ذلك ما ورد فى بعض طرق الحديث: فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن، فإنه يوهم التشبيه، فيصرفه الخلف ويقولون: المقصود بالصورة الصفة فى الجملة، إذ أن فيه السمع والبصر والعلم والحياة، فهو على صورته أى على صفته فى الجملة.

أما السلف فيقولون له صورة لا نعلمها.

٤. ما يوهم الجوارح: قوله تعالى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾سورة الرحمن : ٢٧ وقوله ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾سورة الفتح : ١٠ وما ورد في الحديث: [قلوب بنى آدم كلها كقلب واحد بين أصبعين من أصابع الرحمن]. فليست هذه الجوارح مقصودة، وإنما المقصود من الوجه الذات، ومن اليد القدرة، ومن الإصبعين صفتان هما القدرة والإرادة. أما السلف فيقولون له وجه ويد وأصابع لا نعلمها.

ومقصود السلف والخلف تنزيه الله سبحانه عن مشابهة الحوادث، والارتفاع بذاته العلية عن مستوى العقول، والسلف يخشعون أن يحددوا معنى قد لا يكون مقصوداً لله ولذلك فطريقتهم أسلم، لما فيها من تفويض العلم لله، أما الخلف فيحاولون تقريب المعنى إلى الأذهان بما يتفق مع الواجب له سبحانه من التنزيه عن التشبيه، فطريقتهم أعلم، وقد أشار صاحب الجوهرة إلى الرأيين فى قوله:

وكل نص أوهم التشبيها　　　أوّله أو فوض ورم تنزيها

القيام بالنفس

«علمى وأدبى»

تطلق النفس لغة على الذات، وعلى الدم، وعلى الأنفة والعزة، والمقصود هنا هو الإطلاق الأول بمعنى الذات، فإنها تطلق عليه سبحانه مشاكلة كقوله ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾سورة الأنعام : ٥٤ فقائم بنفسه أى بذاته، فالباء سببية أى بسبب ذاته لا بسبب شىء آخر.

فمعنى القيام بالنفس أن ذاته سبحانه ليست محتاجة إلى ذات تقوم بها كما تحتاج الأعراض، وليست محتاجة إلى مخصص وموجد كالحوادث. فالحوادث الموجودة، منها ذوات لا تحتاج إلى محل تقوم به ولكنها تحتاج إلى مخصص يوجدها، ومنها أعراض تحتاج إلى النوعين معا فهى محتاجة إلى الذوات تقوم بها لأنه لا يعقل وجود صفة من غير موصوف. ومحتاجة إلى مخصص يخصها أى موجد يوجدها، والله سبحانه مستغن عن الأمرين لأن وجوده لذاته، فذاته سبحانه مستغنية عن الأمرين معاً، أما صفاته فهى قائمة بذاته ومستغنيه عن الموجد، فالأقسام أربعة:

١. محتاج إلى الموجد فقط، وهى ذوات الحوادث.
٢. محتاج إلى الأمرين: وهى صفات الحوادث.
٣. مستغن عن الأمرين معاً، وهو ذات الله سبحانه.
٤. مستغن عن المخصص وقائم بالذات وهو صفاته سبحانه.

ودليل قيامه بنفسه بمعنى عدم الاحتياج إلى محل يقوم به:

أنه لو لم يكن قائماً بنفسه لكان قائما بغيره، ولو كان قائماً بغيره لكان صفة، لأنها هى التى تقوم بغيرها، ولو كان صفة لما صح اتصافه بصفات المعانى الثابتة بالأدلة اليقينية، لأن الصفة لا تقوم بالصفة، فبطل ما أدى إليه من احتياجه إلى المكان الذى يقوم به، وثبت قيامه بنفسه.

أما أن الصفة لا تقوم بالصفة. فالمقصود: لا تتصف بصفة ثبوتية غير نفسية ولا سببية لأنه لو اتصفت الصفة بصفة ثبوتية فلا يخلو أن تكون ضدها أو مثلها أو خلافها، وكل ذلك باطل. إذ لا يجوز الاتصاف بالضدين كالعلم والجهل والقدرة والعجز، ولا الاتصاف بالمثل وإلا كان العلم عالما ويحتاج الوصف الثانى إلى وصف وهكذا وهو باطل،

ولا يجوز أن يوصف بمخالف بأن يوصف العلم بالبياض أو السواد، فثبت أن الوصف الثبوتي لا يوصف، فلا تقوم الصفة بالصفة.

ودليل قيامه بنفسه: بمعنى عدم الاحتياج إلى موجد: أنه لو احتاج إلى موجد لكان وجوده جائزاً، وقد ثبت أن وجوده واجب، أو نقول: لو احتاج إلى موجد لكان حادثاً، ولو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث، فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل، فبطل ما أدى إليهما، وثبت قيامه سبحانه بنفسه.

الوحدانية

«علمي وأدبي»

هذا المبحث أشرف مباحث هذا العلم، لأنه يتعلق بإثبات تفرد المعبود سبحانه بالوجود الذاتي، وباستحقاق العبادة، وهو دعوة كل نبي، وأساس كل رسالة، ولذلك كثر التنبية عليه في آيات القرآن الكريم، فقال سبحانه ﴿وَإِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِد لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيْم﴾سورة البقرة : ١٦٣ وقال ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّوْم﴾سورة البقرة : ٢٥٥ وقال ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾سورة الإخلاص : ١ وتنبيها على ذلك الشرف اشتق اسم العلم من هذه الصفة فقيل علم التوحيد.

والوحدانية نسبة إلى الوحدة فياؤها للنسبة، والألف والنون للبالغة وجاز أن ينسب الشيء إلى نفسه مبالغة، فيكون المراد ثبوت الوحدة نفسها ويجوز أن تكون الوحدانية مصدراً، والياء للمصدر كما في الضاربية من ضرب، وأثبات الوحدانية لواجب الوجود ينفي عنه التعدد والتعدد يدل على المقدار الذي يسأل عنه بكم، كأن تقول: كم جزءاً يتكون منه الجسم، أو كم فرداً في الحجرة فالمقادير المسئول عنها بكم قد تكون أجزاء لكل، فيقال عنها كم متصل، لإنها جزاء متصلة بعضها ببعض كالمثال الأول، وقد تكون أفرادا ليس بينها اتصال، فيقال عنها كم منفصل كالمثال الثاني، فالتعدد يمكن فرضه في ثلاثة أنواع:

١. تعدد في الذات.
٢. تعدد في الصفات.
٣. تعدد في الأفعال.

وكل قسم من هذه الأقسام يحتمل وجهين: كم متصل، وكم منفصل، فالأقسام ستة:

١. فتعدد الذات يحتمل. (أ) أن تكون مركبة من أجزاء وهو الكم المتصل. (ب) أن تكون هناك ذات أخرى تشبه ذاته، وهو الكم المنفصل.
٢. وتعدد الصفات يحتمل (أ) أن يكون له صفتان من جنس واحد وهو الكم المتصل. (ب) أن تكون في الخارج صفة تشبه صفته، وهو الكم المنفصل.
٣. وتعدد الأفعال يحتمل (أ) أن تكون له أفعال مختلفة: وهو الكم المتصل. (ب) أن يكون لغيره فعل يشبه فعله، وهو الكم المنفصل.

ولذلك اصطلح المتكلمون على أن ثبوت الوحدانية ينفي كموما خمسة، أي ينفي خمسة أنواع من المقادير التي يسأل عنها بكم، أما النوع السادس، وهو الكم المتصل في الأفعال. بمعنى أن تكون له سبحانه أفعال مختلفة مثل الخلق والرزق والإحياء والإماتة، فهو ثابت له. أما إذا صورنا الكم المتصل في الأفعال بمشاركة غيره سبحانه له في فعل من الأفعال فهو منفي كذلك.

دليل ثبوت الوحدانية :

١. (أ) دليل عدم تركيب الذات: الله واحد في ذاته فليست ذاته مركبة من أجزاء، لأنها لو كانت مركبة من أجزاء لكان الله محتاجا إلى أجزائه لتتكون منها ذاته، والاحتياج نقص والنقص عليه محال.

ولو كان مركبا من أجزاء لكان مشابها للحوادث، وقد ثبت أنه مخالف للحوادث فانتفى أنه مركب، وثبتت وحدانيته في الذات من هذه الناحية.

(ب) دليل عدم تعدد الذات: الله واحد في ذاته فليست هناك ذات تشبه ذاته: فلو تعدد الإله بأن كان هناك إلهان أو أكثر لما وجد شيء من العالم، لكن عدم وجود شيء من العالم باطل، لأن العالم موجود بالمشاهدة. فبطل ما أدى إليه وهو التعدد، وثبتت الوحدانية.

وإنما يلزم من التعدد عدم وجود العالم: لأن الإلهين إما أن يتفقا أو يختلفا، فإذا اتفقا فإما أن يوجداه معا: وهذا باطل لأنه يلزم عليه اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وإذا

أوجداه على التعاقب كان إيجاد الثانى تحصيل حاصل، لأن الأول أوجده بالفعل، وإذا أوجد أحدهما البعض وأوجد الثانى البعض الآخر كان كل منهما عاجزاً لأن قدرته لا تستطيع التصرف فى قسم الآخر، وهذا الدليل يسمى برهان التوارد لأن الفرض فيه أنهما اتفقا وتواردا على شيء واحد.

أما إذ اختلفا فأراد أحدهما إيجاد العالم والآخر أراد إعدامه، فلا يمكن أن ينفذ مرادهما، لأنه يلزم عليه اجتماع الضدين، الوجود والعدم، وإذا نفذ مراد أحدهما دون الآخر كان الثانى عاجز فلا يصلح إلها، وصاحبه مثله لأن الفرض أنهما متساويان، أو نقول إن الذى ينفذ مراده دائما يكون هو الإله ويتفرد بالإيجاد لأن غيره عاجز فلا يصلح إلها، وتتحقق الوحدانية فى الذات وينتفى التعدد.

وهذا الدليل يسمى برهان التمانع لأن كلا منهما يمانع صاحبه ويخالفه، وقد أشار الله سبحانه إلى دليل وحدة الذات بقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾سورة الأنبياء : ٢٢ أى لو كان فى السموات والأرض جنس الآلهة غير الله لما وجدت السموات والأرض، لكنهما موجودتان بالمشاهدة فليس هناك جنس الآلهة غير الله، فانتفى التعدد وثبتت الوحدانية، فالمقصود بالآلهة الجنس لا الجمع، و «إلا » اسم بمعنى غير ليصلح المعنى لأنها لو كانت أداة استثناء فسد المعنى، لأنه يكون المعنى حينئذ: لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا. فيلزم أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا، وهذا المعنى باطل.

فالآية دليل عقلى قطعى، ولا داعى لتفسير الفساد بالخروج على النظام فيكون أمراً جائزاً محتمل الوقوع وعدمه، حتى لا يقال إن الآية دليل إقناعى فقط أى يقنع بها الخصوم مع أنها لا تفيد لزوم الفساد عقلا كما قال السعد.

وترديد الدليل بين الاتفاق والاختلاف تقسيم عقلى فقط، والواقع أن الاتفاق مستبعد، لأن مرتبة الألوهية تقتضى التسلط والغلبة المطلقة دون أن تحدها حدود وإلى ذلك يشير قوله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾سورة المؤمنون : ٩١. أى لو كان هناك آلهة لتقوى كل إله بما خلق، ولحاول كل منهم أن يعلو على غيره ويتسلط عليه.

٢. (أ) دليل عدم تعدد الصفات: لو كان له صفتان من جنس واحد فإما أن تكون

إحداهما كافية فتكون الثانية عبثا، وإما أن تكون كل منهما غير كافية فتكون نقصا، والعبث والنقص في حقه محال، وهذا في صفات الفعل الذي يتوقف عليها الخلق والإيجاد كالقدرة والإرادة والعلم، أما صفات الكمال كالسمع والبصر، فإن كان الكمال الحاصل بالثانية عين الكمال الحاصل بالأولى فتكون الثانية عبثا وهو محال، وإذا كان الحاصل بالثانية غير الحاصل بالأولى فلا تعدد وثبتت وحدانية الصفات.

(ب) دليل عدم وجود صفة تشبه صفته: أنه لو كان لغيره صفة تشبه صفته بأن يكون لهذا الغير قدرة قديمة كقدرة الله، أو علم قديم شامل كعلمه لكان إلها مثله، وقد انتفى وجود إله آخر فانتفى وجود صفة كصفته وثبتت وحدانية الصفات له سبحانه.

٣. دليل وحدانية في الأفعال: لو كان لأحد فعل كفعله لكان شريكا له، ولو كان شريك لما وجد هذا العالم، لكن العالم موجود بالمشاهدة فانتفى الشريك، وانتفى بالتالي أن يكون لأحد فعل كفعله. أما أفعال العباد فليست كفعله سبحانه، لأن أفعالهم حركات وسكنات، وجمع وتفريق، أما فعل الله فخلق وإيجاد وإنشاء وإبداع، فلا تطعن أفعال العباد في وحدانيته سبحانه في الأفعال. يقول سبحانه متحديا المشركين ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُم شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هَذَا أَو أَثَارَةٍ مِن عِلْمٍ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾سورة الأحقاف : ٤ ويقول ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُم يُخْلَقُونَ﴾سورة الأعراف : ١٩١.

إفراد الله بالعبادة: إذاً ثبت أن واجب الوجود واحد لا شريك له، وأنه متفرد بالخلق والإيجاد، فتكون العبادة والتقديس، والخضوع والذلة له وحده وهذا أساس التكليف الذى جاءت به الشرائع، ودعا إليه الأنبياء والمرسلون، فلا نجاة يوم القيامة إلا لمن عبد الله وحده، واستجاب لقوله سبحانه ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾سورة النساء : ٣٦ وتوعد من دعا غيره أن يحبط عمله وأن يخلده في العذاب فقال سبحانه ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾سورة المؤمنون : ١١٧.

تنزيه الله

عن الضد والشبيه والشريك والصاحبة والولد والأصدقاء

ثبت أن الله تعالى واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله، وأنه مخالف للحوادث فهو واجب الوجود، لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه فهو الأول والآخر المنزه عن شوائب النقص، المتصف بكل كمال لائق بذاته العلية فهو سبحانه منزه عن الضد، والشريك والصاحبة، والولد، والأصدقاء وما يشبه ذلك.

والضد، واحد الضدين، وهما الأمران الوجوديان اللذان بينهما غاية الاختلاف لا يجتمعان، فإذا وجد أحدهما لا بد أن يرتفع الآخر كالبياض والسواد، والحلاوة والمرارة والجمال والقبح ولو كان لله ضد موجود للزم ارتفاع الذات العلية دائما إن كان وجود الضد دائما، ومدة وجود الضد إن لم يكن وجوده مستمرا، وإذا جاز ارتفاع ذات الله لم يكن واجب الوجود وقد ثبت فيما مضى أنه واجب الوجود فانتفى الضد لأن الضدين لا يجتمعان.

والشبيه: المساوى فى أغلب الوجوه، والنظير المساوى فى بعضها، والمثيل المساوى فى جميعها، وكل ذلك منفى، فليس هناك شبيه ولا نظير ولا مثيل له سبحانه وتعالى، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، فقد ثبت أنه واجب الوجود وحده، وأنه مخالف للحوادث، فلا يشبهه شىء من خلقه.

والشريك: المشارك فى القدم والخلق والإيجاد، وهو مستحيل الوجود عقلا لثبوت الوحدانية له سبحانه.

والوالد والولد: هما الأصل والفرع، فليس سبحانه منفصلا عن غيره سواء أكان أباً أم أماً، ولا يفصل عنه غيره فليس له ابن ولا بنت أى أنه سبحانه ليس معلولا لغيره، ولا علة فى غيره. كما يقول الفلاسفة فقد ثبت أن وجوده ذاتى لم يسبق بعدم حتى لا يكون معلولا ناشئا عن علة سابقة، وثبت أنه مريد مختار فليس علة نشأ عنها العالم بدون اختياره وإنما هو سبحانه الخالق المبدع ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار﴾سورة القصص : ٦٨ وقد نفى سبحانه شبهة الوالد والولد بقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾سورة الإخلاص : ٣ وهذه الآية الكريمة إحدى آيات أربع تكون سورة الإخلاص التى نفت أنواع الكفر الثمانية.

فقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾سورة الإخلاص : ١ نفى الكثرة والتركيب من أجزاء كما نفى تعدد الآلهة، وقوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدْ﴾سورة الإخلاص : ٢ أى الذى يقصد فى الحوائج نفى القلة والنقص وقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾سورة الإخلاص : ٣ نفى العلة والمعلولية فليس علة ولا معلولا وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد﴾سورة الإخلاص : ٤ نفى الشبيه والنظير.

فدعوى النصارى أن المسيح ابن الله، ودعوى اليهود أن العزيز ابن الله دعوى باطلة من أساسها. بل إن فيها افتراء واجتراء على الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا. وولادة عيس من غير أب بخلق الله له فى بطن أمه من غير الطريق الطبيعى ليكون معجزة له ككلامه في المهد وأغرب من أمر عيسى خلق آدم من غير أب أو أم وخلق حواء من غير أم، وكلها أمور خارقة للعادة لا يقدر عليها إلا القوى القاهر.

والصاحبة: الزوجة، والاحتياج عليها نقص، وهو عليه محال، ولذلك يقول ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾سورة الأنعام : ١٠١.

والأصدقاء: جمع صديق وهو الصادق فى وده، والمعين على مشقات الحياة واتخاذ الصديق بهذا المعنى محال لأنه يدل على الحاجة وهى نقص أما الصديق بمعنى المخلص فى الحب والعبادة فليس محالا، وإن كان لا يجوز شرعا أن يطلق عليه لفظ صديق لأنه يوهم المعنى الأول.

والعدو: الكاره الذى يلحق الأذى بعدوه، ووجود العدو لله بهذا المعنى محال. فليس هناك من يستطيع الحاق الضرر والأذى بالله سبحانه. أما العدو بمعنى المخالف للأمر فهو موجود، ويطلق على الكفار أعداء الله لمخالفتهم أمره ومنه قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾سورة فصلت : ١٩.

وقد جمع صاحب الجوهرة كل ذلك فى قوله:

قيامه بالنفس وحدانية منزها أوصافه سنية
عن ضد أو شبه، شريك مطلقا ووالد، كذا الولد. والأصدقا

صفات المعانى

المعانى جمع معنى، وهو لغة: الصفة التى تقابل الذات فيشمل الصفة سواء أكانت نفسية أم سلبية أم غير ذلك، وفى اصطلاح المتكلمين: صفات المعانى: كل صفة قائمة بالموصوف توجب له حكما، فالوصف بالقدرة يوجب له أن يكون قادرا، وقولنا قائمة بالموصوف أخرج النفسية، لأنها نفس الذات وليست قائمة بها، وأخرج الصفات السلبية لأنها ليست موجودة حتى تقوم بالذات.

وصفات المعانى الواجبة لله سبحانه ليست منحصرة، فهو القادر الخالق الرازق المحيى

المميت .... إلخ، وقد وجب على المكلف أن يعرف سبعا منها على وجه الخصوص، لأنها أمهات الصفات وغيرها يرجع إليها، وهذه السبع هى القدرة والإرادة، والعلم، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر، والقدرة.

القدرة

«علمى وأدبى»

القدرة لغة: القوة والاستطاعة، واصطلاحا: صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه يتاتى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق الإرادة، فقولنا صفة، جنس فى التعريف يشمل كل صفة، نفسية أو سلبية أو من المعانى، قديمة أو حادثة، وقولنا أزلية، أى لا أول لها لإخراج الحادثة، وقولنا قائمة بذاته، لإخراج النفسية والسلبية، وقولنا يتأتى بها ألخ لإخراج بقية صفات المعانى، والقدرة صفة تأثير، وآثارها ظاهرة جلية فالعالم كله أثر من آثار القدرة، فيتوارد على العالم الوجود والعدم نتيجة تأثره بها.

فالقدرة تتعلق بالممكن، وهو جائز الوجود، فتنفذ ما رجحته الإرادة، والموجود الممكن يمر بمراحل مختلفة، فقد كان معدوما ثم وجد واستمر وجوده، ثم يعدم ويستمر عدمه، ثم يوجد للبعث والحساب ويستمر وجوده، والقدرة تتعلق بالممكن فى هذه المراحل السبعة. فتتعلق به أثناء عدمه السابق، وأثناء وجوده، وأثناء عدمه بعد الوجود وأثناء وجوده فى الآخرة بعد العدم، تعلق قبضة، أى أنه فى هذه المراحل الأربعة فى قبضة الله ومشيئته إن شاء أبقاه على عدمه أو على وجوده أو غيرهما. فتعلقات القبضة أربعة لا ثلاثة كما رأى الشيخ الباجورى رحمه الله، فقد أغفل الوجود الأخروى، ولعله اقتصر على أحكام الدنيا.

والإيجاد بعد العدم الأول، والإعدام بعد هذا الوجود، ثم الإعادة: تعلقات تنجيزية ظاهرة الأثر. وقد قسم الشيخ الباجورى عدمنا السابق إلى قسمين: عدم أزلى وعدم فيم لا يزال، وجعل الأول واجبا فلا تتعلق به القدرة، والظاهر أن هذا سهو منه، فقد انقطع العدم بالوجود، ولو كان واجبا لذاته لاستمر العدم، كعدم الشريك والصاحبة والولد. فتعلقات القدرة على هذا قسمان:

١. صلوحى قديم، وهو صلاحيتها فى الأزل للإيجاد والإعدام.
٢. تنجيزى حادث وهو تعلقها فيما لا يزال بالممكنات إيجادا وإعداما.

وتعلقها بالايجاد أمر متفق عليه، أما تعلقها بالإعدام فقد خالف فيه الأشعرى وقال لا تتعلق بالاعدام بعد الوجود، وإنما إذا أراد الله عدم شىء قطع عنه إمدادات الوجود فينعدم بنفسه، كالفتيلة إذا انقطع عنها الزيت انطفأت بنفسها والصحيح أن القدرة تتعلق بالاعدام كما تتعلق بالايجاد ويشير إلى ذلك قوله سبحانه ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ سورة الملك : ٢ والموت إعدام وقع عليه الخلق وهو فعل القدرة.

ولا تتعلق بالواجب ولا المستحيل، لأنها إذا تعلقت بالواجب لإيجاده كان تحصيل حاصل، لأنه موجود بالفعل، وإذا تعلقت به لإعدامه كان قلبا للحقائق، لأن الواجب لا يقبل العدم لذاته، وإذا تعلقت بالمستحيل لإيجاده كان قلبا للحقائق لأن المستحيل لا يقبل الوجود لذاته، وإذا تعلقت به لإعدامه كان تحصيل حاصل لأنه معدوم بالفعل، فلا تتعلق القدرة بإخراج شخص من ملك الله لأنه مستحيل فلا يوجد ملك غير ملكه، ولا تتعلق بإيجاد ولد له بطريق الجزئية لأنه محال، ولا يعتبر عدم تعلقها بالمستحيل عجزاً، لأن المستحيل لا يقبل الوجود لذاته.

ودليل ثبوت القدرة لله عقلى ونقلى:

الدليل العقلى: الله صانع قديم له مصنوع حادث، وكل من كان كذلك تجب له القدرة فالله تجب له القدرة، فقد ثبت وجود الله لذاته وثبت أن العالم حادث وأن الله أوجد ذلك العالم، فلا بد أن يكون قادرا، فلو لم يكن قادراً لكان عاجزاً ولو كان عاجزاً لما استطاع إيجاد هذا العالم بهذا النظام البديع، لكنه أوجد العالم فثبت أنه قادر.

الدليل النقلى: قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾سورة البقرة : ٢٠ وقوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾سورة فاطر: ٤٤ والنصوص على ذلك أكثر من أن تحصى.

الإرادة

«علمى وأدبى»

الإرادة والمشيئة فى اللغة: القصد والطلب، وفى الاصطلاح: صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، فقولنا صفة: جنس فى التعريف يشمل كل صفة، وأزلية أى قديمة لا أول لوجودها-يخرج الصفة الحادثة، وفى هذا رد على «الكرامية»

الذين ادعوا حدوث الإرادة، لأن الحادث لا يكون وصفا للقديم، وقد ثبت قدم الله. وصفاته قديمة كذلك، وكونها قائمة بالذات يدل على أنها زائدة، وفيه رد على «ضرار» من المعتزلة حيث قال أنها نفس الذات، لأن الصفة غير الموصوف، وفيه رد كذالك على «الجبائى» من المعتزلة الذى يقول إنها قائمة لا بمحل. لأن الصفة لا بد لها من حمل تقوم به وهو الذات. ورد على «النجار» الذى ادعى أنها صفة سلبية وفسرها بعدم الإكراه، والسلب عدم فلا يحتاج إلى من يقوم به، والصحيح أنها صفة وجودية فلا بد لها من ذات تقوم بها، وقولنا تخصص الممكن ببعض ما يجوز: لإخراج بقية صفات المعانى، فكل صفة منها لمهمة خاصة. والإرادة للتخصيص. فتحدد ما يكون عليه الممكن، إذا أن الممكن فى حد ذاته قابل للوجود والعدم، وإذا رجح وجوده فيكون على صفة دون صفة، وتحدد الزمن والمقدار والجهة والمكان الذى يوجد فى كل منها دون غيره، وهذه هى الممكنات الستة المتقابلات التى نظمها بعضهم فى قوله:

الممكنات المتقابلات	وجودنا والعدم، الصفات
أزمنه أمكنة، جهات	كذا المقادير. روى الثقات

تعلقات الإرادة، والإرادة لا تتعلق إلا بالممكن فتخصصه ببعض ما يجوز عليه. أما الواجب والمستحيل فلا تعلق لها بهما لأنهما لا يقبلان التغيير، فالواجب لا يقبل العدم، والمستحيل لا يقبل الوجود. وتعلقها بالممكن فى الأزل فترجح الحالة التى يكون عليها الممكن. فهو تعلق تنجيزى قديم، وقد جعله بعضهم تعلقا صلوحيا قديما. أى أنها صالحة فى الأزل للترجيح، والصحيح الأول، لأنها ترجح بالفعل فى الأزل.

وهل لها بعد ذلك تعلق تنجيزى حادث كالقدرة، وذلك عند إيجاد الممكن بالفعل على الصفة التى رجحتها الإدارة؟ قال بعض العلماء: إن الإرادة ترجح عند الإيجاد فيكون لها تعلق تنجيزى حادث. والصحيح أن الترجيح قديم والقدرة تنفذ عند ما يأتى الزمن الذى حددته الإرادة. فليس للإرادة تعلق تنجيزى حادث.

ودليل ثبوت الإرادة عقلى ونقلى:

الدليل العقلى: الله صانع للعالم بالاختيار، وصانع العالم باختيار تجب له الإرادة فالله تجب له الإرادة.

أو نقول: لو لم يكن مختاراً لكان مكرهاً، ولو كان مكرهاً للزم وجود من يكرهه فيكون عاجزاً وقد ثبت أنه واجب الوجود وحده، فانتفي كل ما عداه، وثبت أنه القادر لا يعجزه شئ، فانتفى الإكراه وثبت الاختيار، والاختيار أخص من الإرادة. لأن الاختيار هو النظر إلى الطرفين وترجيح أحدهما. أما الإرادة فهى النظر إلى الطرف المقصود، سواء أنظر إلى الطرف الآخر أم لم ينظر، وإذا ثبت الأخص. وهو الاختيار. ثبت الأعم. وهو الإرادة.

الدليل النقلى: يقول سبحانه ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ﴾ سورة النحل: ٤٠ ويقول ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾سورة البروج: ١٦ والمريد لغة ذات ثبت لها الإرادة.

المشيئة عند الكرامية: صفة أزلية تتناول ما يشاؤه الله تعالى بها، أما الإرادة فحادثه، وتتعدد بتعدد الأشياء المرادة، والمقصود بالأشياء التى يريدها سبحانه هى شئونه فى خلقه من الأحياء والإماتة والرزق وغير ذلك.

والصحيح ما رآه الجمهور من أن المشيئة هى الإرادة وهى صفة قديمة قائمة بذاته سبحانه، أما شئونه فى خلقه فهى تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة وهى مبنية على الإرادة والمشيئة القديمة.

العلم

«علمى وأدبى»

العلم فى اللغة: اليقين، ويجىء بمعنى المعرفة، وفى الاصطلاح: صفة أزلية متعلقة بجميع الواجبات، والجائزات والمستحيلات على وجه الإحاطة على ما هى به من غير سبق خفاء.

فقولنا صفة: جنس يشملها ويشمل غيرها، وقولنا أزلية-أى قديمة-أخرج الصفات الحادثة، وقولنا متعلقة الخ: لإخراج بقية الصفات، فإنها لا تتعلق بأقسام الحكم على سبيل الإحاطة، وقولنا من غير سبق خفاء: لزيادة الإيضاح لأنها لو كانت مسبوقة بخفاء لكانت حادثة، وقد خرجت بكونها أزلية.

تعلقات العلم: وفى التعريف إشارة إلى تعلق العلم. فهو يتعلق بأقسام الحكم العقلى الثلاثة: الواجب والمستحيل والجائز. فيعلم الواجب على أنه موجود لا يقبل العدم، ويعلم أن المستحيل لا يقبل الثبوت، ويعلم أن الجائز يقبل الوجود والعدم. وكون الجائز كان معدوما

ثم وجد ثم عدم. أطوار للجائز لا توجب تغييراً فى تعلق العلم، فالمتغير هو صفة المعلوم لا تعلق العلم.

وتعلق العلم تنجيزى قديم، فعلم الله سبحانه وتعالى قديم بقدم ذاته فلا أول له، وليس له تعلق صلوحى، وإلا لزم أن يكون جاهلا، لأن الصالح للعلم ليس عالما، وليس له تعلق تنجيزى حادث، وإلا لزام سبق الجهل كذلك وهذا هو الصحيح.

ورأى بعض المتكلمين أن التعلقات ثلاثة، تنجيزى قديم بالنسبة لذات الله وصفاته، وصلوحى قديم بالنسبة لغيره سبحانه قبل وجود ذلك الغير وتنجيزى حادث بعد وجوده، فإن العلم لا يتعلق بوجود الشيء إلا بعد وجوده، أما قبل ذلك فكان يعلم أنه سيوجد، وهو غير العلم بأنه وجد بالفعل.

شمول العلم: وعلم الله شامل لكل شيء، إجمالا وتفصيلا، كليا وجزئيا، حسياً ومعنوياً، متناهيا وغير متناه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾سورة غافر: ١٩.

ووصف العلم بالقدم ينفى عنه أن يكون مكتسبا، فلا يجوز عقلا ولا شرعا وصفه به لأن المكتسب مسبوق بالجهل سواء أكان مكتسبا بطريق النظر والاستدلال، أم بطريق تعلق القدرة الحادثة، والجهل على الله محال لأنه نقص.

وكذلك لا يجوز وصفه بأنه نظرى أو ضرورى أو بديهى، لأن النظرى مكتسب بطريقة النظر والاستدلال فهو مسبوق بجهل، والضرورى يقابل النظرى، أى لا يحتاج إلى نظر واستدلال، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً بالنسبة لعلم الله، إلا أنه يوهم معنى آخر وهو مقارنة الضرورة، وهذا لا يليق بالله فامتنع وصفه به، وكذلك البديهى، فهو مرادف للضرورى فى أنه يطلق على ما لا يتوقف على نظر واستدلال، ولكنه يطلق أيضاً على العلم الحاصل بغتة، فيكون مسبوقاً بجهل، فيمتنع وصف علم الله به.

ودليل ثبوت العلم لله عقلى ونقلى:

الدليل العقلى: أن الله فاعل فعلا متقنا بالاختيار والإرادة، وكل من كان كذلك وجب له العلم فالله يجب له العلم. أما أنه فاعل مختار فقد ثبت فيما مضى أن العالم حادث، وأنه محتاج إلى محدث، وأن محدثه واجب الوجود، وقد ثبتت له الإرادة، فلا بد أن يكون عالما، أو نقول: لو لم يكن عالما لكان جاهلا، والجهل نقص، والنقص عليه محال فثبت العلم.

الدليل النقلي: نصوص القرآن والسنة مشحونة بإثبات العلم العام الشامل له سبحانه كقوله ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾سورة الحشر : ٢٢ وكقوله ﴿وأن الله قد أحاط بكل شيء علما﴾ وقوله ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾سورة غافر : ١٩ وقوله ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾سورة طه : ٧.

يقول صاحب الجوهرة:

وعلمه، ولا يقال مكتسب فاتبع سبيل الحق واطرح الريب

الحياة

«علمى وأدبى»

الحياة ضد الموت وهى فى الحوادث صفة يلزمها الاتصاف بالحس والحركة الإرادية، وفى القديم: صفة أزلية تقتضى صحة الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة وأمثالها من الصفات، فقولنا صفة جنس فى التعريف، وقولنا أزلية-أى قديمة-لإخراج الصفات الحادثة، وقولنا تقتضى الاتصاف بالعلم وغيره من الصفات لإخراج بقية الصفات. ولم يشك أحد من المعترفين بوجوده سبحانه فى حياته، ومع ذلك نقيم الدليل العقلى ثم نتبعه بالنقلى.

الدليل العقلى: الله متصف بالعلم والقدرة والإرادة، وكل من ثبت إتصافه بذلك وجبت له الجياة، فالله وجبت له الحياة. أو نقول: لو لم يكن حيا لكان ميتاً، ولو كان ميتاً ما اتصف بالعلم والقدرة والإرادة، وقد ثبت إتصافه بها فهو حى. أو نقول لو كان ميتاً لما وجد ذلك العالم المحتاج إلى محدث لكن العالم موجود بالمشهادة فثبت أن موجوده حى.

الدليل النقلى: وصف الله نفسه بالحياة فى قوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْم﴾ سورة البقرة : ٢٥٥ وقوله ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوْهُ لِلحَيِّ الْقَيُّوْم﴾سورة طه : ١١١ وقوله ﴿هُوَ الحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُو﴾سورة غافر : ٦٥.

الكلام

«علمى وأدبى»

يطلق الكلام فى اللغة على أصوات متتابعة مكونة من حروف ومقاطع تدل على معنى. ويسمى الكلام اللفظيّ، ويطلق كذلك على المعنى القائم بالنفس الذى يعبر عنه بهذه الألفاظ، ويسمى الكلام النفسى، يقول الله سبحانه ﴿وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾سورة المجادلة : ٨ ويقول عمر رضى الله عنه يوم السقيفة: زورت فى نفسى مقالاً، أى حسنت ورتبت كلاما كنت أريد أن أقوله، ويقول الشاعر:

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

والكلام، بقسميه، بالنسبة للبشر أمر واقع ومشاهد، فيه التخاطب والتفاهم والمرء يحس المعاني تجول فى نفسه فيعبر عنها بالألفاظ، وقد يعبر عن الألفاظ بالكتابة ليستطيع غيره أن يقرأه. أما النسبة لله سبحانه فقد أضيف الكلام إليه فقيل كلام الله، وقد ورد فى القرآن قوله تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾سورة النساء : ١٦٤ وأجمعت الأمة على أن القرآن كلام الله. فقد اشتهر كلام الله فى المعنى النفسى، وأطلق على الكلام اللفظى. ونسبة الكلام إلى الله تقتضى أنه متكلم، فما معنى وصفه سبحانه بذلك، وما هى صفة الكلام التى اتصف بها سبحانه؟ وهل القرآن قديم أم مخلوق؟

وقع الخلاف شديدا بين علماء التوحيد فى الإجابة عن تلك الأسئلة، كثر الكلام فى هذا الموضوع حتى سموا هذا العلم علم الكلام، كما وقعت المحنة لكثير من علماء الأمة بسبب حملهم على القول بخلق القرآن، ونحن نجمل الآراء فى صفة الكلام أولا، ثم فى القرآن الكريم بخصوصه ثانيا.

يرى أهل السنة أن الله متصف بصفة الكلام ويعرفونها بأنها: صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت، منزهة عن التقدم والتأخر والإعراب والبناء، ومنزهة عن السكوت النفسى وعن الآفة الباطنية.

والناظر فى كلام أهل السنة يراه واضحا فى الكلام النفسى، وهو الذى يثبتونه لله، فهو منزه عن الحرف والصوت لأنه ليس ألفاظاً، والألفاظ لا بد فيها من الترتيب فلا ينطق بالحرف الثانى إلا إذا انقضى الحرف الأول وهكذا. ولا بد من الإعراب والبناء ليفهم المقصود، ولا بد من السكوت بين بعض الكلمات وبعضها، وكل ذلك منفى عن الكلام النفسى وكذلك ينتفى السكوت النفسى بأن لا يدبر في نفسه كلاما سواء كان قادرا على أن يدبر الكلام أم غير قادر لآفة باطنية تقابل الخرس الظاهرى، أو لضعف كحالة الأطفال الذين لا يستطيعون الكلام.

أدلتهم: ويستدلون على ثبوت صفة الكلام لله بأنه وصف نفسه به في قوله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾سورة النساء: ١٦٤ وتواتر عن الأنبياء والمرسلين أن الله متكلم، وأجمعت الأمة على ذلك، ومعنى متكلم: ذات قامت بها صفة الكلام. والكلام اللفظى محال لمشابهته للحوادث، فلزم أن يكون المقصود الكلام النفسى، فهو صفة قائمة بذاته سبحانه كبقية صفات المعانى.

تعليقاتها: وتتعلق صفة الكلام بأنواع الحكم العقلى الثلاثة: الواجب والجائز والمستحيل، لتعبر عن حكم كل منها، وهى صفة واحدة لا تعدد فيها، وإنما تتنوع تبعا لمتعلقها. فإذا تعلقت بطلب فهى أمر، وإذا تعلقت بمنع فهى نهى، وإذا تعلقت بالإختيار فهى خبر، وبالتبشير والإنذار فهى وعد ووعيد وهكذا، وتعلقها تنجيزى قديم فى كل ذلك إن لم نشترط فى الخطاب والأمر والنهى وجود المخاطب والمأمور والمنهى. فإذا اشترطنا وجود المخاطب كان التعلق القديم صلوحيا بالنسبة لهذه الأمور، ويكون لها تعلق تنجيزى حادث عند وجود المخاطب.

أما المعتزلة: فقد فسروا الكلام بالحرف والأصوات الحادثة، أى الكلام اللفظى، ونفوا أن يكون الكلام بهذا المعنى وصفا لله لأنه سبحانه لا يتصف بالحوادث، وإنما المقصود أنه خالق للكلام.

أما الحشوية: ومن سموا نفسهم حنابلة، فقد قالوا إن كلام الله هو الحروف والأصوات المتوالية المرتبة وهى فى رأيهم قديمة، لأنها صفة الله القديم، وقد تغالى بعضهم فجعل ما نقرؤه نحن قديما، بل جعل المصاحف التى نكتبها بأوراقهاوأغلفتها قديمة! وهذا جهل فاضح.

القرآن الكريم

القرء فى اللغة الجمع والقرءان اسم للمقروء وقد أطلقه الشارع الحكيم على الكلام المنزل محمد عليه السلام المتحدى بأقصر سورة منه، ويطلق القرآن ويراد به اللفظ المقروء، كما مر، وقد يراد به كلام الله بمعنى الصفة القديمة القائمة بذاته سبحانه. والقرآن كلام الله، كما ورد فى الحديث وأجمعت عليه الأمة، تقول عائشة رضى الله عنها: ما بين دفتى المصحف كلام الله: والكلام نفسى ولفظى كما مر: واللفظى من خلق الله وليس لأحد فى أصل تركيبه كسب، وإطلاق القرآن على النفسى واللفظى بالاشتراك، فهو حقيقة فى كل منهما، وقيل إنه حقيقة فى النفسى مجاز فى اللفظى، وعلى كل من الرأيين فإن من ادعى أن القرآن

الذى بين دفتى المصحف ليس كلام فقد كفر، إلا أن يقصد أنه ليس الصفة القديمة القائمة بالذات.

والقرآن، وهو المعجزة الكبرى، له دلالتان، دلالة عقلية التزامية تدل على الكلام النفسى القديم، ودلالة وضعية تدل على الذى يقرؤه البشر. والكلام النفسى قديم يتعلق بالواجب والجائز والمستحيل، أما اللفظى فحادث مخلوق لله سبحانه وليس لأحد فيه كسب، ومدلوله أمر ونهى وخبر ووعد ووعيد، ومع ذلك فلا يجوز شرعا إطلاق وصف حادث على القرآن الكريم، حتى لا يتوهم البعض أن المقصود بالحدوث الصفة القائمة بذاته، وقد ضرب الإمام أحمد بن حنبل وحبس ليقول بخلق القرآن، وكذلك حدث مع غيره من أفاضل العلماء. ولكنهم أبوا أن يقولوا ذلك خوفا على العوام أن يظنوا أن الحدوث للصفة الذاتية.

والألفاظ المنزلة الدالة على المعانى من خلق الله، فقد خلقها سبحانه فى اللوح المحفوظ، ثم أنزلها فى صحائف إلى سماء الدنيا فى بيت العزة، وذلك فى ليلة القدر، ثم أنزله على النبى عليه السلام مفرقا بحسب الوقائع فى مدى ثلاث وعشرين سنة، وكان ينزل جبريل بالآية فيأمر النبى عليه السلام بأن يضعها فى موضعها بعد آية كذا من سورة كذا.

هل الخلاف حقيقى أم لفظى؟ والناظر فى أقوال أهل السنة والمعتزلة يجد اتفاقا على أن الألفاظ المتلوة مخلوقة لله فهى حادثة. وإن كان أهل السنة لا يجيزون التصريح بذلك إلا فى مقام التعليم، أما المعتزلة فلا يرون ضررا فى اعتقاد حدوثها. أما القرآن بمعنى الكلام النفسى فهو صفة قديمة قائمة بذاته سبحانه عند أهل السنة، والمعتزلة ينكرون زيادة صفات المعانى، فيقولون ليست هناك صفة قائمة بالذات اسمها الكلام، وإنما هو متكلم بمعنى خالق للكلام اللفظى، ويقولون إن كلام الله لموسى كان يخلق الكلام فى الشجرة فسمعه موسى.

ولكن أهل السنة يرون أنه لا مانع عقلا من أن يتصف الله بالكلام، وإذا رفع عنا الحجاب فإنا نستطيع سماع كلامه سبحانه من غير حرف ولا صوت ولا تقديم ولا تأخير ولا إعراب ولا بناء، لأنها من صفات الحوادث وهو منزه عن مشابهة الحوادث، فليس بين الفريقين خلاف حقيقى فى الحكم على الكلام اللفظى وإنما الخلاف على الكلام النفسى.

والصحيح الذى تؤيده النصوص وتطمئن إليه القلوب هو رأى أهل السنة، وهو أن

القرآن بمعنى كلام الله صفة قديمة والقرآن بمعنى اللفظ المتلو مخلوق له سبحانه.

وقد وردت نصوص يفيد ظاهرها أن القرآن مخلوق فتمسك بها المعتزلة، وحملها أهل السنة على الكلام اللفظي المقروء، ومن ذلك قوله سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾سورة الحجر : ٩ وقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾سورة الدخان : ٣ وقوله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾سورة القدر : ١ وقوله ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾سورة القيامة : ١٦-١٩ والأنزال والجمع وتحريك اللسان به من علامات الحدوث، فالمقصود به الألفاظ المتلوة المقروءة.

يقول صاحب الجوهرة:

ونزه القرآن أى كلامه عن الحدوث واحذر انتقامه
فكل نص للحدوث دلا احمل على اللفظ الذى قد دلا

السمع والبصر

«علمى وأدبى»

يطلق السمع فى الحوادث على القوة المودعة فى صماخ الأذن لتدرك بها الأصوات عادة، ويطلق البصر على القوة المودعة فى حدقة العين لتدرك بها الأضواء والألوان والأشكال، وقد امتن الله سبحانه على الإنسان بهاتين القوتين فى قوله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾سورة الإنسان : ٢.

وقد وصف الله تبارك وتعالى نفسه بالسمع والبصر فى كثير من آى الذكر الحكيم كقوله ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾سورة الحج : ٧٥. وقد ثبت أن الله سبحانه مخالف للحوادث، فما هو السمع والبصر المنسوب إليه؟

قال بعض العلماء: إن السمع والبصر نوعان من إدراك العلم، فهما العلم بالمسموعات والعلم بالمبصرات، وهذا القول بعيد عن مفهوم النصوص التى وصف الله بها نفسه، تارة

بالسمع والعلم كقوله ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾سورة النساء : ١٤٨ وتارة بالسمع والبصر كقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾سورة الشورى : ١١ فلا بد من تغاير هذه الأوصاف وإلا لزم اتحادها مع ما وصف به نفسه من صفات العزة والقدرة وغيرها مع البصر تارة، ومع العلم أخرى كقوله ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾سورة فصلت : ١٢ وقوله ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾سورة النحل : ٧٠ وواضح أن الخبرة والعزة والقدرة والعلم صفات مختلفة فكذلك السمع والبصر.

فالسمع: صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه تتعلق بالموجودات تعلقا مغايرا لتعلق العلم والبصر، والبصر: صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه تتعلق بالموجودات تعلقاً مغايراً لتعلق العلم والسمع.

والانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر غير الانكشاف بالعلم بل لكل منها انكشاف كامل، تفوض حقيقته الله سبحانه، وليس وصفه بها كوصف الحوادث، فالبصر عند الحوادث يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم بل جميع صفاته سبحانه تامة كاملة، فيستحيل عليه الخفاء والنقص والزيادة وغيرها، ولا يتوقف سمعه وبصره على آلة ومسافة وجهة ومقابلة من الشروط العادية بالنسبة للحوادث لأنه مخالف لها.

دليل ثبوتهما: نقلى، وهو الآيات الكثيرة فى القرآن الكريم التى تصف الله بالسميع البصير، ومعناهما ذات ثبت لها السمع والبصر، فإطلاق المشتق على ذات يقتضى ثبوت مصدر الاشتقاق لتلك الذات، وسميع مشتق من السمع، وبصير مشتق من البصر، فالسمع والبصر ثابتان للذات العلية.

وهناك دليل عقلى يؤيد الدليل النقلى وهو أنه لو لم يكن سبحانه سميعاً بصيراً لكان أصم أعمى، والوصف بهما نقص فى حقه محال. فانتفى الوصف بهما وثبت أنه سميع بصير. ويشير إلى هذا الدليل قوله عليه السلام: [أربعوا على أنفسكم بالدعاء فإنكم لا تدعون أصم رلا غائباً. وإنما تدعون سميعاً بصيراً. أى أشفقوا على أنفسكم من رفع الصوت بالدعاء] وهذا إشارة لقوله سبحانه ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾سورة الأعراف : ٥٥. يقول صاحب الجوهرة:

حياته. كذا الكلام. السمع ثم البصر. بذى أتانا السمع.

الإدراك

الإدراك في الحوادث تصور الشيء الذى يراد إدراكه، والحواس عند الحوادث خمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس وهي فيهم طريق الإدراك والعلم. فالسمع ادراك المسموعات كالأصوات والبصر إدراك المبصرات كالألوان والشم إدراك المشمومات كالروائح، والذوق إدراك المذوقات كالحلاوة، واللمس إدراك الملموسات كالنعومة والخشونة.

وقد ثبت أن الله متصف بالسمع والبصر بنص القرآن. فهل له سبحانه صفة أخرى لإدراك المشمومات والمذوقات والملموسات. أم أن العلم كاف فى الإحاطة بهذه الأمور؟

وقد اختلف علماء التوحيد إلى ثلاث فرق. عند الإجابة عن هذا السؤال.

الرأى الأول: للقاضى الباقلانى وإمام الحرمين ومن وافقها. يقولون: لله صفة تسمى الإدراك، وهي صفة أزلية قائمة بذاته سبحانه تنكشف بها المشمومات والمذوقات والملموسات انكشافاً يغاير انكشاف العلم والسمع والبصر. من غير اتصال بمحالها ولا تكيف بكيفيتها. فالاتصال بين من يذوق والشيء المذاق وبين من لمس والشيء الملموس. والذى يشم والشيء المشموم. والتكيف والتأثر بالأشياء الملموسة والمذوقة والمحسوسة. إنما هو من صفات الحوادث، لأن هذه شروط عادية بالنسبة إليهم. أما بالنسبة له سبحانه، وهو مخلف للحوادث، فيوجد الإدراك دون تحقيق هذه الشروط العادية من الاتصال والتكيف.

وهى صفة واحدة لها تعلقات ثلاث: فتعلق بالمشموعات والمذوقات والملموسات، وقد جعلها بعض العلماء ثلاث صفات لا صفة واحدة.

وإنما سميت إدراكا أخذاً من قوله سبحانه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارِ وَهُوَ يُدْرِكَ الْأَبْصَار﴾ سورة الأنعام : ١٠٣.

والدليل على ثبوتها له سبحانه: أنها كمال فى حقه. وكل كمال واجب له، ولو لم يتصف بها لا تصف بضدها وهو نقص، والنقص عليه محال، فثبت له الاتصاف بها من غير مشابهة للحوادث بل بما يليق به سبحانه.

الرأى الثانى: أنه ليست هناك صفة بهذا الوضع. لأنه يلزم عليها محال. فلو اتصف بالشم أو الذوق أو اللمس للزم الاتصال بمحالها وهو المشموم والمذوق والملموس، وهذا تلازم عقلى فانفكاكه مستحيل، والاتصال بالمحال مستحيل فى حقه فاستحال ما أدى إليه والقول بأنه لو لم يتصف بها لا تصف بضدها غير مسلم، لأن ضدها ينافى العلم الثابت له سبحانه وهو محيط بمتعلقاتها فهو كاف عنها، ولم يرد فى القرآن أو السنة ما يشير إلى اتصافه سبحانه بالإدراك، والمعتمد عليه فى إثبات الصفات التى لا يتوقف عليها الفعل هو الدليل السمعى، ولم يرد بذلك سمع.

ويمكن رد هذا الشبه بأن لزوم الاتصال عادى لا عقلى، وبأن الانكشاف بها غير الانكشاف بالعلم كما قلنا فى السمع والبصر وقد ورد وصفه سبحانه بالإدراك فى قوله ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾سورة الأنعام : ١٠٣.

الرأى الثالث: لبعض المتأخرين من علماء الكلام الذين يرون التوقف عن الجزم بإثبات صفة الإدراك أو نفيها، لتعارض الأدلة وعدم ورود نص صريح فى النفى أو الإثبات، وهذه الصفات تعتمد فى اعتقادها على السمع.

وهذا القول أسلم لأن كلا من القولين السابقين يحتمل الخطأ والصواب وقد أشار صاحب الجوهرة إلى هذه الآراء الثلاثة فى قوله:

فهل له إدراك. أولا؟ خلف ... وعند قوم صح فيه الوقف

التكوين

يقوله الله سبحانه ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ﴾سورة النحل : ٤٠ وهذا يدل على تكوين الأشياء التى تتعلق بها القدرة، فهل لله سبحانه صفة خاصة تسمى التكوين؟.

يقول الأشاعرة: ليست هناك صفة تسمى التكوين وإنما هي تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة. أما الماتريدية: فقد أثبتوا لله صفة التكوين، وقالوا إنها غير تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة. بل هى صفة قديمة قائمة بذاته سبحانه يوجد بها ويعدم. وتختلف أسماؤها باختلاف تعلقاتها، فإن تعلقت بالوجود تسمى إيجاداً، وإن تعلقت بالعدم تسمى إعداما، وإن تعلقت بالحياة تسمى إحياء وهكذا.

ويفرقون بين هذه الصفة القديمة وبين تعلقات القدرة، بأن وظيفة القدرة تهيئة الممكن لقبول الوجود والعدم، فإن قيل لهم إن الممكن يقبل الوجود والعدم لذاته فما معنى تهيئته لذلك؟ قالوا: تهيئته تجعله مستعدا استعداداً قريبا من الفعل. والصحيح رأى الأشاعرة لأن التكوين لا يخرج عن تعلق القدرة التنجيزى الحادث.

الصفات المعنوية

تقديم: اتفق العقلاء والمفكرون على أن هناك أموراً موجودة، وهى التى ثبت وجودها بإحدى الحواث الخمس أو بالعقل، وهناك أمور معدومة لم يثبت وجودها، وهناك أمور اعتبارية فرضية، والأخيرة إما أن تكون انتزاعية أى الأمر الاعتبارى الفرضى منتزع من هيئة ثابتة فى الخارج، كقيام القائم، وجلوس الجالس، فالقيام والجلوس أمر اعتبارى فرضى منتزع من هيئة الشخص الموصوف وليس للقيام والجلوس وجود حقيقى، وإما أن تكون الأمور الاعتبارية اختراعية، أى ليست منتزعة من هيئة ثابتة، وإنما هى تصور ذهنى لشىء ليس له وجود فى الخارج. كتصور الغول أو العنقاء أو بحر من لجين أو من زئبق، فهذا أمر اعتبارى لا وجود له فى الحقيقة والخارج. فالأمور على ذلك ثلاثة: موجود، ومعدوم، واعتبارى، وقد رأى الإمام الرازى ومن تابعة أن هناك أمراً رابعاً غير هذه الثلاثة، وسماه حالا، وعرفه بأنه الذى له ثبوت لم يصل به إلى درجة الموجود حتى يدرك بالحواس، ولم ينحط إلى درجة المعدوم حتى يكون عدما محضا، بل هو وسط بين الموجود والمعدوم.

وصف الله بأنه قادر عالم

«علمى وأدبى»

وقد اتفق جميع المسلمين على أن الله قادر عالم مريد حى سميع بصير متكلم مدرك مكون

عند من أثبت الإدراك والتكوين.

يدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا من فَوْقِكُم﴾سورة الأنعام : ٦٥ وقوله ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِه لَقَادِر﴾سورة الطارق : ٨ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْر﴾سورة البقرة : ٢٠ وقوله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيْد﴾سورة البروج : ١٦ وقوله ﴿ذَلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيم﴾سورة السجدة : ٦ وقوله ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم﴾سورة البقرة : ٢٥٥ وقوله ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوْسَى تَكْلِيْمًا﴾سورة النساء : ١٦٤.

فهل له سبحانه صفة غير القدرة، وهى كونه قادراً، وغير العلم وهى كونه عالما .... وهكذا ؟

الذين يعتبرون الأمور ثلاثة ينكرون الأحوال، ولا يعترفون بوجود صفات أخرى غير صفات المعانى الثابتة للذات، إنما يقولون إن كونه قادراً ومريداً وعالما أمور اعتبارية، فهم يثبتون الصفة وينكرون استلزامها لصفة أخرى تكون حالا. أما من أثبت الحال كالإمام الرازى وبعض الماتريدية والمعتزلة. فقد أثبتوا قسما رابعا وهو الصفات المعنوية وعرفوها بأنها: الحال الثابتة للذات ما دامت الذات، حال كون تلك الحال بعلة، أى لازمة للملزوم إذ يلزم من وصف الله بالقدرة أن يكون متصفا بالقادرية، أى بكونه قادراً، فثبوت هذه الصفة له وهى حال، معلل بوصفه بالقدرة وهذا عند الماتريدية من أهل السنة الذين يثبتون صفات المعانى. أما عند المعتزلة الذين لا يقولون بزيادتها. كما سيأتى، فإنها ملزومة للذات. فإنهم يقولون قادر بذاته، ويلزم ذلك القادرية أى كونه قادرا بذاته، والصحيح الرأى الأول، وهو رأى الأشاعرة، المبنى على نفى الحال.

حكم منكر الصفات: ونظراً لأن الجميع يقرون بكونه سبحانه قادراً مريدا الخ فلا يضر إنكار اتصافه بصفات المعانى إلا إذا أثبت أضدادها فإنه يكفر بإثبات العجز والإكراه والجهل وهكذا.

أما من أنكر المعنوية بمعنى القادرية ونحوها، فإنه يلزم من إنكارها إثبات ضدها. أما إنكار كونها أحوالا فلا يضر فى شيء، بل هو الحق، فالحق أنه لا حال، وأن الحال محال كما يقول الأشعرى.

يقول صاحب الجوهرة:

حى. عليم. قادر. مريد   سمع. بصير. ما يشا يريد
متكلم ....

فحى أى حياته لذاته، وعليم أحاط علمه بكل شىء، وقادر متمكن من الفعل والترك حسبما ترجح الإرادة، فهو مريد يخصص كل شىء باختياره وحكمته من غير إكراه، وسمع أى سميع بحذف الياء لضرورة النظم، ويسمع كل موجود، وبصير يبصر الموجودات، وما وقعت مشيئته عليه يريده، فالمشيئة والإرادة متحدان.

وقد جاء البيت محتملا لرأى من أنكر الحال. إذ اعتبره عدا لأسماء الله المأخوذة من الصفات. أما من أثبت الحال فقد فسره بما يناسب رأيه، وقال: إن المقصود منه بيان الصفات المعنوية، فقوله حى أى كونه حيا، وهكذا.

صفات المعانى

هل هى الذات أو غيرها ؟

«أدبى»

ثبت أن الله سبحانه وتعالى موجود مخالف للحوادث قادر خالق فعال لما يريد، والناظر فى صفات الله سبحانه يجد أن الصفات السلبية الخمسة غير الذات وكذالك الصفات المعنوية لأنها حال عند من أثبت الواسطة وهى غير الذات، وكذالك صفات الأفعال كالخلق والايجاد والإحياء والإماته فهى غير الذات لأنها منفكة عنها، فهى تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة.

أما صفة الوجود فقد أطلقوا عليها أنها صفة نفسية، لأنها تدل على نفس الذات، وقد مر البحث فى أنها عين الموجود كما يقول الأشعرى وصح فهمه وتأويله بأنها ليست زائدة على الذات، أو هى غير الموجود على رأى عيره.

وبقى الكلام فى الصفات الثبوتية التى أثبتت للذات معنى قائما بها، ولذلك سميت صفات المعانى، كما سميت صفات الذات، وهى العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام.

فهل هذا القائم بالذات، وهو القدرة وأخواتها زائد على الذات حتى يلزم تعدد القدماء، أو هو نفس الذات حتى يلزم اتحاد الصفة والموصوف؟

رأى المعتزلة: لقد حاول المعتزلة أن يفروا من القول بتعدد القدماء لأنه يلزم عليه الشرك، فقالوا ليست هناك صفات زائدة على الذات، وإنما هو قادر بذاته، عالم بذاته وهكذا، فليست هناك إلا ذات واحدة فإذا خصصت فهى إرادة، وإذا أثرت فهى قدرة، فالصفات عين الذات، لأننا إذا قلنا بزيادتها على الذات فلا يخلو أن تكون حادثة أو قديمة، فإذا كانت حادثة لزم قيام الحوادث بذاته، ولزم خلوا الذات عن الصفات قبل اتصافها بها، وكلاهما باطل، وإذا كانت قديمة لزم تعدد القدماء، وقد كفر النصارى بقولهم إن الله ثالث ثلاثة! فما بالكم بمن أثبت ثمانية قدماء ؟ ! وهم الذات العلية والصفات السبعة، أو تسعة قدماء لمن زاد التكوين، أو عشرة لمن زاد الإدراك.

رأى أهل السنة: حاول أهل السنة أن يفروا من اللازمين، وهما تعدد القدماء واتحاد الصفة والموصوف، فاشتهر عنهم القول بأن صفات المعانى، أو صفات الذات، ليست عين الذات ولا غيرها، وقد ظن البعض أن هذا تناقض لأن الشئ إما عين أو غير، فكيف يكون لا عينا ولا غيرا ؟

والواقع أنه ليس هناك تناقض، لأنهم يقسمون الغير إلى قسمين: غيرٌ منفك، أى منفصل عن الذات، وغيرٌ ليس منفكا، أى ليس منفصلا عن الذات والمقصود بقولهم ليست غير الذات، نفى الغير المنفصل، وهذا لا يمنع أن تكون غيرا متصلا لا ينفك عن الذات، لأن حقيقة الصفة غير حقيقة الذات، ولكنهما متلازمان لا ينفك ولا ينفصل أحدهما عن الآخر.

رد شبهة المعتزلة: وصفات الذات ليست حادثة حتى يلزم قيام الحوادث بذاته، وإنما هى قديمة ومع ذلك فلا يلزم تعدد القدماء، لأن التعدد المبطل للتوحيد إنما هو تعدد القدماء المنفصل بعضهم عن بعض. بأن تكون هناك ذوات غير الله مستقلة قديمة لها نفس الصفات، أما أن تكون الذات واحدة متصفة بصفات لا تنفك عنها فليس فى ذلك تعدد. فصفاته سبحانه ليست غيراً منفكا عن ذاته.

ولو أن الأمر كما يقول المعتزلة للزم أن تكون الصفة عين الموصوف وهو باطل، كما يلزم أن تكون الصفات متحدة فى المعنى، فيكون العلم هو القدرة وهو الإرادة، لأن العلم هو الذات والإرادة هي الذات والقدرة هى الذات، وهذا ظاهر الفساد، فمغايرة الصفات بعضها لبعض فى غاية الوضوح والجلاء.

وصفات المعاني واجبة لذاتها، فهي من قبيل الواجب العقلي وهو الموجود الذي لا يقبل العدم لذاته. وهذا هو الصحيح، خلافا لمن قال إنها ممكنة في ذاته واجبة لغيرها لأن الذات اقتضت كمالاتها، وهذا رأى باطل لأنه مبنى على أساس التلازم بين العلة والمعلول وجعل الله علة لصفاته، تعالى الله عما يقولون.

عبادة الذات وعبادة الصفات: والعبادة والتقديس إنما تكون للذات المتصفة بصفات الكمال عامة، أما عبادة الذات مجردة عن الصفات فهو فسق، لأن الذات لا تنفك عن صفاتها، أما عبادة الصفات دون الذات فكفر، لأن الصفات لا قيام لها إلا بالذات ولا تعقل بغيرها، وإفرادها بالعبادة فيه اعتراف ضمنى بانفكاكها وتعدد القدماء وهو عين الشرك.

ولما كانت الصفات لا تنفك عن الذات فقد وقع التسامح فى نسبة بعض ما للذات إليها، كقولهم: تواضع كل شىء لقدرته، وخضع الوجود لارادته، والمعنى: تواضع كل شىء لذاته لأجل قدرته، وخضع الوجود لذاته لأجل إرادته.... وهكذا، فالعبادة موجهة إلى الذات المتصفة بهذه الصفات، وقد أطلق على أهل السنة أنهم الصفاتية، لأنهم أثبتوا صفات المعانى.

يقول صاحب الجوهرة مبيناً رأى أهل السجة:

متكلم، ثم صفات الذات ليست بغير أو بعين الذات

تعلقات صفات المعانى

«أدبى»

التعلق فى اللغة: التمسك، يقال تعلق بفلان إذا تمسك به وأحبه، وأعلق أظفاره فى الشىء أنشبها فيه، وفى الاصطلاح: طلب الصفة أمراً زائدا على الذات يصلح لها، فالصفة التى لا تنفك عن الموصوف تطلب شيئا آخر غير الذات يظهر معناها فيه، فالقدرة تقتضى شيئا يظهر فيه أثرها، والإرادة تستلزم شيئا يظهر فيه تخصيصها، والعلم يستلزم معلوما منكشفا للذات وهكذا، فاقتضاء الصفة واستلزامها لشىء غير الذات هو المراد بالتعلق والتعلق خاص بصفات المعانى.

وقال بعض علماء التوحيد: إنه للصفات المعنوية، وهى لازمة للمعانى عند من أثبتها كما علمت ولا يصح أن يكون التعلق للمعانى والمعنوية معاً، لأنه يلزم عليه اجتماع مؤثرين على أثر واحد، فيكون الأثر للقدرة ولكونه قادراً، والترجيح للإرادة ولكونه مريداً، وهذا باطل، كما يلزم تحصيل الحاصل فى الانكشاف بالعلم وبكونه عالما. وهو باطل أيضا.

أما السلوب فلا تعلق لها لأنها عدمية، أما الوجود وهو الصفة النفسية الذاتية، فليس له تعلق كذلك، سواء أقلنا إنه عين الذات، أم قلنا إنه أمر اعتبارى أو حال.

وصفات المعانى ليست كلها تقتضى أمراً زائدا على الذات، بل منها ما يقتضى، وهو الذى يتعلق، ومنها ما لا يقتضى فلا تعلق له، والتعلق ليس على وتيرة واحدة، وإنما منها ما يتعلق بجميع أنواع الحكم العقلى، ومنها ما يتعلق ببعض هذه الأنواع.

أقسام الصفات من حيث التعلق: والصفات الذاتية من هذه الناحية أربعة أقسام:

١. ما يتعلق بالممكن، وهو: القدرة والإرادة والتكوين عند من أثبته.
٢. ما يتعلق بجميع أقسام الحكم العقلى، وهو العلم والكلام.
٣. ما يتعلق بالموجودات، وهو السمع والبصر، والإدراك عند من أثبته.
٤. ما لا يتعلق أصلا، وهو الحياة.

(١) ما يتعلق بالممكن

أ- القدرة: وهى عامة التعلق بكل ممكن، وهو ما يجوز عليه الوجود والعدم لذاته فهو قابل لتأثير القدرة فيه إيجادا وإعداما، فلو تعلقت القدرة ببعض الجائز دون بعض لزم العجز وهو نقص محال، ولا تتعلق القدرة بالواجب ولا بالمستحيل لذاته، لأنه يلزم على تعلقها بأحدهما تحصيل الحاصل أو قلب الحقائق وكلاهما محال، والقدرة صالحة في الأزل للتأثير، وذلك قبل وجود العالم ولذلك نقول: لها تعلق صلوحى قديم، وليست فى هذه الحال معطلة، لأن المعطل لا يكون صالحا للعمل، وعند الإيجاد بالفعل يكون التاثير الحادث، ولذلك نقول:

لها تعلق تنجيزى حادث وهذا التعلق التنجيزى لا نهاية له، فمنه نعيم الجنة وعذاب النار، وهما متجددان شيئا فشيئا، وإن كان كل فرد من أفراد الموجود الممكنة له نهاية. والقدرة واحدة لا تعدد فيها، وإنما التعدد فى متعلقاتها من إيجاد وإعدام ورزق وغير ذلك.

ويدل على عموم تعلق القدرة بالممكنات قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾سورة البقرة : ٢٠ وقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾سورة الفرقان: ٢.

ب- الإرادة تتعلق به القدرة، وهو الممكن، ولا تتناهى متعلقاتها وهى صفة واحدة كذلك، ولكن جهة تعلقها تختلف عن تعلق القدرة لأنها تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه، وهى الممكنات الستة المتقابلات.

ويدل على عموم تعلق الإرادة قوله سبحانه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾سورة البروج : ١٦ وقوله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾سورة يس : ٨٢ كما يدل العقل على عموم الإرادة، لأنها لو تعلقت ببعض الممكنات دون بعض لزم الترجيح بلا مرجع وهو باطل.

وتعلقها بالممكنات تنجيزى قديم، لأنها رجحت وخصصت ما تكون عليه الممكنات، وجعل بعضهم لها تعلقا صلوحيا قديما، وجعل البعض لها تعلقا تنجيزيا حادثاً حين وجود الممكن، والحق أنه إظهار التعلق القديم.

جـ- التكوين-عند من أثبته-له تعلق تنجيزى حادث، والحق أنه تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة.

(٢) ما يتعلق بأقسام الحكم

فيتعلق بالواجب والجائز والمستحيل لذاته

أ- العلم: وهو انكشاف عام يشمل الواجب والجائز والمستحيل على سبيل الإحاطة

والشمول، وتعلقه غير متناه، لأنه يحيط بنعيم الجنة الذى لا يتناهى، وهو صفة واحدة لا تعدد فيها وإنما التعدد فى متعلقاتها وهى المعلومات، فيعلم الواجب كذاته وصفاته، ويعلم المستحيل كعدم الشريك والولد والصاحبة، ويعلم الممكن بما يجرى له من أحداث ويتوالى عليه من أعراض، وتعلق العلم تنجيزى قديم لأن الله علم كل شيء أزلا، ولم يتجدد له علم بشيء وإلا لكان حادثا مسبوقا بجهل، وهو محال.

وقد قسم بعض علماء التوحيد تعلق العلم إلى أقسام ثلاثة: تنجيزى قديم بالنسبة لذات الله وصفاته، وصلوحي قديم بالنسبة للممكن قبل وجوده، وتنجيزى حادث بالنسبة للممكن بعد وجوده والحق أنه تعلق واحد تنجيزى قديم كما تقدم.

ويدل على شمول علمه سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ سورة الأنفال : ٧٥ وقوله ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ سورة السجدة : ٦ وقوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ سورة الطلاق : ١٢.

الترتيب بين التعلقات الثلاث: هناك ترتيب عقلى بين تعلقات العلم والإرادة، والقدرة، فالقدرة إنما تنفذ ما رجحته الإرادة، والإرادة تخصص الممكن المعلوم، فالترتيب العقلى يقدم العلم ثم الإرادة ثم القدرة، وليس هناك ترتيب فى الواقع لأن الصفات جميعها قديمة، والترتيب من لوازم الحادث، إذ يلزم أن يكون المتأخر حادثا.

أما إذا نظرنا إلى التعليق التنجيزى للقدرة فإنا نجده متأخراً فعلا عن تعلق العلم والإرادة القديمين فى العقل وفى الخارج.

ب- الكلام: يتعلق بالواجب والجائز والمستحيل كذلك، ولكنه تعلق دلالة، والكلام صفة غير متناهية ولا متعددة، والمقصود به الكلام النفسى، وتعلقه تنجيزى قديم بالنظر لغير الأمر والنهى، فيتعلق كلامه النفسى بالدلالة على ذاته الواجبة، وشريكه المستحيل، والعالم الممكن، كما يدل على الوعد والوعيد وهكذا، أما الأمر والنهى فإذا لم نشترط وجود المأمور والمنهى فالتعلق تنجيزي قديم كذلك وإذا اشترطنا وجود المأمور والمنهى كان له تعلق، صلوحى قديم قبل وجودهما. وتنجيزى حادث بعد وجودهما.

(٣) ما يتعلق بالموجود

والمقصود بالموجود كل ما له ثبوت ذاتي: كواجب الوجود أو غير ذاتي كالممكن.
أ، ب- السمع والبصر: ويتعلق كل منهما بالموجود تعلق انكشاف يغاير تعلق الآخر، كما يغاير تعلق العلم فالعلم يتعلق بالموجود والمعدوم، والسمع والبصر لا يتعلقان إلا بالموجود، ولا يعلم حقيقة الفرق بين هذه التعلقات إلا الله سبحانه.

جـ- الإدراك: عند من يقول به- ويكون تعلقه بالموجود كذلك، من المحسوس والمذوق والمشموم، وتعلقه يخالف تعلق العلم والسمع والبصر، فكل صفة من هذه الصفات تخالف الأخرى فى تعلقها، ولا يغنى بعضها عن بعض، ولا يكمل بعضها بعضا، وإنما كل منها كامل فى ذاته، فكل صفة عامة التعلق، وهى غير متناهية ولا متعددة. ولكل من هذه الصفات الثلاث:

تعلق تنجيزى قديم بواجب الوجود، وهو الله وصفاته.
وتعلق صلوحى قديم، وهو صلاحيتها للتعلق بالممكن عند وجوده.
وتعلق تنجيزى حادث، وهو تعلقها بالممكن بعد وجوده.

وطريق ثبوت هذه الصفات وتعلقاتها هو السمع، وهو قوله سبحانه ﴿وَهُوَ السَّمِيْعُ البَصِيْر﴾سورة الشورى : ١١.

(٤) ما لا يتعلق بشىء

وهو الحياة، فلا تعلق لها بغير الذات ولا تقتضى أمراً زائداً عليها، فلا تعلق لها بموجود ولا بمعدوم ولا بواجب ولا جائز ولا مستحيل، فالحياة صفة الذات التى تصحح الإدراك. ومثل الحياة فى عدم التعلق: صفة الوجود, يقول صاحب الجوهرة:

فقدرة بممكن تعلقت ... بلا تناهى ما به تعلقت
ووحدة أوجب لها ومثل ذى ... إرادة، والعلم لكن عم ذى
وعم أيضا واجبا، والممتنع ... ومثل ذا كلامه فلنتبع
وكل موجود أنط للسمع به ... كذا البصر، إدراكه، إن قيل به
وغير علم هذه كما ثبت ... ثم الحياة ما بشىء تعلقت

المستحيل فى حق الله

«أدبى»

ثبت أن الله متصف بصفات الكمال إجمالا، فيلزم عن ذلك أن يكون منزها عن صفات النقص إجمالا، فيكون كل نقص مستحيلا عليه، أما بطريق التفصيل فقد وجب اعتقاد وجود صفات خاصة له سبحانه هى أمهات صفات الكمال، وقد عرفناها وعرفنا دليل وجوبها لله، وإذ ثبتت له هذه الصفات فقد استحال عليه اضدادها، لأن الضدين لا يجتمعان، والمقصود بالضد هنا الضد اللغوى، وهو مطلق المنافى وجودياً أو عدمياً، أما الضد الإصطلاحى عند المناطقة فهو خاص بالوجودى، ولذلك يعرفون الضدين بالأمرين الوجوديين اللذين بينهما غاية الخلاف فلا يجتمعان وقد يرتفعان.

فيستحيل على الله تفصيلا أضداد الصفات السابقة، فيستحيل عليه: العدم والحدوث، والفناء، والمماثلة للحوادث، فلا يكون جرما، ولا عرضا، ولا فى جهة ولا يحل فى مكان، ولا يقيد بالزمان، ولا يوصف بالحركة أو السكون ولا بالبياض أو السواد أو نحوها، ولا يتصف بالجزء ولا بالكل، وليستْ أفعاله لعلة ولا تكون عبثا، وإنما تكون لحكمة، ويستحيل عليه الاحتياج إلى مخصص أو إلى من يقوم به، كما يستحيل أن يكون له شريك، أو أن يكون عاجزا أو مكرها، أو جاهلا، أو أعمى أو أصم أو أبكم أو ميتا، وكذلك يستحيل أن يكون علة أو معلولا لأن كل ذلك نقص والنقص فى حقه محال، وقد وجبت له صفات الكمال فيستحيل عليه صفات النقص.

يقول صاحب الجوهرة:

ويستحيل ضد ذى الصفات ... فى حقه كالكون فى الجهات

الجائز فى حق الله

«أدبى»

هذا هو القسم الثالث من أقسام الحكم العقلى، والجائز هو الممكن لذاته أى الذى تقبل ذاته الوجود والعدم، فلا يكون واجبا لذاته بحيث لا يقبل العدم، ولا يكون مستحيلا لذاته بحيث لا يقبل الوجود، وإنما الأمران بالنسبة إلى الممكن فى حد ذاته متساويان. وقد علمنا

أن القدرة تتعلق بالممكن، والمقصود به كل ممكن لأنها لو تعلقت بالبعض دون البعض كانت عاجزة، والعجز نقص، والنقص على الله محال.

والقدرة تنفذ ما رجحته الإرادة، فإذا خصصت ممكنا بالإيجاد وجد وإذا خصصت آخر بالإعدام أعدم، وكذلك تتعلق بكل جائز عقلى فيكون خاضعاً للمسيئة ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾سورة القصص: ٦٨ ويقول عليه السلام [ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن] فلا يجب عليه سبحانه فعل شيء أو تركه من الأمور الممكنة. وإنما يتصرف فى ملكه بمشيئته واختياره ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾سورة آل عمران: ٢٦،٢٧.

ويتفرع من بحث الجائز فى حقه سبحانه، مباحث كثيرة، كخلق أفعال العباد، والصلاح والأصلح، والثواب والعقاب، وإرادة الخير والشر، والقضاء والقدر، ورؤية الله سبحانه، والدعاء والرزق، والاكتساب والتوكل، وكل هذه الموضوعات محل بحث ومناقشة واختلاف بين العلماء التوحيد من أهل السنة والمعتزلة.

افعال العباد

«علمى وأدبى»

مقدمة: إن الناظر فى هذا الكون علوية وسفلية يرى فيه إبداعا وإحكاما لا يصدر إلا من حكيم خبير، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يجعل هذا العالم أنواعا مختلفة، وأن يجعل لكل نوع منه مهمة يؤديها فى هذا الوجود، فهذه جمادات وتلك أحياء، والأحياء أنواع ثلاثة: هؤلاء ملائكة مكلفون بالعبادة فحسب لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهذه حيوانات وأنعام فيها شهوة عارمة لا يحجزها عقل ولا تدفعها غاية، ثم جعل الثقلين وسطا بين النوعين الآخرين ففى هذا النوع الشهوة والعقل، تحاول الأولى أن تلحقه بعالم الحيوان والبهائم، ويحاول العقل أن يكبح جماحة، وأن يعلى شأنه ويرتفع به إلى عالم الملائكة، ثم عرضت الأمانة على هذا العالم باجناسه المختلفة، فلم يكن غير الإنسان-النوع الوسط-مستعدا لقبولها مهيأ لحملها ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾

سورة الأحزاب : ٧٢ فكان الإنسان لذلك أرقى هذه الأنواع. خلق للعبادة الواعية الخاضعة للعقل والبحث والتفكير ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾سورة الذاريات : ٥٦ وسخرت له جميع الكائنات يستغلها فى حدود قدرته ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيْعًا مِنهُ﴾سورة الجاثية : ١٣، ولم يترك فى خضم الحياة بغير هاد مرشد، يرسم له طريق الخير ويدعوه إليه، ويبين طريق الشر ويحذر منه، فاختار سبحانه سفراء بينه وبين الناس يبلغون رسالات الله، وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم فى دعواهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ولما اقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يكون ذلك العالم إلى أجل معلوم ونهاية محدودة، وأن كل فرد من هؤلاء المكلفين له أجل ﴿فإذَا جَاءَ أجَلُهُم لَا يَسْتَأخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾سورة الأعراف : ٣٤. اقتضت حكمته كذلك أن يجمع الناس فى يوم واحد يحاسبهم فيه على التكاليف التى ألزمهم بها، والأمانات التى استودعهم إياها، فيكافىء المحسن على إحسانه بجنة عرضها السموات والأرض، ويجزى المسىء على إساءته بنار وقودها الناس والحجارة، وجعل هذه الحياة الأخرى هى الباقية الخالدة ﴿يَوْمَ يَأتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلَّا بِإذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيْدٌ فَأَمَّا الَّذِيْنَ شَقُوا...الآية﴾سورة هود : ١٠٦،١٠٥.

الإسلام يدعو إلى التفكير :

ولقد دفع هذا التوجيه الحكيم من المشرع سبحانه علماء الأمة إلى البحث فى هذه العقائد وعرضها على العقل، حتى تكون العبادة خالصة لخالق هذا الكون ومدبره فإنه سبحانه لا يقبل الإيمان الضعيف الواهن ولا التقليد الأعمى، ولذلك يقول ﴿ إنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُوْلِى الألْبَابِ...الأية﴾سورة آل عمران : ١٩ ويبين الرسول عليه السلام منزلة هذه الآية من تلك الشريعة التى تدعو إلى البحث فيقول: ويل لمن لا كها بين فكيه ولم يتدبر معناها.

فإذا وجدنا خلافا وقع بين العلماء الباحثين فيما يتعلق بمنشىء هذا الكون من نسبة شىء إليه أو وصفه به أو نفيه عنه، فلنلتمس لكل منهم عذراً فإنما دفعه إلى ذلك هو رغبته فى الوصول إلى الحق، والعبادة الخالصة والتنزيه المطلق للخالق الحكيم، ووصفه بكل كمال، وتنزيهه عن كل نقص. إذا تقرر هذا فإنا نقول وبالله التوفيق.

خلق الله تعالى

إننا فى كل لحظة نرى أشياء توجد وأخرى تعدم، بعضها له علاقة باختيار الإنسان ومشيئته وبعضها لا دخل للإنسان فيه ولا اختيار، فمن الذى أوجد هذه الأشياء ومن الذى أعدمها ؟

أما الأعمال التى ليس للإنسان فيها دخل ولا اختيار، سواء أكانت متعلقة به كأفعاله الاضطرارية كحركة المرتعش ونبضات القلب والدورة الدموية، أم غير متعلقة به كحركات الأجرام السماوية وهطول الأمطار واختلاف الليل والنهار وسقوط صخرة من جبل، فقد اتفق جميع العلماء والباحثين على أنها من فعل الله ولا تكليف للإنسان بشىء منها لأنها ليست فى حدود قدرته ولا تخضع لإرادته.

أفعال العباد

أما الأفعال التى تجرى على يدى الإنسان وتخضع لتفكيره وإرادته، فهى محط البحث لأنها أساس التكليف وبها يمدح فاعلها أو يذم، وعليها يحاسب فيثاب أو يعاقب، ومن أجل توضيحها وبيانها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وشرعت الشرائع.

تعلقات القدرة أو الجائز فى حقه تعالى:

وقد اتفق العلماء على أن الحكم العقلى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: واجب وجائز ومستحيل، وأن قدرة الله تتعلق بكل ممكن إيجاداً وإعداما، قال صاحب الجوهرة:

وجائز فى حقه ما أمكنا　　　إيجاداً إعداما كرزقه الغنى

فهل تتعلق قدرة الله بهذه الأفعال الاختيارية باعتبارها ممكنا من الممكنات؟.

وقد وقع الاختلاف فى نسبة هذه الأفعال وما ينتج عنها من الخير والشر والهدى والضلال، إلى خالقها وموجدها، هل هو الله سبحانه أو هو العبد؟ وإذا كان هو الله فكيف يكلف العبد بشىء لا يستطيع فعله، وما الحكمة فى إرسال الرسل، ثم بعد ذلك كيف يمدح أو يذم. وكيف يحاسب فيثاب أو يعاقب على شىء لم يفعله ولم يكن له فيه تأثير. وإذا كان الموجد لهذه الأفعال هو العبد وليس لقدرة الخالق تعلق بها فقد أثبتنا لغير الله خلقا وإيجاداً، وأوقعنا فى ملكه سبحانه ما لا يريده، وفى هذا شرك أو شبه شرك وهو سبحانه منزه عن أن يكون له شريك.

فإذا رجعنا إلى النصوص التى وردت فى الموضوع لنجعلها حكما فى الفهم ونرجع إليها الأمر، وجدناها تفيد الأمرين جميعا ولا تقطع بواحد منهما، ومن هنا جاء الخلاف بين علماء التوحيد.

بعض النصوص التى تنسب الخلق إلى الله:

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾سورة الإنعام: ١٠٢، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سورة الصفات: ٩٦، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾سورة فاطر: ٣، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ سورة لقمان: ١١.

بعض النصوص التى تنسب العمل إلى العبد:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾سورة التوبة: ١٠٥، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾سورة آل عمران: ١٨٢، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾سورة البقرة: ٢٨٦، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾سورة الزلزلة: ٧،٨، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سورة يس: ٥٤.

للعلماء فى نسبة هذه الأفعال إلى موجدها ثلاثة مذاهب:

١ . الجبرية　　٢. أهل السنة　　٣. المعتزلة

مذهب الجبرية

أما الجبرية فيرون أن الإنسان مجبور فى هذه الحياة ليس له من الأمر شيء ولا فرق بين فعله الاضطرارى وفعله الاختيارى، فليس له فى الواقع ونفس الأمر قدرة ولا إرادة، وإنما هو كالريشة المعلقة فى الهواء تحركها الرياح كيف شاءت لا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعا ولا أن يدفع عنها ضرا، وقد جرت إرادة الله بما هو كائن وما يكون طبقا لعلمه سبحانه، ونفذت القدرة ما رجحته الإرادة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وإنما حملهم على هذا القول رغبتهم فى تنزيه الله سبحانه تنزيها مطلقا عن الشريك وعن شبه الشريك، واستدلوا على مذهبهم بأدلة نقلية وأخرى عقلية.

أدلتهم النقلية:

أخذوا بظاهر الآيات التى تنسب الخلق إلى الله سبحانه، وجعلوها تعبر عن الحقيقة وأولوا ما عداها من الآيات التى تنسب الخلق إلى العبد، وجعلوا النسبة فيها مجازية من قبيل نسبة الشيء إلى محله لا إلى فاعله، فلا فرق بين أن نقول قام محمد ومات على، فكلا الأمرين من خلق الله وليس للعبد فيهما اختيار ولا إيجاد.

فقوله سبحانه ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾سورة الأنعام : ١٠٢ يدل على انفراده بالخلق، والإضافة هنا على حقيقتها، فيشمل المخلوق أعمال العباد وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾سورة الصفات : ٩٢ يدل على أنه سبحانه الخالق المطلق سواء أجعلنا ما مصدرية أم موصولة، أى: وخلق عملكم أو: خلق الذى تعملونه، وقوله ﴿هَلْ مِن خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾سورة فاطر: ٣ استفهام انكارى، والمعنى ليس هناك خالق غيره سبحانه فنفى الخلق والإيجاد عما سواه، وقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾سورة الفرقان : ٢ يفيد العموم فيشمل أفعال العباد كما يشمل غيرها.

دليلهم العقلى:

أن فعل العبد إما أن يكون مقدوراً لله وحده، أو للعبد وحده أولهما معاً أو ليس لأحدهما، والأخير باطل لأن كل حادث لا بد له من محدث، كما أن الفرض الثالث باطل

لاستحالة وقوع الفعل الواحد بقدرتين لما يلزم عليه من اجتماع مؤثرين على أثر واحد، فلم يبق إلا أن يكون الفعل لله أو للعبد، ويلزم من نسبته إلى العبد أن يكون العبد شريكا لله فى إيجاده بعض المخلوقات التى تعلقت بها قدرته ولم تتعلق بها قدرة الله، وهذا باطل لثبوت وحدانيته سبحانه فى الأفعال، وتعلق قدرته بجميع الممكنات، فهو سبحانه على كل شيء قدير، فلم يبق إلا أن تكون جميع الأفعال مخلوقة له سبحانه ليس للعبد فيها اختيار ولا تأثير.

مناقشة رأى الجبرية:

يرد على هذا الرأى عدة اعتراضات نذكر منها:

١. أنكم لا تفرقون بين الأفعال الاختيارية والاضطرارية مع أن الفرق واضح لا ينكره إلا مكابر، فكل عاقل يدرك الفرق بين حركة الارتعاش ونبض القلب، وبين الصلاة والسرقة والمشى، فإنه لا يستطيع أن يتحكم فى الأولى ويستطيع أن يفعل الثانية أو يمتنع عنها.

٢. يلزم على الأخذ بهذا الرأى محاسبة المكلف على أمر لم يفعله ولم يكن له فيه إرادة ولا اختيار، وهذا ينافى أبسط قواعد العدل، وقد نفى سبحانه عن نفسه الظلم نفيا مؤكدا بقوله في الحديث القدسى [يا عبادي إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته فيما بينكم محرما فلا تظلموا] وأضاف الجزاء إلى فعل العبد بقوله ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾سورة آل عمران : ١٨٢.

٣. إذا صح القول بالجبر فإنه يلزم عليه أن التكليف وإرسال الرسل وإنزال الشرائع والحساب يوم القيامة والثواب والعقاب - كل ذلك لا معني له ولا فائدة منه، فى حين أن الله سبحانه منزه عن العبث ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا بِالحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لَا يَعْلَمُونَ﴾سورة الدخان : ٣٨،٣٩ وهم لو أقروا بهذا اللازم لا نحدروا إلى تكذيب الرسل وقالوا كما قال المشركون ﴿لَوْ شَآءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ سورة الأنعام : ١٤٨ وبذلك يخرجون من حظيرة الإسلام، ولكنهم لم يقروا بذلك اللازم ولم يحيدوا عن الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر. ويقولون إن الرسل والأوامر والنواهى أسباب عادية لوجود الطاعة والمعصية التى ليس للإنسان فيها دخل ولا اختيار، وإنما هى قد سبق علمه سبحانه بها فتعلقت مشيئته بترجيحها وقامت قدرته سبحانه بالتنفيذ فهو سبحانه

العالم المريد الخالق لكل شىء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وقد انقرض هذا الفريق القائل بالجبر ولم يبق منه أحد، فلا داعى للاسترسال فى الحديث معهم.

مذهب المعتزلة

يرى المعتزلة أن العبد هو الذى يوجد أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه وبذلك يصح التكليف وينتفى العبث والظلم عن الله سبحانه المترتب على نسبة أفعال العبد الاختيارية إلى الله.

أدلتهم النقلية:

يستدلون بالنصوص التى تنسب الفعل إلي العبد والتى ترتب الجزاء على الفعل وهى كثيرة صريحة كقوله سبحانه ﴿ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُم تَعمَلُون﴾سورة النحل : ٣٢ وقوله ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيْراً ﴾سورة الإنسان : ١٢.

أدلتهم العقلية:

الأفعال الاختيارية إما أن تكون مخلوقة لله أو مخلوقة للعبد ولا يصح نسبتها إلى الله لأنه يلزم على ذلك العبث فى إرسال الرسل وإنزال الكتب والأوامر والنواهى، كما يلزم الظلم لتعذيب العصاة على أفعال لم يفعلوها، وإذا انتفت نسبة الأفعال إلى الله ثبتت نسبتها إلى العبد ولا يصح نسبتها إليهما حتى لا يلزم وجود مؤثرين على أثر واحد.

مناقشة المعتزلة:

وقد اعترض على هذا الرأى بأن فيه شبه شرك بالله، إذ أثبتنا لغيره سبحانه خلقا وإيجادا، وقد ردوا هذا الاعتراض بأن خلق الله غير خلق الناس، فخلق الله إيجاد من العدم، وفعل العبد إنما هو حركات وسكنات، أو جمع وتفريق للأجزاء المخلوقة لله، وكما أن

ذاته سبحانه وصفاته ليست كذواتهم ولا كصفاتهم، وكما أنه لم تطعن ذواتهم ولا صفاتهم في وحدانيته في الذات والصفات، لا تطعن أفعالهم في وحدانيته في الأفعال.

اعتراض آخر:

فإذا قيل لهم إنه يلزم على قولكم أنه يقع في ملك الله ما لا يريده ولا يشاؤه في حين أن الله يقول ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾سورة التكوير : ٢٩ ويقول ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾سورة هود : ١٠٧ ويقول عليه السلام [ما شاء الله كان. وما لم يشأ لم يكن] وقد أجمعت الأمة على قبول هذه النصوص على إطلاقها من غير تقييد.

قالوا إن الله شاء وأراد للمكلف أن يكون مختارا، فكل ما يفعله أو يدعه يكون موافقا لمشيئة الله.

فهناك أفعال اضطرارية هي التي أرادها الله، ولا بد أن تقع بقدرته كما أرادها وإلا لكان عاجزا وهو محال. وهذه لا تكليف فيها. وهناك أمور شاء الله وأراد أن يترك فيها الحرية للناس، وكلفلهم بفعل بعضها وترك البعض الآخر بناء على هذا الاختيار، فإذا وقع الفعل أو الترك فلا يكون مخالفا لإرادته، لأن إرادته سبحانه لم تتجه إلى أحدهما بذاته حتى يكون الآخر مخالفا للإرادة.

مشيئة الله ومشيئة العبد:

فإذا قيل لهم: ماذا يحدث لو شاء العبد شيئا واختاره وأراده، ولم يشأه الله ولم يرده، هل تقع إرادة العبد أم إرادة الله؟ لا يجوز أن تكون الأولى لأنها تدل على عجز الخالق وهو محال، وإذا كانت الثانية فلا قيمة إذن لإرادة العبد واختياره.

ويستطيع المعتزلة أن يقولوا رداً على هذا: إن إرادة الله ومشيئته خاصة به، فهو سبحانه يشاء ويريد الفعل الخاص به، فإذا شاء وجود شيء وأراده وقع لا محالة، وإذا شاء عدم شيء عدم لا محالة. وهناك أشياء أخرى لم تتجه إليها المشيئة والإرادة بإيجاد أو إعدام. وإنما اتجهت الإرادة فيها إلى ترك الحرية والاختيار لفاعلها، لأنها ليست من أفعال الله، بل من أفعال العباد التي لا تشبه أفعال الله، ومع ذلك فإذا اتجهت إرادة الله إليها كانت هي النافذة، وكانت فعلا اضطراريا بالنسبة للعبد ولا تكليف عليه في هذه

الحالة. فإذا شاء العبد شيئا وشاء الله خلافه وقع ما أراده الله ولا مسئولية على العبد، لأن الفعل لم يكن باختياره وإرادته. وهنا يرتفع التكليف ويصبح ذلك الفعل اضطراريا، فمعنى قوله سبحانه ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءُ اللَّه﴾سورة التكوير : ٢٩ أى أن يشاء لكم الحرية والاختيار وإلا لسلبنا القدرة الموهوبة والاختيار الموهوب وأسقط التكليف. وكذلك يكون معنى قول الرسول [ما شاء الله كان وما لم يشا لم يكن].

ويؤيد هذا الرأى نصوص كثيرة منها قول الله ﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾سورة المائدة : ٤٨ وقوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾سورة الأنعام : ٤٨ وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾سورة الأنعام : ١٠٧ وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾سورة الأنعام : ١١٢ إلى آخر ما ورد فى هذا المعنى وهو كثير، والمعنى المتبادر أنه سبحانه وتعالى لم تتعلق إرادته ومشيئته باجبارهم على شىء بعينه ولو أراد ذلك لفعل لأنه لا يعجزه شىء، ولكنه ترك لهم الحرية والاختيار ليقيم عليهم الحجة، ولذلك لم يقبل اعتذارهم عن كفرهم وإشراكهم بأن الله لم يشاء إيمانهم، لأن إيمانهم ليس من فعله ولا تتعلق به مشيئته لأنه ترك لهم الاختيار، ومع ذلك .... فهم لم يطلعوا على علمه ولم يعرفوا مشيئته ﴿سَيَقُوْلُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾سورة الأنعام : ١٤٨.

العلم صفة انكشاف لا تأثير :

وإذا قيل لهم أليس الله يعلم كل شىء فيعلم ما سيحدثه العبد، ولا يستطيع العبد تغيير شىء، من علم الله فهو مجبور على تنفيذ معلوم الله؟.

قالوا: إن العلم صفة انكشاف لا تاثير، والمعلومات تنكشف له سبحانه انكشافا تاما سواء منه الماضى والحاضر والمستقبل، وعلمنا نوع يسير من علمه لا يشبهه، لأن علمنا حادث وعلم الله قديم. والزمن له تأثير على علمنا دون علم الله فتنكشف لنا بعض المعلومات الماضية والحاضرة، أما المستقبلة فعلمنا بها ظنى تخمينى قد يقع وقد يتخلف، وهذا من الفروق الهامة بين علم الخالق وعلم المخلوق، فعلم الخالق انكشاف حقيقى لا يتخلف، وعلمنا ظنى يتخلف، وكلاهما ليس له تأثير. فإذا علمت بأ شيئا ما سيحدث فى زمن بعينه ثم حدث كما علمت فلا تأثير لعلمك فى حدوثه، ولذلك أسقط الله حجة من تمسح فى مشيئته، علمه وقال ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾سورة الأنعام : ١٤٨فرد عليهم ذلك الرد المفحم ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِن أَنْتُمْ

إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾سورة الأنعام : ١٤٨ يوضح هذا المعنى أعظم توضيح. ما روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما حين قيل له إن أقواما يزنون ويشربون الخمر ويسرقون ويقتلون النفس ويقولون كان فى علم الله فلم نجد بداً منه فغضب ابن عمر ثم قال: سبحان الله العظيم قد كان فى علم الله أنهم يفعلون ولم يحملهم علم على فعلها -أى أن العلم ليس صفة تأثير- ثم يستدل رضى الله عنه على رأيه بما يرويه عن أبيه فيقول: حدثنى أبى عمر بن الخطاب أنه سمع الرسول يقول: [مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله. وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذلك لا يحملكم علم الله].

مذهب أهل السنة

جاء أهل السنة فوجدوا الخلاف شديداً بين الفريقين السابقين فأرادوا أن يقفوا موفقا وسطا لا إفراط فيه ولا تفريط، ليفروا بذلك من الظلم الذى يلزم مذهب الجبرية، ومن سبهة الشرك التى اتهم بها المعتزلة، فقالوا: إن للأفعال الاختيارية ناحيتين، ناحية خلقها وإيجادها وهى لله حتى لا يشاركه أحد فى الخلق والإيجاد، وناحية كسبها وهى للعبد حتى يصح تكليفه فيثاب أو يعاقب بناء على كسبه فلا يكون هناك ظلم.

قال صاحب الجوهرة مقرراً رأيهم:

فخالق لعبده وما عمل.

أدلتهم النقلية:

وقد استدلوا على رأيهم بعموم الآيات التى تنسب الخلق إلى الله وحده، وهى نفس الأدلة التى اعتمد عليها القائلون بالجبر، وزادوا عليها نسبة الكسب إلى العبد أخذا من قول الله تعالى ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾سورة البقرة : ٢٨٦ ويجعلون جميع الآيات التى استدل بها المعتزلة على نسبة العمل إلى العبد منصرفة إلى الكسب الذى يرتبون عليه التكليف والثواب والعقاب.

دليلهم العقلى:

إن الموجد للشيء لا بد أن يعرف دقائقه وتفاصيل تركيبه والخصائص المودعة فيه، فهل إذا خطا الإنسان خطوة عرف كيف تحركت أعصابه وكيف استطاع أن يقبض أو يبسط قدمه، وما مقدار تلك الخطوة وما هو أثر الوطء، وما هو كنه المادة التى وطئتها قدمه إلى غير ذلك؟ ثم إنه إذا تردد بين أمرين واختيار أحدهما فلا بد أن يكون عالما بتفاصيل كل منهما حتى يرجح أحدهما على الآخر فيقدم عليه، والواقع أن الناس جميعاً لا يدركون هذه التفاصيل ولا يستطيعون الإحاطة الكاملة بها فيثبت أنهم غير خالقين لها.

مناقشة أهل السنة:

إننا نسلم بعموم النصوص التى تثبت الخلق إلى الله سبحانه كقوله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾سورة الزمر : ٦٢ ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾سورة لقمان : ١١ ولكن الخلق المقصود هو الإيجاد من العدم وهذا فعل الله الذى اختص به سبحانه وتحدى العالم كله أن يخلق، أى يوجد من العدم شيئًا وذلك بقوله سبحانه ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ سورة الحج : ٧٣ وليس هذا محل نزاع، إنما الكلام فى الحركات والسكنات التى يأتيها العبد ويقع عليها التكليف.

أما قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْلَمُونَ﴾سورة الصفات : ٩٦ فقد جاء فى محاجة إبراهيم قومه وتعنيفهم لعبادتهم الأصنام التى ينحتونها بأيديهم مع أنها مخلوقة لله كما أنهم مخلوقون له كذلك.

ولو كان فهم أهل السنة صحيحا ومنصبا على أفعال العبد الاختيارية لكان ذلك حجة على إبراهيم عليه السلام وليس حجة له، إذ كيف يعترض على إعبادتهم الأصنام مع أن هذه العبادة من خلق الله وهذا معنى لا يستسيغه عقل.

أما دليلهم العقلى: فيرد خصومهم هذا الدليل بأن هذا الكلام إنما يقال فى الخلق بمعنى الإيجاد من العدم، وهو الذى اختص به الله، أما الخلق المنسوب للعبد من حركات وسكنات، وجمع أو تفريق المواد المخلوقة لله، فيكفى فى كل ذلك العلم الإجمالى دون التفصيلى، وعلم الإنسان-وإن لم يكن شاملا-إلا أنه كاف لتحقيق الغرض وهو المسئولية المترتبة عليه.

معنى الكسب عند أهل السنة :

إن مراحل إيجاد أى فعل تتلخص فى الآتى: إرادة ترجح الفعل، وقدرة تتعلق به، فيوجد الفعل مقارنا لتعلق القدرة به، فالمراحل التى يمر بها الفعل أربعة:

(١) إرادة (٢) قدرة (٣) فعل (٤) مقارنة بين الفعل والقدرة ثم انقسموا بعد ذلك فى الاجابة إلى فريقين فريق الأشاعرة وفريق الماتريدية.

أما الأشاعرة فيقولون: إن الكسب هو تعلق قدرة العبد الحادثة بالفعل المقدور، ومقارنتها له، أى أن الكسب هو المرحلة الرابعة وهو مقارنة القدرة للفعل، أما المراحل الثلاث الباقية فهى من خلق الله وليس للعبد فيها شيء، وقد رد خصومهم هذا التفسير للكسب بأن المقارنة أمر اعتبارى ليس له تأثير فى الفعل فلا يبعد بنا عن القول بالجبر الذى نحاول الهرب منه.

ولذلك لجأ الماتريدية إلى تفسير الكسب بأنه الإرادة الحادثة، أى العزم والتصميم، ويسقطون المقارنة الإعتبارية إذ لا قيمة لها، ويعتبرون المراحل ثلاثا فقط، فالعزم والتصميم من خلق العبد، وهو المسمى بالكسب، وهو الذى يناط به التكليف، ويرد خصومهم هذا بأن الإرادة الحادثة أو العزم والتصميم لا يخرج عن أن يكون شيئاً نسبوا إيجاده للعبد، وبذلك مالوا إلى رأى المعتزلة ووقعوا فيما حاولوا الهرب منه بإثباتهم للعبد خلقا، وإذا جاز أن ينسب إلى العبد إيجاد العزم والتصميم جاز أن ينسب إليه نفس الفعل.

الفرق بين الكسب والخلق :

فإذا قيل لفريقى أهل السنة: كيف تفرقون بين الكسب الذى أثبتموه للعبد وبين الخلق الذى تفرد به الله؟ قالوا: إن الكسب ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به، أى أن قدرة العبد سبب مباشر فحسب فى وقوع المقدور وهو الحركة التى يأتى بها، ولا تستطيع قدرة العبد الاستقلال بإحداثها ولا المشاركة فى إحداثها، سواء أكان هذا الكسب الذى يقع به المقدور هو التعلق كما يقول الأشاعرة أم الإرادة كما يقول الماتريدية.

وقد يعرفون الكسب بتعريف آخر فيقولونه: إنه ما يقع به المقدور فى محل قدرته، أى أن الكسب هو التعلق والارتباط أو الإرادة التى تقع بها الحركة فى محل القدرة كاليد

مثلا، فلا يلزم من وجود الكلسب وجود المكسوب، إذ لا يلزم من وجود الشخص وجود الحركة، فإذا وجدت الحركة لزم إتصاف الكاسب بها، لأنه هو المتحرك فيقال لمن تحرك بالركوع أو السجود راكع أو ساجد.

أما الخلق فإنه إيجاد وإبداع، ولذلك يقع به المقدور منفصلا عن محل القدرة وينفرد الخالق بالإيجاد، فليس فى حاجة إلى مشاركة أو مساعدة، ويلزم من وجود الخلق وجد المخلوق، ولا يصح اتصاف الخالق بما خلق. فالله خلق العالم وهو فى غير محل قدرته وليس متصفاً به، وإنما اتصف بأنه خالق مبدع.

مناقشة هادئة لأهل السنة:

من ذلك نرى أن رأى الأشاعرة - عند تحقيقه يلتقى - مع مذهب الجبر، ورأى الماتريدية يلتقى بمذهب المعتزلة، وإن كان كل منهما يحاول الفرار من هذين الرأيين، ولم يجد المتصفون من الأشاعرة بدأ من الاعتراف بالجبر المقنع، والتسليم به بعد أن لزمتهم الحجة، قال الشيخ الباجوري فى حاشيته على الجوهرة «وبالجملة فليس للعبد تاثير ما، فهو مجبور باطنا ومختار ظاهراً، فإن قيل: إذا كان مجبوراً باطناً فلا معنى للاختياري الظاهرى لأن الله قد علم وقوع الفعل ولا بد، وخلق فى العبد القدرة عليه. أجيب بأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل، ولذلك قال سيدى إبراهيم الدسوقى: من نظر للخلق بعين الحقيقة عذرهم، ومن نظر إليهم بعين الشريعة مقتهم، فالعبد مجبور فى صورة مختارة) اه.

فإذا ما قيل لهم: إنكم بهذا الجواب تفرون من الميدان، وتقعون فيما حاولتم الهرب منه وهو الجبر الذى يلزم عليه نسبة الظلم إلى الله، لأنه يثيب العبد أو يعذبه على شىء لم يفعله ولم يكن له إختيار فيه.

قالوا: أن الظلم معناه التعدى على ملك الغير، ونحن مملكون لله يتصرف فينا كيف يشاء دون أن يوصف بالظلم لأنه تصرف فى خالص ملكه، ثم إننا نحن الذين وضعنا هذا المقياس للظلم فقسنا الغائب على الحاضر، وفعل الله على فعل العبد هو قياس خاطىء.

ويستطيع المعترض أن يقول: إن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه، وإذا لم يكن تعذيب العبد على شيء لم يفعله ظلما، فما هو الظلم الذى نفاه الله عن نفسه بقوله ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾سورة آل عمران : ١٨٢.

واستدلالهم بقوله سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾سورة الأنبياء : ٢٣ لا يحقق غرضهم، إذ أن بقية الآية ﴿وهم يسألون﴾ تبين المقصود، فالمعنى: وهم يسألون عما يفعلون فحذف من الثانى لدلالة الأول عليه، فأفعالهم غير أفعاله سبحانه، فهو لا يسال عن فعله: لم خلق هذا؟ ولم أغنى فلانا؟ وهم يسألون: لم فعلوا كذا؟ ولم تركوا كذا؟ وهذا نتيجة التكليف.

ثم إننا نجد شارح الجوهرة بعد أن رجح رأى أهل السنة مال ثانيا إلى رأى المعتزلة دون قصد منه حين يقول «والواجب اعتقاده أن بعض أفعاله أى أفعال العبد-صادرة باختياره والبعض الآخر باضطراره لما يجده كل عاقل من الفرق الضرورى بين حركة البطش وحركة المرتعش» انتهى. ولعله يقصد بالاختيار: الكسب الذى أثبته أهل السنة على ما فيه كما مر.

ولا داعى إلى هذا الفرض الذى لا يمكن إثباته لرد شبهة الشرك، ما دمنا نعتقد أن ذواتنا وصفاتنا لا تطعن فى وحدانيته سبحانه فى الذات أو الصفات فكذلك أفعالنا لا تطعن فى وحدانيته فى الأفعال، فذواتنا وصفاتنا وأفعالنا لا تشبه ذاته ولا صفاته ولا أفعاله.

قال صاحب الجوهرة مقرراً رأى أهل السنة:

وعندنا للعبد كسب كلفا ... ولم يكن مؤثرا فلتعرفا

ثم رد على الجبرية والمعتزلة بقوله:

فليس مجبورا ولا اختياراً ... وليس كلا يفعل اختياراً

الثواب والعقاب

والوعد والوعيد

الثواب والمثوبة فى اللغة: مطلق الجزاء، ومنه قوله سبحانه ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾سورة المطففين : ٣٦ وقوله ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار﴾ سورة المائدة : ٨٥ ثم غلب فى جزاء الطاعة، وفى الاصطلاح: منفعة آجلة للطائعين.

والعقاب: العقوبة، وهى جزاء الذنب، ومنه قوله سبحانه ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾سورة النحل : ١٢٦ وقوله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾سورة آل عمران : ١١. وفى الاصطلاح مضرة آجلة للعاصين.

والوعد هو التبشير بإيصال الخير، أو بالإخبار بإيفاء الخير والثواب، والوعيد هو التهديد والإنذار بإيصال الشر والعقاب، وقد وعد الله الطائعين بالثواب، وتوعد العاصين بالعقاب.

وتضافرت النصوص على ترتيب الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار﴾سورة المائدة : ٨٥، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾سورة الكهف : ١٠٧، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾سورة الزلزلة : ٧،٨، ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾سورة الطلاق : ١١، ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأعراف : ١٤٧.

والنصوص فى ذلك كثيرة، وقد ورد إلى جانب ذلك ما أخرجه مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [قاربوا وسددوا، وأعملوا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل].

فهل دخول الناس الجنة جزاء للطاعة؟ ودخول النار جزاء للمعصية؟

وهل يستحق الناس الجنة وجوبا إذا أطاعوا، والنار وجوبا إذا عصوا؟ وماذا يكون معنى الحديث إذاً؟

والذى نفهمه فى هذا أن الله سبحانه تفضل فرتب الثواب على الطاعة ووعد بتحققه،

والعقاب على المعصية وتوعد به، بناء على التكليف الذى أرسل به رسله وجعلهم مبشرين ومنذرين.

والعقل يجيز لله سبحانه أن يفعل ما يشاء لأنه المالك الحقيقى لهذا الوجود، فله أن يثيب الطائع والعاصى، أو أن يعذبهما معاً أو أن يثيب العاصى ويعذب المطيع، فكل ذلك فى حدود قدرته، ولكنه سبحانه وعد -ووعده الحق- أن يجزى المطيع بالثواب والعاصى بالعقاب ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾سورة الزلزلة : ٧،٨، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾سورة فصلت : ٤٦.

بعد الاتفاق على هذا المعنى العام للثواب والعقاب، نجد خلافا بين أهل السنة والمعتزلة فى الإجابة عن هذه الأسئلة:

يقول الأشاعرة من أهل السنة: إن الثواب فى الآخرة فضل منه سبحانه وليس مستحقا للعباد مقابل عملهم، لأنهم فى الحقيقة لم يعملوا شيئا، والعمل كله له سبحانه ولأن النعم التى حصلوا عليها فى الدنيا تزيد عن العمل الصالح الذى قاموا به مئات المرات، فإذا أثابهم بعد ذلك فيكون الثواب بمحض الفضل، ويؤيد هذا الحديث، لن ينجو أحد منكم بعمله..الخ.

أما العقاب فى رأيهم فهو حقه سبحانه بمحض العدل فهذا الذى كفر بالنعم لا أقل من أن يعاقب على كفره، ومع ذلك فيجوز أن يعفو سبحانه فلا يعاقب العاصى، فله التصرف المطلق، لا يسأل عما يفعل، ولما كان وعده سبحانه لا يتخلف لأنه الصادق الحكيم، قلنا إن الثواب لا بد واقع، لأنه وعد كريم مبنى على الجزم والقطع، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَه﴾سورة الروم : ٦ ولأنه لو مخلف الوعد للزم الكذب فى خبره سبحانه، وخلف الوعد نقص يجب تنزيه الله عنه، أما الوعيد فيمكن أن يتخلف لأنه معلق بالمشيئة فتخلفه كرم يمدح به صاحبه إلا ما ورد القطع بعدم غفرانه كقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾سورة النساء : ٤٨.

أما الماتردية فإنهم يوافقون الأشاعرة فى أن الثواب فضل والعقاب عدل، وفى جواز تخلف الوعد والوعيد عقلا وفى وجوب وقوع الوعد شرعا، ويخالفونهم فى جواز تخلف الوعيد شرعا، فيقولون بوجوب وقوع الوعيد، حتى لا يلزم تبديل القول وقد قال الله تعالى

﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَولُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾سورة ق : ٢٩.

أما المعتزلة فيرون أن الثواب مستحق وأنه لازم الوقوع عقلا وشرعا، لأن الله تعالى أوجبه على نفسه باختياره، ووعده الحق فيقبح تخلفه وهو سبحانه منزه عن القبيح، ولو لم يعد الله به لأوجب معقل إثابة المطيع لأن ذلك مقتضى العدل.

وقد دفع المعتزلة إلى القول بالوجوب أن التكليف لا يكون عبثا، وإنما يكون لنفع آجل يعود على العباد وهو الثواب، فليس من الكرم أن ينعم الكريم ثم يكلف المشاق ردا لهذه النعم، وإنما إنعامه أولا بدون مقابل وهو قدر مشترك عن الطائع والعاصى، بل شمل الإنسان والحيوان، ثم كلف الإنسان وجعل له جزاء إن أطاع وعقابا إن عصى، وفعله وقع بقدرته الموهوبة واختياره الكامل فيكون مسئولا عنه، أما الحديث فيرون أنه حجة لهم. فأوله أمر بالمقاربة والسداد، وهما من العمل الصالح، بل هما جماع العمل الصالح فلا يكون العمل مقبولا إن لم يكن فيه سداد أو مقاربة، وقبول العمل أو رده نتيجة الإخلاص فيه أو الرياء به. وهذا أمر لا يعلمه غير الله، فقبول العمل هو تغمد صاحبه برحمة من الله وفضل، والنصوص متضافرة على إثبات هذا المعنى، وقد سبق بيان كثير منها.

أما العقاب فى رأيهم فواجب الوقوع عقلا وشرعا على الكافر ومرتكب الكبيرة الذى لم يتب، وقد أثبتت النصوص هذا العقاب بما لا يدع مجالا للشك، فالله يقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾سورة النساء : ٤٨.

ويعلق المغفرة فى الآية الأخرى على التوبة فيقول ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِم وَكَانَ اللَّهُ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴾سورة النساء : ١٧ ويقطع بعد ذلك بأن من مات عاصيا ولم يتب، أو تاب عند الغرغرة فلن تقبل توبته فيقول ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْت قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُم كُفَّار ﴾سورة النساء : ١٨ فترك عقاب العاصى لا يكون إلا عن توبة، وإلا سوينا بينه وبين المطيع وأغرينا العاصى بالمعصية، وللزم الكذب خبره سبحانه، ولتبدل القول والله يقول ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾سورة ق : ٢٩ فالوعيد واجب الوقوع شرعا، ولو لم يوجبه الشرع لحكم

العقل بوجوبه فيكون واجبا عقلا كذلك.

وقد أجاب الأشاعرة عن ذلك بأن الكريم يبنى وعده على الجزم ووعيده على المشيئة وإن لم يصرح بها، قال عليه السلام: [من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجز له، ومن أوعده على عمل عقابا فهو بالخيار إن شاء عذبه وإن شاء غفرله] ووعيد الكفار واقع لا يتخلف لأنه على القطع، وهو المقصود بعدم تبدل القول.

أما الحكماء فيرون أن الثواب والعقاب نشآ عن إيجاب ذلك على الله من غير اختيار له كما يترتب المعلول على العلة، وهولاء لا يعترفون بكمال الإله واختياره، فنقاشهم عند إثبات وجود الإله وصفاته فلا عبرة بقولهم إذن.

الخلاصة:

فأهل السنة والمعتزلة يرون وجوب تحقيق الثواب لأنه وعد كريم، ووعد الكريم لا يتخلف،أو لأنه مستحق على الطاعة أوجبه سبحانه على نفسه باختياره، وأن من مات كافراً لا بد من تخليده فى النار لصريح القرآن، وأن مرتكب الكبيرة الذى يتوب منها قبل الغرغرة تقبل توبته، أما من مات على عصيانه من غير توبة فيرى المعتزلة والماتردية أن عذابه واجب، ويرى الأشاعرة أن عذابه جائز، فيجوز أن يعفو الله عنه لأن ذلك حقه سبحانه، ثم يقع الخلاف بينهم فى الحكم العقلى، أى بقطع النظر من ورود الشرع، فيقول المعتزلة: لو لم يعد سبحانه بثواب المطيع وعقاب العاصى لكان ذلك واجبا عقلا لأنه مقتضى العدل المطلق.

ويقول أهل السنة بقسميهم: لو لم يرد وعد ولا وعيد لكان الأمران جائزين عقلا فى حقه سبحانه، فيجوز أن يعذب المطيع وأن يثيب العاصى، وليس ذلك ظلما لأنه تصرف فى ملكه.

يتبين من ذلك أن المعتزلة يقولون :الوعد والوعيد واجبان عقلا وشرعا، ويقول الأشاعرة: الوعد جائز عقلا وشرعا، والوعيد جائز عقلا وشرعا، ويقول الماتريدية: الوعد والوعيد جائزان عقلا وواجبان شرعا.

يقول صاحب الجوهرة:

ومنجز لمن أراد وعده.

إرادة الخير والشر

«علمى وأدبى»

سؤال يتردد على ألسنة كثير من الناس: هل يشاء الله الشر؟ وإذ كان يشاؤه فلم نهى عنه؟ وهل يشاء كفر الكافر وعصيان العاصى؟ وإذا كان يشاء ذلك ويريده فلم أرسل الرسل وأنزل الكتب وأمر ونهى؟ وهل كان فى مقدور العبد أن يخالف عن إرادة الله وأن يفعل غير ما أراده سبحانه؟

وقد اختلف أهل السنة والمعتزلة فى الإجابة عن ذلك بناء على اختلافهم فى خلق أفعال العبد الاختيارية.

مذهب أهل السنة:

إن إرادة الله تتعلق بكل ممكن يعلم الله وجوده فترجح هذا الوجود، أو عدمه فترجح هذا العدم، ثم تتعلق القدرة بالإيجاد أو الإعدام، وأفعال العبد الاختيارية بما فيها من خير وشر مخلوقة لله سبحانه وليس للعبد فيها إلا مجرد الكسب، فلا بد أن تكون مرادة لله، فإنه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد، وما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن، والخير فى رأيهم هو كل ما طلبه الله من عباده سواء أكان واجبا أم مندوبا، أما الشر فهو كل ما نهى عنه الله وحذر من فعله سواء أكان حرما أم مكروها، أما المباح فلا يسمى خيرا ولا شرا، وقد رأى إمام الحرمين أن المكروه ليس حسنا ولا قبيحا كذلك.

ولا يلزم من كون الشىء مراداً أن يكون مرضيا عنه، وقد يريد الله الشىء وهو راض عنه. ولذلك يأمر بالخير الذى يحبه ويرضى به، وينهى عن الشر الذى لا يحبه ولا يرضى به، وقد يريد أحدهما أو لا يريده.

فإيمان المؤمن	أمر به الله	وأراده	فوقع
وكفر الكافر	نهى عنه الله	وأراده	فوقع
وكفر المؤمن	نهى عنه الله	ولم يرده	فلم يقع
وإيمان الكافر	أمر به الله	ولم يرده	فلم يقع

فالتلازم ثابت بين الوقوع والإرادة فكل ما وقع فى هذا الوجود- سواء أكان من فعل الناس ظاهراً أم من غير فعلهم، وسواء أكان خيراً أم شراً-كل ما وقع لا بد أن يكون مرادا

له سبحانه وإلا للزم أن يقع فى ملكه ما لا يريده، وهذا من أمارات العجز التى يتنزه عنها الله سبحانه، وهذا دليلهم العقلى.

أما دليلهم النقلى فهو قوله سبحانه ﴿ فَمَن يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ. وَمَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾سورة الأنعام : ١٢٥وقوله على لسان نوح ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ وقوله سبحانه ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونَ ﴾سورة النحل : ٤٠ وقوله ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾سورة البروج : ١٦ وقوله عليه السلام [ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن] وقد أجمعت الأئمة على بقاء هذا الحديث على إطلاقه من غير تقييد.

أما قوله عليه السلام [الخير بيديك والشر ليس إليك] فالمقصود منه أن الخير من فضل إنعامه، وأن الشر لايكون قربة إليه سبحانه فإنه لايقبل إلا طيبا.

ومع أن الخلق والإيجاد لله وحده، وأن كل ما وقع بإرادته سبحانه وليس للعبد فيها إلا الكسب، فإن الأدب يقتضينان أن ننسب الخير إلى الله والشر إلى أنفسنا كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِين. وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِين وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين ﴾سورة الشعراء : ٧٨-٨٠ فنسب الخلق والإطعام والسقى-وهى خير-إلى الله، ونسب المرض-إلى نفسه تأدبا مع الله مع أن الكل مخلوق له، وكقول العبد الصالح لموسى عليه السلام ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾سورة الكهف : ٧٩ وقوله ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ سورة الكهف : ٨٢ فأضاف إرادة الشر إلى نفسه وإرادة الخير إلى الله تأدبا معه سبحانه، وقد علمنا الله هذا الأدب حيث يقول ﴿ مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾سورة النساء : ٧٩ هذا إذا أردنا التفصيل فى نسبة الأشياء أما النسبة الإجمالية فتكون إلى الله كما يقول سبحانه ﴿ ذَلِكُم اللَّهُ رَبُّكُم لَا إِلَهَ إِلَّا هُو خَالِقُ كُلِّ شَئٍ ﴾سورة الأنعام : ١٠٢ وقوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِن عِنْدِ اللَّهِ ﴾سورة النساء : ٧٨.

مذهب المعتزلة :

أما المعتزلة فيرون أن الله لا يريد الشر ولا الكفر والضلال، ويريدون بالشر : القبيح وهو ما يتعلق به الذم فى الدنيا والعقاب فى الأخرة، فيشمل المحرم فقط. ويظهر من ذلك أن الحسن عندهم ما لايتعلق به ذم ولاعقاب فيشمل الواجب والمندوب والمباح والمكروه لأن كل هذا ليس محرما.

والذى يوصف بالحسن والقبح، أو بالخير والشر إنما هو أفعال العباد الإختيارية أما أفعال الله سبحانه فكلها خير وحسن، لأنها لا يتعلق بها ذم ولاعقاب.

وهم يبنون ذلك على رأيهم فى خلق أفعال العباد الاختيارية، فالعبد هو الذى يريد أفعال نفسه، ولا يريدها له غيره، وإذا كانت قدرة الله لا تتعلق بأفعال العبد الاختيارية- كما مر-فكذلك مشيئته سبحانه لا تتعلق بحمل العبد على فعل بذاته وإنما تعقلت بترك الحرية له يفعل بإرادته واختياره ما يشاء دون تدخل من إرادة الله ومشيئته، فإذا أراد الله سبحانه شيئا وتعارض مع مشيئة العبد وقع ما أرادالله ورفع التكليف عن العبد لأنه أصبح مضطراً.

فإذا فرضنا أن أستاذاً له حرية التصرف فى فصله، ألزم تلميذا بالخروج ومنع آخر منه وترك لثالث حرية البقاء أو الخروج، فإذا خالف الأول وبقى برغم إرادة الأستاذ، وخالف الثانى وخرج برغم إرادة الأستاذ. فقد وقع فى الفصل مالا يريده، أما إذا بقى الثالث أو خرج فهل يقال إنه وقع فى الفصل مالا يريده الأستاذ؟

لقد أراد لهذا الثالث أن يتصرف بما يشاء دون أن يلزمه باتجاه معين، فإذا بقى أو خرج فلا يقال إنه وقع فى الفصل ما لا يريده، لأن إرادة الأستاذ لم تتعلق بإخراجه ولا بإبقائه.

وهذا يقرب إلينا فهم الموضوع-ولله مثل الأعلى-فالله سبحانه لم تتعلق إرادته بفعل العبد الاختيارى الذى كلفه به، بل ترك له الحرية والاختيار، تتجه إرادته إلى ما يشاء، وينفذ ما يريد فى حدود قدرته الموهوبة، ثم هو مسئول عن كل ما يفعل.

فلا تعارض إذن بين هذا المعنى وبين قوله عليه السلام ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن بل هو باق على إطلاقه وعمومه، فإذا تعلقت المشيئة بوجود شىء فلابد أن يوجد، وإذا تعلقت بمنع شىء فهو سبحانه فعال لما يريد، وهو يريد أفعال نفسه سبحانه لا أفعال غيره. فإذا أراد شيئا فلا بد أن يقع. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾سورة النحل: ٤٠ فإذا سلب الاختيار فلا تكليف ﴿وَلَو شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾سورة الأنعام: ١٠٧، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوه﴾سورة الأنعام: ١١٢، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الْهُدَى﴾سورة الأنعام: ٤٨ فهو سبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

أما قوله سبحانه ﴿فَمَن يُرِيدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَام وَمَن يُرِيد أَنْ يُضِلَّهُ

يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾سورة الأنعام : ١٢٥ ، فمعناه أن من اتجه بطبيعته وإرادته نحو الهدى والخير، فاتجه إلى الله يسأله الإ عانة على نفسه وشيطانه، عمته ألطاف الهداية وتولاه الله بالرعاية، وفتح أمامه أبواب الاستدلال على قدرته وعظمته، أما من اتجه بطبيعته وإرادته نحو الضلال والشر، فإنه لايكاد يستفيد من ألطاف الله ونعمائه، ولا يعمه الله برحمته، ولا يعينه على نفسه لأنه لم يتجه اليه ولم يؤمن به ولم يسأله العون، فيبقى قرينا للشيطان يضيق صدره عن قبول الحق، فنحن مهما أوتينا من قوة فلا نزال فى حاجة الى معونة الخالق سبحانه، ولذلك نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم، وأن يعيننا على تفهم دلائل قدرته ووحدانيته، وهو سبحانه يستجيب لمن اتجه اليه ودعاه، ولا يعقل أن يريد الله الكفر من أبى جهل ثم يأمره بالإيمان! فهذا تكليف بما لا يطاق والله يقول ﴿ لَايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾سورة البقرة : ٢٨٦ .

وكيف يريد سبحانه الكفر والشر وإرادة القبيح قبيحة، والله يتنزه عن القبيح ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾سورة الأعراف : ٢٨ ثم هو سبحانه لا يريد أن يظلم أحداً من عباده بتكليفه ما ليس فى استطاعته، ولذلك يقول ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيْدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَاد ﴾سورة غافر : ٣١ وهل هناك أشد ظلما من إرادة الكفر والمعاصى لهم، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولقد صرح سبحانه بهذا المعنى فى قوله ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾سورة الزمر : ٧ فكيف يريده ولايرضاه؟ وكيف يحملهم عليه ويحاسبهم به؟ كما يقول سبحانه ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَاد ﴾سورة البقرة : ٢٠٥ ، وإذا كان لايحبه فهو لا يريده، ولقد نسب سبحانه الشر إلى صاحبه حيث يقول ﴿ مَا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّه وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِك ﴾ سورة النساء : ٧٩، أما الحسنة التى نسبها سبحانه إليه فالمقصود بها النعمة التى أنعمها على العبد، وهى من خلقه وإيجاده سبحانه وليست من عمل العبد، فالنسبة فى الأمرين حقيقة.

وقد مال صاحب الجوهرة الى تأييد أهل السنة فى قوله:

وجائز عليه خلق الشر ... والخير كالإسلام وجهل الكفر

الفرق بين الإرادة والامر

وبين الأمر والرضا والمحبة

قلنا أن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكن. وهو الذى يقبل الوجود والعدم لذاته. والممكن الذى وجد فى هذه الدنيا يشمل أفعال العبد الاختيارية التى بها التكليف، ويشمل غيرها من الأفعال الاضطرارية أو التى لا علاقة للعباد بها فهل، تتعلق إرادة الله بجميع الممكنات وتنفذ القدرة ما رجحته الإرادة.

وقد اتفق جميع المتكلمين على أن غير أفعال العباد الاختيارية بإرادة الله. أما أفعال العباد الاختيارية فقد وقع الخلاف فى مريدها، هل هو الله أو العبد؟ وإذا كان هو العبد فهل يقع فى ملك الله ما لا يريده؟ وإذا كان هو الله فكيف يكلف العبد بشىء ليس له فيه اختيار وإرادة؟

رأى المعتزلة: أن فعل العبد بخلقه واختياره ولذلك يحاسب عليه، وأما معنى إرادة الله لفعل العبد فهو أمره به فى رأى البعض، وعلمه به فى رأى آخرين منهم، ورضاه عنه فى رأى فريق ثالث منهم.

رأى أهل السنة: أن فعل العبد بخلق الله وإرادته، وليست الإرادة هى الأمر أو العلم أو الرضا كما يقول المعتزلة، بل الإرادة مغايرة لكل ذلك.

فالأمر هو: طلب الفعل كقوله ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾سورة الإسراء : ٧٨ أو طلب الكف بغير أداة نهى كقوله عليه السلام: [دع ما يريبك إلى ما لا يريبك]، أى أترك ما تشك فيه، وهو يقابل النهى الذى هو طلب الترك بأداة النهى كقوله سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾سورة الإسراء : ٣٢ وقد يكون الأمر لفظيا كالأمثلة السابقة، وقد يكون نفسيا أى مقتضيا الطلب اللفظى، ومغايرة الإرادة للأمر اللفظى ظاهرة، وكذلك تغاير الأمر النفسى الذى يقتضى الأمر اللفظى.

والعلم انكشاف المعلومات، وهو يتعلق بالواجب والجائز والمستحيل، أما الإراده فتخصيص للممكن فلا تتعلق بالواجب ولا المستحيل، فالعلم والإرادة متغايران.

والرضا هو القبول، والمقصود برضا الله عن عبد قبوله عمله وإثابته عليه. والإرادة ترجيح فهما متغايران.

ويرى أهل السنة أن الإرادة لا تستلزم واحداً من هذه الثلاثة كما أنها تنايرها، فقد يأمر الله بشيء ولا يريده، وقد ينهى عن شيء ويريده، وقد يريد الشيء ولا يرضى عنه، فكل ما وقع فى الكون بإرادته سبحانه، وبعضه أمر به وبعضه نهى عنه، وبعضه رضى عنه، وبعضه سخط عليه، فكفر أبى جهل إراده الله مع أنه نهى عنه وهو ساخط عليه.

الرأى الصحيح: والناظر فى هذه الآراء يجد فيها ما لا ترتاح إليه النفس وإن كان حسن النية متوفراً عند الجميع، فهم يقصدون تنزيه الله سبحانه عن الشريك وعن الظلم.

فتفسير الإرادة بالأمر أو العلم أو الرضا لا يتمشى مع اللغة ولا مع نصوص الدين، وتعلق إرادة الله بفعل العبد يسلبه الاختيار الذى هو أساس التكليف.

ولو أننا قلنا إن الله وهب العبد قدرة وإرادة خاصة كلفه فى حدودها ثم أراد له أن يكون مختارا فى الطاعة أو المعصية. فيكون فعل العبد داخلا فى محيط الإرادة العامة، ولو شاء الله لسلب منه ارادته أو قدرته، وعندئذ يسقط التكليف ويشير إلى ذلك قوله سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات إلَى اللَّه مَرْجِعُكُم جَمِيْعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كَانُوا فِيه يَخْتَلِفُون﴾سورة المائدة : ٤٨ فترك للعباد الاختيار ابتلاء وامتحانا، ثم أمرهم بالمسابقة إلى الخيرات وأخبرهم بأن المرجع إليه فينبئهم بما كانوا فيه يختلفون، لو أننا قلنا هذا لما كان هناك ما يدعو إلى الخلاف العنيف بين فريقى أهل السنة والمعتزلة كما رأيت ذلك موضحاً فى أفعال العباد.

يقول صاحب الجوهرة مقرراً رأى أهل السنة:

وقدرة، إرادة، وغايرت   أمرا، وعلما، والرضا، كما ثبت

القضاء والقدر

يعتبر الإيمان بالقضاء والقدر جزءاً من الإيمان العام، كما ورد فى الحديث حينما سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ [ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره] وما روى عنه ﷺ أنه قال [لا يؤمن عبد حتى يؤمن باربعة: يشهد أن لا إله إلاالله، وأنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالبعث بعدالموت،

ويؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره] ويقول الله تعالى فى الحديث القدسى [من لم يرض بقضائى ويصبر على بلوائى فليطلب ربا سوائى].

فجعل الإيمان والرضا بالقضاء والقدر خيره وشره قرينا للإيمان بالله وملائكته....الخ، فمن كفر بشىء من هذا رد عليه إيمانه بالباقى لأن الإيمان وحدة لا تتجزأ.

فما هو القدر الذى يجب الإيمان به؟ وما هو القضاء الذى يجب الرضا به؟ وما هى العلاقة بينهما؟

لكل من اللفظين معان لغوية مختلفة نختار منها ما هو قريب من موضوعنا نقلا عن القاموس.

القدر: القضاء والحكم ومبلغ الشىء والطاقة.

القضاء: الحكم والصنع والحتم والبيان، وقضى: مات، وعليه: قتله ووطره: أتمه وبلغه.

وعلى ضوء دراستنا السابقة لأفعال العبد وآراء المختلفين فيها نعرض لموضوع القضاء والقدر وسنقصر الكلام على الاراء المشهورة فى الموضوع.

١. رأى الجبرية: إن القضاء والقدر إرادة الله وإيجاده لجميع الأشياء، وليس لغيره إرادة ولا إيجاد، بل العبد مجبر على كل ما يأتيه فهو كالريشة المعلقة فى الهواء ولله أن يتصرف فيه كيفما شاء لا يسأل عما يفعل.

٢. رأى المعتزلة: القضاء والقدر مترادفان، ومعناهما علم الله جميع الكائنات على ما تكون عليه، والعلم صفة انكشاف لا تأثير، ينكشف بها ما كان وما يكون من أفعاله سبحانه ومن أفعال العباد فكل شىء فى هذا الوجود بقضاء وقدر، أى واقع بعلم الله تبارك وتعالى فهو لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

٣. رأى أهل السنة: ينقسمون فى تعريف القضاء والقدر إلى قسمين.

أ-الأشاعرة: يقولون إن القضاء إرادة لله أزلا المتعلقة بجميع الأشياء خيرها وشرها على ما هى عليه فيما لا يزال، أى فى الواقع الحاضر، ولا فرق فى ذلك بين أفعال العباد وغيرها.

أما القدر فهو إنجاز قضاء الله وإخراجه إلى حيز الوجود، أى إيجاد الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين، فهو تعلق القدرة الحادث. فالقضاء عندهم قديم والقدر حادث.

ب- الماتريدية: يرجعون القدر إلى علم الله ويقولون: القدر تحديد الله أزلا كل مخلوق بحده الذى يوجد عليه من حسن وقبيح وخير.

ويرجعون القضاء إلى قدرة الله فيقولون: القضاء إيجاد اللّه الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان، فهو صفة فعل. فالقضاء عندهم حادث والقدر قديم.

الإيمان والرضا بالقضاء والقدر:

وقد اتفق جميع المتكلمين على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، والرضا بالقضاء كنص الحديث، ولكن كل فريق فسر الرضا والإيمان بما يتناسب مع مذهبه ورأيه.

فالجبرية يقولون: يجب الإيمان بأن اللّه سبحانه أراد جميع الأشياء والأفعال وأخرجها إلى حيز الوجود وليس لغيره فعل ولا تصرف، وإلا لكان شريكا له علينا أن نرضى بهذه التصرفات من غير تفكير فيها.

وأهل السنة بقسميهم يقولون: يجب الإيمان بأن اللّه علم وأراد جميع الموجودات وقضى بها ثم تعلقت قدرته سبحانه بها فأوجدتها على ذلك القدر المحكم، وليس للإنسان فيها إلا الكسب الذى به يثاب وعليه يعاقب.

والمعتزلة يقولون: يجب الإيمان بأن اللّه سبحانه وتعالى يعلم جميع ما فى هذا فعلمه صفة تنكشف بها جميع المعلومات على حقيقتها، ولا تأثير للعلم فى وجود شىء ما أو إعدامه. فالقضاء والقدر يرجعان فى رأيهم إلى صفة العلم.

وقد اعترض على أهل السنة بانه يلزم على قولهم الرضا بالكفر والمعاصى لأنها قضاء اللّه وقدره فى رأيهم، فعلى المؤمن أن يرضى بكفر أبى جهل وأبى لهب، وبسرقة القرشية وبعصيان العصاة، مع أن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالمعصية معصية، ونحن مأمورون بمحاربة الكفر والمعاصى وعدم الرضا بهما.

وقد أجاب السعد عن ذلك الاعتراض بأنه فرق بين القضاء والقدر وبين المقضى والمقدر، فإذا حكم القاضى على الجانى بالسجن فحكمه هو القضاء، وتنفيذ الحكم بإدخال

السجن هو المقضى، فالقضاء والقدر من الله ويجب الرضا بهما، والمقضى والمقدر نتيجة القضاء والقدر، والرضا بهما هو الكفر والمعصية، ولم يسلم ذلك الجواب من الاعتراض، فأهل السنة ينسبون الحكم والتنفيذ إلى الله، وبين القضاء والمقضى تلازم، والرضا بإحدهما يستلزم الرضا بالآخر، والرضا بالقضاء رضا بالمقضى، والرضا بالقدر رضا بالمقدر.

وقد حاول العلامة الخيالى الإجابة عن ذلك الاعتراض بأن الكفر والمعاصى لهما جهتان، جهة كونهما مقضيين ومقدرين لله وجهة كونهما مكتسبين للعبد فيجب الرضا بهما من الجهة الأولى لا من الثانية.

وقد اعترض على هذا الجواب بأنه يلزم عليه التناقض فى الحكم على الأمر الواحد بالرضا وعدم الرضا، وهو مبنى على إثبات الكسب للعبد وقد علمت ما فيه.

ومع ذلك فأهل السنة لا يجيزون الاحتجاج بالقضاء والقدر للتوصل إلى عمل المعصية، ولا للتخلص من المعصية بعد الوقوع فيها، فلى يجوز لمن يريد أن يسرق أو لمن سرق بالفعل أن يحتج بالقضاء والقدر ليتهرب من تنفيذ الحد أما الاحتجاج بعد الوقوع لدفع اللوم والتأنيب فلا بأس به كما سيأتى فى حديث آدم مع موسى عليهما السلام.

وقد اعترض على رأى المعتزلة كذلك بأنه لا معنى للرضا بالعلم، وقد جعل الرضا بالقضاء شرطا فى قبول الإيمان، والرضا يقابل التسخط ولا بد أن يكون نتيجة اختبار وابتلاء بشىء قد يصعب على العبد تحمله فيصبر المؤمن ويحتسب أجره على الله، ويتسخط الكافر ولا يرضى بقضاء الله.

رأى وسط:

والذى يتفهم روح التشريع يدرك-كما مر-أن أفعال العباد الاختيارية غير الاضطرارية وغير ما يجرى فى هذا الكون من شئون لا دخل للإنسان فيها، وأن الله سبحانه وتعالى يصرف هذا الوجود بحكمته وأنه كلف الإنسان فى حدود قدرته الموهوبة، ثم هو سبحانه يختبره بأمور لا سلطان له عليها حق حتى يتبين للناس من يفوز فى هذا الاختبار ومن يسقط ﴿وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ائْذَنْ لِّى وَلَا تَفْتِنِّى أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾سورة التوبة : ٤٩، ﴿ألم. أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يَتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَا يُفْتَنُون﴾سورة العنكبوت : ١-٢ وليست الفتنة قاصرة على الشدائد والمصائب بل قد تكون الفتنة بالنعمة كذلك قال سبحانه ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾.

ونجاح العبد فى الفتنة، إنما يكون بصبره ورضاه، فقضاء الله نافذ لا محالة، ويتفاوت الناس فى تلقيه ما بين راض به صابر عليه وبين متسخط عليه ضائق به، وهذه هى ثمرة التكليف.

والنصوص الكثيرة الواردة فى وجوب الإيمان والرضا بالقضاء والقدر أغلبها يدل على أن المقصود بالقدر العلم وبالقضاء والإرادة والإيجاد.

فالقدر مقصود به العلم، وهو صفة انكشاف لا تأثير فيشمل أفعال الله وأفعال العبد الاضطرارية والاختياريه فكل ذلك معلوم لله.

والقضاء مقصود به الإرادة والإيجاد، وهو خاص يغير أفعال العباد الاختيارية التى يكلفون بها ويحاسبون عليها، بل يكون القضاء فى الأفعال الاضطرارية التى لا سلطان لنا عليها، وإنما نحاول دفعها وتخفيف حدتها، ولذلك ورد فى الدعاء اللهم لانسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه فالقدر على هذا أعم من القضاء لأن القدر بمعنى العلم يتعلق بجميع الموجودات، لا فرق بين أفعال العباد وخلق الله سبحانه وتعالى، أما القضاء فهو ابتلاء من الله سبحانه للعبد وليس للعبد فيه اختيار.

بعض النصوص التى على أن القدر العلم

ما أخرجه الترمذى عن أبى خزامة أن رجلا سأل النبى عليه السلام فقال: يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به تقاة نتقيها هل ترد من قدر شيئاً؟ فقال عليه السلام هى من قدر الله. وما رواه أبو داود عن ابن عمر أن رجلا من مزينة أو جهينة سأل رسول الله عليه السلام فقال:

يا رسول الله فيم نعمل؟ أفى شىء قد خلا ومضى أم فى شىء يستأنف الآن؟ قال فى شىء قد خلا ومضى، فقال الرجل أو بعض القوم: ففيم نعمل؟ قال: إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة وإن أهل النار ييسرون لعمل أهل النار. وما ورد فى الحديث الصحيح أن روح آدم التقت مع روح موسى عليهما السلام فقال موسى لآدم أنت أبو البشر الذى كنت سببا لإخراج أولادك من الجنة بأكلك من الشجرة، فقال آدم فأنت الذى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده تلومنى على أمر قد قدره على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة.

قال النبي عليه السلام: فحج آدم موسى، أى غلبه بالحجة. وكان آدم يرى أن موسى قد تجاوز حده فى اللوم والحساب وهما من خصائص الله سبحانه، أو أن موسى قد فاته أن الجنة ليست دار تناسل وتوالد فكان لا بد من هذا لتعمير الكون، وبذلك الفهم غلب آدم موسى بالحجة، وما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كنا فى جنازه فى بقيع الغرقد فجاء رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ثم رفع رأسه فقال: ما منكم من أحدما منكم من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتب شقية أوسعيدة. قال: فقال رجل : يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة؟ فقال عليه السلام: اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾سورة الليل : ٥-١٠ فالتيسير للحسنى أو للعسرى مترتب على التصديق والعمل الصالح، أو التكذيب والعمل الصالح. وحديث يحيى بن يعمر مع عبد الله بن عمر السابق يدل على فهم ابن عمر لمعنى القدر بأنه العلم.

بعض النصوص التى تفسر القضاء بالإرادة والإيجاد

ما ورد فى الدعاء: [اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه]. وقوله عليه السلام: [المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان]. فقد أمر عليه السلام بالحرص على ما ينفع والاستعانة بالله، وعدم الركون إلى الكسل والخمول، ثم روض نفس المؤمن على احتمال المكار، ومجابهة المصائب والبلايا بالرضا والصبر وعدم الاندفاع وراء الخيال والتفكير فى الماضى الذى لا يمكن تغييره إلا بقدر ما يأخذه منه العبرة للمستقبل. فالرضا بالقضاء والقدر لا ينافى الأخذ بالأسباب بل يدفع إليها ويحث عليها.

هل يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر

ولا يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر لارتكاب الموبقات وفعل السيئات، فكفر الكافر وعصيان العاصي وإيمان المؤمن وطاعة المطيع إن صح جعلها من القدر بمعنى العلم فالعلم صفة انكشاف لا تأثير، فلا يصح جعلها من القضاء لأنها صادرة باختيار العبد وإرادته، ولذلك كان مسئولا عنها. وإنما القضاء فيما خرج على إرادة العبد ولم يخضع لسلطانه ولذلك لم يقبل الله الاحتجاج من الكافرين بمشيئته وقضائه ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾سورة الأنعام : ١٤٨،١٤٩ ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾سورة النحل : ٣٥. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾سورة الزخرف : ٢٠.

رؤية الله تعالى

«علمي»

يقول الله تبارك وتعالى وصفا للمؤمنين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة : ٢٢-٢٣ ويقول سبحانه في شأن الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾سورة المطففين: ١٥ ويقول عليه السلام مبشرا للمؤمنين إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر.

فما هو المقصود بالرؤية؟ وما هي الآلة التي تقع بها؟ وهل هي بالنسبة الى الله تعالى أمر جائز الوقوع؟ وإذا كان جائزا فهل وقع بالفعل أو سيقع في وقت ما؟ وبأي كيفية يكون ذلك الوقوع؟

أما للمقصود بالرؤية فهو انكشاف المرئي انكشافاً تاماً، والآلة التي تقع بها هي حاسة البصر التي أودعها الله في الكائنات الحية فيرى بعضها بعضا، ولكن هذه الرؤية بين الحوادث تخضع لشروط عادية، فلا بد أن يكون المرئي مقابلا الرائي وعلى بعد خاص وأن يكون له جسم وحجم..

والله سبحانه وتعالى يرى جميع مخلوقاته فهو السميع البصير. أما المخلوقات فرؤيتها لله تعالى محل خلاف بين المعتزلة وبين أهل السنة.

رأى المعتزلة :

يرى المعتزلة أن رؤية الله تعالى مستحيلة عقلا، وهي- بناء على رأيهم- لم تقع ولن تقع أبدا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وقد استدلوا على رأيهم هذا بأدلة عقلية ونقلية:

دليلهم العقلى: إن الرؤية تحتاج إلى مسافة وجهة ومقابلة بين الرائى والمرئى ويلزم من ذلك أن يكون المرئى جوهراً أوعرضا، وأنه فى جهة، وأنه يشغل حيزا من الفراغ... الخ، وهذا كله مستحيل بالنسبة لله الذى ليس كمثله شيء، فاستحال ما أدى إليه وهو الرؤية.

الدليل النقلى: يقول الله تعالى ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَار وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَار﴾سورة الإنعام : ١٠٣ فإدراك البصر إذا كان هو الرؤية فقد نفاه الله عنه، لأنه نقص فى حقه، وإذا كان لازم الرؤية فنفى اللازم نفى للملزم، ففيه نفى للرؤية كذلك، وقد نفى الله رؤية الأبصار لأنها نقص، فإثباتها يكون مستحيلا عليه، ويستدلون كذلك بقول عائشة وضى الله عنها [من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية] ولو لم تكن الرؤية مستحيلة بالنسبة إلى الله لما جعلتها فرية عظيمة.

أما الآيات والأحاديث التى يدل ظاهرها على جواز الرؤية فيجب صرفها عن هذا الظاهر وتأويلها بما لا يتعارض مع الدليل العقلى والنقلى، وذلك بتقدير مضاف وهو الرحمة أو النعمة فى مثل قول الله ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة : ٢٣ أى إلى نعمة أو رحمة ربها، وكذلك ﴿كَلَّا إِنَّهُم عَن رَبِّهِم يَومَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾سورة المطففين : ١٥ أى عن نعمة أو رحمة ربهم.

رأى أهل السنة :

أما أهل السنة فقد رأوا أن رؤية الله تبارك وتعالى جائزة عقلا وشرعاً، لأنها داخلة فى حدود الممكن، ولا يترتب على إثباتها مستحيل ولا نقص حتى تكون مستحيلة وعليه سبحانه.

دليل العقلى: إن الله موجود، وكل موجود يجوز أن يرى، فالله يجوز أن يرى.

أدلتهم النقلية:

١- يقول سبحانه في حق المؤمنين يوم القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة : ٢٢،٢٣ وهذا نص في تكريم المؤمنين يوم القيامة بالنظر إلى ربهم، وحمل النظر على النتظار و«إلى» على أنها اسم مفرد «آلاء» بمعنى النعم والمعنى ينتظرون آلاء ونعم ربهم- كما يقول الجبائي- بعيد عن أسلوب القرآن البليغ.

وهذه الآية تفسر قول الله ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُون﴾سورة المطففين : ٣٥ أي ينظرون وجه ربهم، كما تفسير قوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾سورة اليونس : ٢٦ فالزيادة هي الرؤية كما قال ذلك جمهور المفسرين.

وقد أثبت السنة الرؤية في الآخرة بما لا يقبل الشك، كقوله عليه السلام [إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر] أي أن الرؤية ستكون واضحة كرؤية القمر ليلة البدر.

ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة، وصرفها عن ظاهرها بتقدير مضاف أو ما شابه ذلك، لأن حمل الأسلوب على الحقيقة أولى من حمله على المجاز مادامت الحقيقة ممكن.

٢- يقول الله حكاية عن كليمه موسى عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي...الآية ﴾سورة الأعراف : ١٤٣ فقد سأل موسى ربه الرؤية، ولو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها عليه السلام، فإنه رسول يعلم الواجب والجائز والمستحيل في حق الله، وسؤاله المستحيل لا يكون إلا عن غفلة أو جهل. وكلا هما مستحيل على الأنبياء، ولا يجوز أن نقول: إنما سألها ليبين لقومه أنها مستحيلة كما يقول المعتزلة، فإنه يكفي أن يخبر قومه باستحالتها، ثم إنه عند السؤال لم يكن معه أحد من قومه ليشهد هذا، فقد كان عليه السلام يسأل لنفسه، لأنه يريد أن ينال منزلة المشاهدة بعد أن نال منزلة المكالمة، والمشاهدة أعلى منازل الإدراك.

وفي الآية دليل آخر على جواز الرؤية: فإن الله سبحانه علق الرؤية على أمر جائز وهو استقرار الجبل، وكأن الله يقول لموسى، إنك لن تقوى على المشاهدة ولن تتحمل هذا التجلي، وسأجري أمامك تجربة على الجبل، وهو أقوى منك وأكثر تحملا، فإن تحمل الرؤية واستقر أمام التجلي الأعظم، كان من الممكن أن تجاب إلى طلبك، وأن تنال هذه الأمنية، وقد أجريت هذه التجربة فعلا، وتجلى الله للجبل فاهتز ولم يقدر على مشاهدة الجلال العظمة وأصبح دكا، وخر موسى من هول ما أصاب الجبل- صعقا، فماذا كان يصنع موسى

لو أن التجلى كان له؟.

الرد على أدلة المعتزلة:

أما قوله سبحانه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾سورة الأنعام : ١٠٣ الذى تمسك به المعتزلة فهو حجة لنا لا علينا، فالإدراك معناه الإحاطة الشاملة ومعرفة الدقائق لا مطلق الرؤية، ونحن لا نقول به، لأن الإدراك بمعنى الأحاطة مستحيل بالنسبة اليه سبحانه، وهو المنفى فى الآية، ولا يلزم من نفى الأخص نفى الأعم، ولنا نقول إن «أل» فى الأبصار العموم، وتقدم النفى على العموم، يفيد سلب العموم، فالمعنى: لا تراه جميع الأبصار، بل يراه البعض دون البعض وهو مذهبنا.

وأما دليلهم العقلى وهو أن الرؤية تحتاج إلى مسافة وجهة.....الخ، فقد حملهم على ذلك قياسهم الغائب على الشاهد، فهذه كلها شروط عادية أودعها الله فى الكائنات، وجعل رؤية الأحياء مشروطة بها، وكان من الممكن أن يودع فى الكائنات شروطا أخرى، أو أن يجعل الرؤية بغير شروط أصلا، فكل ذلك مقدور له سبحانه.

فرؤية الله إذن لا تخضع لهذه القوانين الطبيعية، من الحيز والمكان والجهة، بل يمكن أن تكون بغير كيف ولا انحصار، بأن يخلق الله قوة فى الرائى يرى بها ذاته سبحانه من غير حدود ولا انحصار.

هل الخلاف لفظى أم حقيقى ؟

والحق أن رأى المعتزلة هنا ضعيف، وأن أدلتهم منقوضة، ولو نظروا إلى الموضوع من نفس الزاوية التى نظر اليه منها أهل السنة لوافقوهم على الجواز، وذلك بأن لا يحكموا القوانين العادية التى تجرى فى هذه الدنيا، فلا يقيسوا الغائب على الشاهد، وهذه يرجح أن الخلاف لفظى، وقيل أن الخلاف حقيقى لأنه منصب على جواز الرؤية بالأبصار وعدم الجواز.

وقوع الرؤية فى الدنيا:

أما وقوع الرؤية فى الدنيا فلم يثبت لأحد من الأنبياء المرسلين السابقين على نبينا عليه السلام، أما ثبوته لنبينا عليه السلام أثناء المعراج فقد اختلف فيه الصحابة رضوان الله عليهم. فمنهم من أثبته كابن عباس الذى روى عنه أنه عليه السلام رأى ربه بعينه، وفى رواية أخرى أنه رآه بقلبه، والأولى أشهر، ويقول رضى‌الله عنه: إن الله اختص موسى

بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمد بالرؤية، وحجة ابن عباس فى ذلك قول الله ﴿مَاكَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾سورة النجم : ١١ وإعادة الضمائر فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ..الآية﴾ سورة النجم : ٨ اليه سبحانه، كما يفسر ذلك حديث أنس الذى أخرجه البخارى وفيه يقول: ثم دنا رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى اليه فيما أوحى خمسين صلاة.

أما عائشة رضى الله عنها فكانت ترى أنه عليه السلام لم ير ربه فى الدنيا، وكانت تقول: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وكانت تستدل على رأيها بقوله سبحانه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾سورة الأنعام : ١٠٣ وتصرف قوله﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾سورة النجم : ١١ إلى رؤية جبريل عليه السلام.

وقد تابع ابن عباس فى رأيه كثير من الصحابة، كما تابع عائشة آخرون، وتوقف سعيد بن جبير ومن تابعه عن القطع بأحد الرأيين فقال: لا أقول رآه أو لم يره، لأنه خشى أن يقطع فى أمر غيبى لم يرد فيه نص صريح، وهذا هو الحق كما يقول القاضى عياض: إن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا وليس فى العقل ما يحيلها، وليس فى الأيات نص فى المنع، وأما وجوبها لنبينا عليه السلام والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص.

وقوع الرؤية فى الآخرة:

أما تحقق الرؤية فى الآخرة وثبوتها للمؤمن فى الجنة، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك فقد قال سبحانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة : ٢٢،٢٣ وقال ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾سورة المطففين : ٣٥ وجاءت السنة لتبين القرآن الكريم، فقد أخرج مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال: إذا دخل أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزوجل، وفى رواية ثم تلا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾سورة يونس : ٢٦ وقال عليه السلام: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وهذا صريح فى وقوع الرؤية فى الجنة.

ويقابل تكريم المؤمنين برؤية ربهم حرمان الكفار من الرؤية، وذلك قوله سبحانه فى حق الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾سورة المطففين : ١٥ أى ممنوعون من النظر

إلى ذاته العلية، ومن التمتع بما خص به المؤمنين الذى جعل لهم الحسنى وزيادة. وكل دليل يثبت وقوعها يعتبر دليلا على جوازها عقلا، ولا داعى لصرف النصوص عن ظاهرها.

رؤية الله مناما :

وهذا الخلاف فى الرؤية حالة اليقظة. أما الرؤية مناما فهى انكشاف ومشاهدة بالقلب لا بالعين، وقد وقعت الرؤية بهذه الصورة لكثير من الصالحين، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير عما شاهدوه، وإنما وقع فى قلوبهم إنهم رأوا الله.

وقد يعترض باحتمال أن يكون هذا من تمثيل الشيطان، ويرد بأنه قد ورد أن الشيطان لا يتمثل بالنبى عليه السلام بنص الحديث [من رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لا يتمثل بى].

وإذا كان الشيطان لا يتمثل بالرسول عليه السلام، فمن باب أولى لا يتمثل بالله سبحانه، وإن كان بعض العلماء يجعل هذه من خصائص الرسول عليه السلام، أما تمثل الشيطان بالله فمحتمل والذى يراه يقطع بكذبه، لأنه يراه على صورة الحوادث، والله سبحانه ليس كمثله شىء.

كلمة ختامية

لقد حاولت، فى هذا الكتاب، تبسيط المعلومات حتى تكون سهلة المأخذ قريبة الفهم، وكنت أستلهم القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأقوال علماء الأمة السابقين، لأصل إلى تركيز العقائد الإسلامية، فى نفوس المؤمنين، فإن أكن قد وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كانت الأخرى فإنى ألتمس العفو والمغفرة، وشفيعى أننى بذلت غاية جهدى وأخلصت ما استطعت نيتى.

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه، وأن ينفع به طلاب العلم، وأن يدخر لى ثوابه يوم ألقاه سبحانه بقلب سليم.

وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والحمدلله رب العالمين

توضيح التوحيد

من تحفة المريد على الجوهرة
والفرق الاسلامية

الجزء الثالث

لطلبة الثالثة الثانوية بالمعاهد الأزهرية

أدبى وعلمى بشعبتية

طبقا للمنهج المعدل لسنة ١٩٧٦

تأليف

حسين محمد المصرى

وكيل معهد الاسكندرية الدينى

حقوق الطبع محظوفة

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

منهج التوحيد

للصف الثالث الثانوى ((أدبى))

١- الإلهيات: القضاء والقدر، آراء العلماء فى مفهوم كل منهما، حكم الإيمان بهما، بيان أن الإيمان بهما لا يلتزم الرضا بالمعاصى، ولا ينافى الأخذ بالأسباب، حكم الاحتجاج بالقضاء والقدر لدفع اللوم أو الحد، رؤية الله تعالى ، آراء العلماء فى حكمها، أدلة كل رأى، ترجيح المختار منها.

٢- النبوات : إرسال الرسل، حاجة البشر إلى الرسالة، الوحى، أنواعه، إمكان وقوعه ، ما يجب للرسل من الصفات ، معنى كل صفة، ودليل وجوبها لهم عليهم الصلاة والسلام، الرسالة منحة أم اكتساب، آراء العلماء فى حكم إرسال الرسل، الفرق بين النبى والرسول، المعجزة، معناها، حكمها، شروطها وجه دلالتها على صدق الرسول، عصمة الأنبياء، دليلها، بيان الآيات التى يوهم ظاهرها عدم عصمة الأنبياء، معجزات النبىﷺ، حكم منكرها، معجزة القرآن، الدليل على أن القرآن معجزة، القدر الذى يحصل الإعجاز منه، جهة إعجاز القرآن، الإسراء والمعراج، انشقاق القمر، حنين الجذع، رد عين قتادة ، شهادة الضب، نبوته ﷺ، الكرامة، رسالة النبى ﷺ، عمومها، ختمها للرسالات، مع الأدلة المثبتة لها.

ملاحظة : تدرس جميع جزئيات الموضوع الموجودة بالكتاب المقرر وهو حاشية البيجوري على الجوهرة.

منهج التوحيد

للصف الثالث الثانوى ((القسم العلمى بشعبتيه))

دروس واحد فى الأسبوع

١- النبوت : حاجة البشر إلى الرسالة، الوحى، أنواعه، إمكانه ووقوعه، ما يجب للرسل إجمالا وتفصيلا من الصفات، معنى كل صفة ودليل وجوبها لهم عليهم الصلاة والسلام الرسالة منحة أم اكتساب. المعجزة، معناها، حكمها، شروطها، وجه دلالتها على صدق الرسول، عصمة الأنبياء ودليلها. بيان الآيات التى يوهم ظاهرها عذم عصمة الأنبياء. معجزات النبىﷺ، حكم منكرها، معجزة القرآن، الدليل على أن القرآن معجزة، القدر الذى يحصل الإعجاز، جهة إعجاز القرآن، الإسراء والمعراج. رسالته ﷺ، عمومها، ختمها للرسالات، مع الأدلة.

السمعيات : الملائكة، عصمتهم، رد الشبه الواردة عليها، التفاضل بين الأنبياء، الجن.

ملاحظة : تدرس جميع جزئيات الموضوع الموجودة بالكتاب المقرر وهو حاشية البيجوري على الجوهرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

إلى الإخوة الطلبة الأعزاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد تم بحمد الله وتوفيقه إعادة طبع كتاب العقيدة: "توضيح التوحيد من تحفة المريد على الجوهرة" المنشورة من المكتبة الأزهرية للمؤلف: "حسين محمد المصري"، والذي تم تحت إشراف جمعية معهد تحفيظ القرآن: "دار القرآن".

فيسسرنا نحن المشاركين القائمين بالتصحيح والتدقيق في مراجعة إعادة طباعة الكتاب وإنجاز هذا العمل، أن نقدم لإخواننا الطلبة والطالبات هذا الكتاب في صورة جديدة أكثر وضوحًا ودقة في الخط، لغرض اليسر والسهولة للجميع، مع الحفاظ على المضمون الأساسي لكتاب العقيدة: "توضيح التوحيد"، مع الإشادة بأنه لم يحدث أي تغيير عما في الكتاب الأصلي من حيث المنهج أو الموضوع، أو المحتوى. إلا أن فيه إضافة جديدة وهو بيان مصدر الآية للأدلة المذكورة في الكتاب من حيث اسم السورة ورقم الآية، وذلك لغرض السهولة للرجوع إلى تفسير معنى الآيات.

ونتمنى أن يكون هذا الإنجاز موفق وناجح بإذن الله، بالرغم من الصعوبات التي قد واجهناها خلال القيام بهذا العمل منذ البداية حتى نهايته من حيث الجهد والوقت، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وأخيرا لا ننسى إن نقدم أسمى آيات الشكر والعرفان لكل من ساهم في إنجاح هذا العمل، وأخلص الأمنيات، لتحقيق الفائدة والسهولة لقاريء هذا الكتاب كمرجع أساسي لدراسة مادة العقيدة الإسلامية. ولا نرجو منه سوى وجه ورضوانه علينا....

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الأعضاء المشاركين بالتصحيح والتدقيق في إعادة طبع كتاب العقيدة:

١. الأستاذ محمد عدلين صالح
٢. الأستاذ عبد الملك بن
٣. الأستاذة آسية عبد الرحمن جافاكيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، بديع السموات والأرض الحكيم الخبير، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، بيده الملك والملكوت، منزه عن الشريك، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير، منفرد بالخلق والإيجاد، يعز من يشاء ويذل من يشاء لحكم يعلمها﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَا عِبِيْن، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ﴾ سورة الدخان : ٣٨،٣٩.

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، البشير النذير المؤيد بالمعجزات.

وبعد : فقد رأيت الاختلاف كثيراً والتطاحن شديدا بين علماء الكلام فى موضوع أفعال العباد وما يتفرع عليه من الثواب والعقاب والقضاء والقدر وغير ذلك، ورأيت الطلاب فى حيرة من أمرهم تجاة هذه المواضيع. فحفزنى ذلك لكتابة هذه الرسالة شاملة لمقرر السنة الثالثة الثانوية بالأزهر والمعاهد، حسب المنهج المعدل فى سنة ١٩٦٨ راجياً الله سبحانه أن يعيننى على إتمامها وأن يجعلها خالصة لوجهه، وأن ينفع بها إنه سميع مجيب الدعاء.

وقد كان إقبال الطلاب على الطبعات السابقة حتى نفذت سريعاً دليلا على وصولها إلى قلوب القراء ونفعهم بها : ومشجعاً على بذل أقصى جهد حتى تخرج هذه الطبعة وافية بالغرض، فلله الحمد والمنة.

حسين محمد المصرى
المدرس بمعهد الاسكندرية الأزهرى

يعتبر الإيمان بالقضاء والقدر جزءاً من الإيمان العام كما ورد فى الحديث حينما سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ: ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره وما روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربعة : يشهد أن لا إله إلا الله، وإنى رسول الله بعثنى بالحق، ويؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره. ويقول الله فى الحديث القدسى : من لم يرض بقضائى ويصبر على بلوائى فليطلب رباً سوائى.

فجعل الإيمان والرضا بالقضاء والقدر خيره وشره قريناً للإيمان بالله وملائكته.... الخ فمن كفر بشئ من هذا رد عليه إيمانه بالباقى، لأن الإيمان وحدة لا تتجزأ.

نبذة تاريخية :

البحث فى القضاء والقدر ليس ابن اليوم، ولكنه قديم منذ أدرك الناس الخير والشر وبحثوا عن أعذار لأخطائهم. فالتمسوا تلك الأعذار فى نسبة الأفعال إلى القضاء والقدر، سواء منهم أصحاب الأديان أم الوثنيون. وجاء الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وليدفعهم إلى العمل المثمر، فربط نجاتهم بالعمل الصالح، وشقاوتهم بعمل الشر فقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُوْلُهُ وَالْمُؤْمِنُون ......﴾ سورة التوبة : ١٠٥.

فهم المسلمون الأولون روح الإسلام الحقيقيه، وتوجيهه الصحيح، فاتجهوا نحو العمل، وتركوا الجدال فيما لا ينفع، وشغلوا بالعمل لخيرى الدنيا والآخرة.

ولكن هذه الحال الطيبة لم تستمر فترة طويلة. إذ لم تكد تتسع رقعة الإسلام، وتنتشر تعاليمه حتى دخل فيه الناس أفواجا، وكان منهم أصحاب العقائد القديمة الفاسدة، الذين ابتدعوا ينفشون سمومهم، ويبثون بين الناس شبهاتهم، فلم يجد المخلصون بداً من أن يدحضوا العقائد الفاسدة، ويبطلوا الشبهات المثارة، فابتدأ الجدال، وكان من أهم ما تنازع فيه الناس واختلفت فيه الآراء موضوع القضاء والقدر، أخرج الخمسة إلا البخارى عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى.

فما هو القدر الذى يجب الإيمان به ؟ وما هو القضاء الذى يجب الرضا به وما هى العلاقة بينهما ؟

لكل من اللفظين معان لغوية مختلفة نختار منها ما هو قريب من موضوعنا نقلا عن القاموس.

القدر : القضاء، والحكم، ومبلغ الشئ، والطاقة.

القضاء : الحكم والصنع، والحتم، والبيان، وقضى : مات، وعليه : قتله، ووطره : أتمة وبلغه.

وعلى ضوء دراستنا السابقة لأفعال العباد وآراء المختلفين فيها نعرض لموضوع القضاء والقدر وسنقصر الكلام على الآراء المشهورة فى الموضوع.

(أ) القدرية الأولى : هم أصحاب معبد الجهنى أول من أثار الكلام فى هذا الموضوع، وزعم أن علم الله لم يسبق وجود الأشياء وقال هذه المقالة الشنيعه : أن الأمر أنف، أى يستأنف الله علم الأشياء عند حدوثها، وهو قول باطل، لأنه ينسب إلى الله سبحانه الجهل بالأشياء قبل حدوثها، وأن أفعاله ليسْت عن علم ولا تدبير سابق؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ومع أنهم ينفون العلم عن الله سبحانه، فأنهم يثبتونه لأنفسهم فيقولون إن الإنسان هو الذى يقدر أعمال نفسه بعلمه، ويتوجه إليه بإرادته، وينفذها بقدرته، والله لا يعلمها إلا بعد وقوعها فضلا على أن يكون لإرادته أو لقدرته دخل فى إحداثها!، وهؤلاء كفار بلا خلاف، كما يدل عليه كلام ابن عمر حين سأله يحيى بن يعمر فقال : يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتفقرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف. فقال : إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم براء منى، والذى يخلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ..... الخ . (رواه الخمسة إلا البخارى).

وقد انقرض أشياع هذا المذهب ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه.

(٢) الجبرية : إن القضاء والقدر إرادة الله وإيجاد لجميع الأشياء وليس لغيره إرادة ولا إيجاد، بل العبد مجبر على كل ما يأتيه، فهو كالريشة المعلقة فى الهواء، ولله أن يتصرف فيه كيفما شاء لا يسأل عما يفعل.

(٣) المعتزلة : القضاء والقدر مترادفان ومعناهما علم الله جميع الكائنات على ما تكون عليه، والعلم صفة انكشاف لا تأثير، ينكشف بها ما كان وما يكون من أفعاله

سبحانه ومن أفعال العباد ، فكل شئ فى هذا الوجود بقضاء وقدر ، أى واقع بعلم الله تبارك وتعالى فهو لا يغيب عنه شئ فى الأرض ولا فى السماء.

(٤) أهل السنة : ينقسمون فى تعريف القضاء والقدر إلى قسمين :

أ- الأشاعرة : يقولون إن القضاء هو إرادة الله أزلا المتعلقة بجميع الأشياء خيرها وشرها على ما هى عليه فيما لا يزال، أى الواقع الحاضر ، ولا فرق فى ذلك بين أفعال العباد وغيرها.

أما القدر فهو إنجاز قضاء الله وإخراجه إلى حيز الوجود ، أى إيجاد الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين، فهو تعلق القدرة الحادث، فالقضاء عندهم قديم والقدر حادث.

ب- الماتردية : يرجعون القدر إلى علم الله ويقولون : القدر تحديد الله أزلا كل مخلوق بحده الذى يوجد عليه من حسن وقبح ونفع وخير.

ويرجعون القضاء إلى قدرة الله فيقولون : القضاء إيجاد الله الأشياء مع زيادة الاحكام والإتقان فهو صفة فعل ، فالقضاء عندهم حادث والقدر قديم.

وقد اتفق جميع المتكلمين على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره والرضا بالقضاء كنص الحديث، ودليل هذا الوجوب سمعى وهو ما مر من نصوص، وكذلك عقلى لأن القضاء والقدر يرجعان لصفات الله التى ثبتت بالدليل العقلى، ولكن كل فريق فسر الرضا والإيمان بما يتناسب مع مذهبه ورأيه.

فالجبرية يقولون يجب الإيمان بأن الله سبحانه اراد جميع الأشياء والأفعال وأخرجها إلى حيز الوجود ، وليس لغيره فعل ولا تصرف، وألا لكان شريكا له؛ وعلينا أن نرضى بهذه التصرفات من غير تفكير فيها.

وأهل السنة يقسميهم يقولون : يجب الإيمان بأن الله علم وأراد جميع الموجودات وقضى بها ، ثم تعلقت قدرته سبحانه بها فأوجدتها على ذلك القدر المحكم، وليس للإنسان فيها إلا الكسب الذى به يثاب وعليه يعاقب.

والمعتزلة يقولون : يجب الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى يعلم جميع ما فى هذا الوجود، فعلمه صفة تنكشف بها جميع المعلومات على حقيقتها، ولا تأثير للعلم فى وجود شئ ما أو إعدامه، فالقضاء والقدر يرجعان فى رأيهم إلى صفة العلم.

وقد اعترض على أهل السنة بأنه يلزم على قولهم : الرضا بالكفر والمعاصى لأنها من قضاء الله وقدره فى رأيهم، فعلى المؤمن أن يرضى بكفر أبى جهل وأبى لهب وبسرقة القرشية وبعصيان العصاة، مع أن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالمعاصى معصية، ونحن مأمورون بمحاربة الكفر والمعاصى وعدم الرضا بهما.

وقد أجاب السعد عن ذلك الاعتراض بأنه : فرق بين القضاء والقدر وبين المقضى والمقدر، فإذا حكم القاضى على الجانى بالسجن فحكمه هو القضاء، وتنفيذ الحكم بإدخال السجن هو المقضى، فالقضاء والقدر من الله ويجب الرضا بهما والمقضى والمقدر نتيجة القضاء والقدر، والرضا بهما هو الكفر والمعصية، ولم يسلم ذلك الجواب من الاعتراض، فأهل السنة ينسبون الحكم والتنفيذ إلى الله ، وبين القضاء والمقضى تلازم، والرضا بأحدهما يستلزم الرضا بالآخر، والرضا بالقضاء رضا بالمقصى، والرضا بالقدر رضا بالمقدر.

وقد حاول العلامة الخيالى الإجابة عن ذلك الاعتراض بأن الكفر والمعاصى لهما جهتان : جهة كونيهما مقضيين ومقدرين لله، وجهة كونهما مكتسبين للعبد، فيجب الرضا بهما من الجهه الأولى لا من الثانية.

وقد اعترض على هذا الجواب بأنه يلزم عليه التناقض فى الحكم على الأمر الواحد بالرضا وعدم الرضا، وهو مبنى على على إثبات الكسب للعبد وقد علمت ما فيه.

ومع ذلك فأهل السنة لا يجيزون الاحتجاج بالقضاء والقدر للتوصل إل عمل المعصية، ولا للتخالص من المعصية بعد الوقوع فيها، فلا يجوز لمن يريد أن يسرق أو لمن سرق بالفعل أن يحتج بالقضاء والقدر ليتهرب من تنفيذ الحد، أما الاحتجاج بعد الوقوع لدفع اللوم والتأنيب فلا بأس به كما سيأتى فى حديث آدم مع موسى عليهما السلام.

وقد اعترض على رأى المعتزلة كذلك بأنه لا معنى للرضا بالعلم، وقد جعل **الرضا بالقضاء** شرطاً فى قبول الإيمان، والقضاء يقابل التسخط، ولا بد أن يكون نتيجة

اختبار وابتلاء بشئ قد يصعب على العبد تحمله، فيصبر المؤمن ويحتسب أجره على الله، ويتسخط الكافر ولا يرضى بقضاء الله.

رأى وسط:

والذى يتفهم روح التشريع يدرك -كما مر- أن أفعال العباد الإختيارية غير الاضطرارية وغير ما يجرى فى هذا الكون من شئون لادخل للإنسان فيها، وأن الله سبحانه وتعالى يصرف هذا الوجود بحكمته، وأنه كلف الإنسان فى حدود قدرته الموهوبة وطاقته الممنوحة، ثم هو سبحانه يختبره ويبتليه بأمور خارجة فى إرادته، ولا سلطان له عليها حتى يتبين للناس من يفذ فى هذا الاختبار ومن يسقط ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾سورة التوبة : ٤٩، ﴿أَلَم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَا يُفْتَنُونَ﴾سورة العنكبوت : ١،٢، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾سورة البقرة : ١٥٥، ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾سورة الرعد : ١٢،١٣ وليست الفتنة قاصرة على الشدائد والمصائب بل قد تكون الفتنة بالنعمة كذلك ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾سورة طه : ١٣١، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾سورة الفرقان : ٢٠ ويجمع الأمرين قوله سبحانه ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ سورة الأنبياء : ٣٥.

ونجاح العبد فى الفتنة، وفوزه فى الإمتحان والإختبار إنما يكون بصبره ورضاه، فقضاء الله نافذ لا محالة، ويتفاوت الناس فى تلقيه ما بين راض به صابر عليه محتسب أجره عند ربه، وبين متسخط عليه ضائق به، وهذه هى ثمرة التكليف.

والنصوص الكثيرة الواردة فى وجوب الإيمان والرضا بالقضاء والقدر، أغلبها يدل على أن المقصود بالقدر العلم، وبالقضاء الإرادة والإيجاد.

فالمقدر مقصود به العلم، وهو صفة إنكشاف لا تأثير، فيشمل أفعال الله وأفعال العبد الاضطرارية والإختيارية، فكل ذلك معلوم لله.

والقضاء مقصود به الإرادة والإيجاد. وهو خاص بغير أفعال العباد الإختيارية التى يكلفون بها ويحاسبون عليها، بل يكون القضاء فى الأفعال الاضطرارية التى لا سلطان لنا عليها، وإنما نحاول دفعها وتخفيف حدتها، ولذلك ورد فى الدعاء: اللهم لا نسألك رد القضاء، ولكن نسألك اللطف فيه. فالقدر على هذا أعم من القضاء، لأن القدر بمعنى العلم يتعلق بجميع الموجودات لا فرق بين أفعال العباد وخلق الله سبحانه وتعالى، أما القضاء فهو إبتلاء من الله سبحانه للعبد وليس للعبد فيه إختيار.

بعض النصوص التى تدل على أن القدر العلم:

ما أخرجه الترمذى عن أبى خزامة أن رجلا سأل النبى عليه السلام فقال: يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال عليه السلام: هى من قدر الله، وما رواه أبو داود عن ابن عمر أن رجلا من مزينة أو جهينة سأل الرسول عليه السلام فقال: يا رسول الله فيم نعمل؟ أفى شيء قد خلا ومضى أم فى شيء يستأنف الآن؟ قال فى شيء قد خلا ومضى، فقال الرجل أو بعض القوم ففيم نعمل؟ قال: إن أهل الجنة ييسرون لعمل أهل الجنة، وإن أهل النار ييسرون لعمل أهل النار. وما ورد فى الحديث الصحيح أن روح آدم التقت مع روح موسى عليهما السلام، فقال موسى لآدم: أنت أبو البشر الذى كنت سبباً لإخراج أولادك من الجنة بأكلك من الشجرة، فقال آدم: فأنت الذى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده، تلو منى على أمر قد قدره على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال النبى عليه السلام: فحج آدم موسى، أى غلبه بالحجة. وكأن آدم يرى أن موسى قد تجاوز حده فى اللوم والحساب وهما من خصائص الله سبحانه، أو أن موسى قد فاته أن الجنة ليست دار تناسل وتوالد فكان لا بد من هذا التعمير للكون، وبذلك الفهم غلب آدم موسى بالحجة، وما أخرجه الشيخان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فجاء رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس، فجعل ينكت بالمخصرة في الأرض، ثم رفع رأسه فقال: مامنكم من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة. قال: فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاو؟ ة فقال عليه السلام، إعلموا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ

لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾سورة الليل : ٥-١٠ فالتيسير للحسنى أو للعسرى مترتب على التصديق والعمل الصالح، أو التكذيب والعمل الطالح. وحديث يحى ابن يعمر مع عبدالله بن عمر السابق يدل على فهم ابن عمر لمعنى القدر بأنه العلم.

بعض النصوص التى تفسر القضاء بالإردة والإيجاد:

ما ورد فى الدعاء: اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه، وقوله عليه السلام: المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا، ولكل قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان. فقد أمر عليه السلام بالحرص على ما ينفع والاستعانة بالله، وعدم الركون إلى الكسل والخمول، ثم روض نفس المؤمن على احتمال المكاره، ومجابهة المصائب والبلايا والرضا والصبر وعدم الاندفاع وراء الخيال والتفكير فى الماضى الذى لا يمكن تغييره إلا بقدر ما يأخذ العبرة منه للمستقبل.

فالرضا بالقضاء والقدر لا ينافى الأخذ بالأسباب بل يدفع إليها ويحث عليها.

هل يجوز الاحتحاج بالقضاء والقدر؟

ولا يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر لارتكاب الموبقات وفعل السيئات، فكفر الكافر وعصيان العاصى وإيمان المؤمن وطاعة المطيع إن صح جعلها من القدر بمعنى العلم فالعلم صفة انكشاف لا تأثير، فلا يصح جعلها من القضاء لأنها صادرة بإختيار العبد وإرادته، ولذلك كان مسئولا عنها، وإنما القضاء فيما خرج على إرادة العبد ولم يخضع لسلطانه، وكذلك لم يقبل الله الاحتجاج من الكافرين بمشيئته وقضائه ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَىْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُم من عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِن أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُون. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَو شَاءَ لَهَدَاكُم أَجْمَعِينَ﴾سورة الأنعام : ١٤٨،١٤٩. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَو شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِه من شَىْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِه مِنْ شَىْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينَ﴾سورة النحل : ٣٥ ﴿وَقَالُوا لَو شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ من عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُون﴾سورة الزخرف : ٢٠.

ولماذا نحتج بالقضاء والقدر فى أفعالنا ولا نرضى بذلك إذا إحتج به علينا غيرنا ؟ إذا ضربك إنسان وقال لك هذا قضاء الله وقدره أتسكت عنه؟ وإذا سلبك مالك لينعم به وقال هذا قضاء الله وقدره تتركه له؟ إنك ترد الصاع صاعين لمن إعتدى عليك، وتسلك كل الطرق لاسترداد ما سلب منك ولا ترضى بهذا الاعتذار، فلم تعتذر به فى أمر لم تجبر عليه ولم تلتزم به؟ إن الكافر يستطيع أن يؤمن، وأن العاصى يستطيع أن يطيع ويستجيب لأمر الله ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا﴾سورة التغابون : ٨ ، ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُم أَن يُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم﴾سورة التحريم : ٨ ولو لم يكن مستطيعاً لكان التكليف بما لا يطلق، والله سبحانه يقول: ﴿يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾سورة البقرة : ٢٨٦.

هذه المعانى الواضحة السلسلة هى التى كان يفهمها أصحاب رسول الله ﷺ ويؤمنون بها ويعملون بتوجيهها، وقد نظر الرسول عليه السلام بعين المستقبل فرأى الخلاف بين المسلمين يبدأ من هذه النقطة الشائكة فنصح بإغلاق باب الجدل فيها حتى لا يتورط المسلمون بأقوال توجب غضب الله فقال عليه السلام: إذا ذكر القدر فأمسكوا، يقول صاحب الجوهرة:

واجب إيماننا بالقدر   وبالقضاء كما أتى فى الخبر.

أى أن إيماننا بالقدر والقضاء واجب فلا يصح الإيمان ولا يقبل بدونه كما يشير إليه قوله عليه السلام فى تعريف الايمان.

رؤية الله تعالى

يقول الله تبارك وتعالى وصفاً للمؤمنين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة : ٢٢،٢٣ ويقول سبحانه فى شأن الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾سورة المطففين : ١٥ ويقول عليه السلام مبشراً المؤمنين إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر.

فما هو المقصود بالرؤية ؟ وما هى الآلة التى تقع بها ؟ وهل هى بالنسبة إلى الله تعالى أمر جائز الوقوع؟ وإذا كان جائزاً فهل وقع بالفعل أو سيقع فى وقت ما ؟ وبأى كيفية يكون ذلك الوقوع؟

أما المقصود بالرؤية فهو انكشاف المرئى انكشافا تاماً، والآلة التى تقع بها حاسة البصر التى أودعها الله فى الكائنات الحية فيرى بعضها بعضا، ولكن هذه الرؤية بين الحوادث تخضع لشروط عادية، فلا بد أن يكون المرئى مقابلا للرائى وعلى بعد خاص وأن يكون له جسم وحجم ...

والله سبحانه يرى جميع مخلوقاته فرؤيتها فهو السميع البصير.

أما المخلوقات فرؤيتها لله تعالى محل خلاف بين المعتزلة الذين يرون أنها مستحيلة غير ممكنة الوقوع، وبين أهل السنة الذين يرون أنها جائزة ممكنة الوقوع، بل وواقعة فعلا.

رأى المعتزلة:

يرى المعتزلة أن رؤية الله تعالى مستحيلة عقلا وهى - بناء على رأيهم - لم تقع ولن تقع أبداً لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وقد استدلوا على رأيهم هذا بأدلة عقلية ونقلية.

دليلهم العقلى: أن الرؤية تحتاج إلى مسافة وجهة ومقابلة بين الرائى والمرئى ويلزم من ذلك أن يكون المرئى جوهراً أو عرضا، وأنه فى جهة وأنه يشغل حيزاً من الفراغ ....الخ وهذا كله مستحيل بالنسبة لله الذى ليس كمثل شيء، فاستحال ما أدى إليه وهو الرؤية.

الدليل النقلى: يقول الله تعالى: ﴿ لَاّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَار وَهُوَ يُدرِكُ الأَبصَار ﴾ سورة الأنعام : ١٠٣ فإدراك البصر إذا كان هو الرؤية فقد نفاه الله عنه، لأنه نقص فى حقه، وإذا كان لازم الرؤية فنفى اللازم نفى للملزوم، ففيه نفى للرؤية كذلك، وقد نفى الله رؤية الأبصار له لأنها نقص، فإثباتها يكون مستحيلا عليه، ويستدلون كذلك بقول عائشة رضى الله عنها: من قال إن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. ولو لم تكن الرؤية مستحيلة بالنسبة الى الله لما جملتها فرية عظيمة.

أما الآيات والأحاديث التى يدل ظاهرها على جواز الرؤية فيجب صرفها عن هذا الظاهر وتأويلها بما لا يتعارض مع الدليل العقلى والنقلى، وذلك بتقدير مضاف وهو الرحمة أو النعمة فى مثل قول الله ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة : ٢٣ أى إلى نعمتة أو رحمة ربها، وكذلك ﴿كَلَّا إِنَّهُم عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾سورة المطففين : ١٥ أى عن نعمة أورحمة ربهم.

رأى أهل السنة:

أما أهل السنة فقد رأوا أن رؤية الله تبارك وتعالى جائزة عقلا وشرعاً، لأنها داخلة فى حدود الممكن، ولا يترتب على إثباتها مستحيل ولا نقص حتى تكون مستحيلة عليه سبحانه.

دليلهم العقلى: أن الله موجود، وكل موجود يجوز أن يرى الله، فالله يجوز أن يرى.

أدلتهم النقلية: ١- يقول سبحانه فى حق المؤمنين يوم القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾سورة القيامة: ٢٢،٢٣ وهذا نص فى تكريم المؤمنين يوم القيامة بالنظرة إلى ربهم، وحمل النظر على الانتظار و«إلى» على أنها اسم مفرد «آلاء» بمعنى النعم والمعنى ينتظرون آلاء ربهم - كما يقول الجبائى- بعيد عن أسلوب القرآن البليغ.

وهذه الآية تفسر قول الله ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾سورة المطففين: ٣٥ أى ينظرون وجه ربهم، كما تفسر قوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾سورة يونس: ٢٦ فالزيادة هى الرؤية كما قال ذلك جمهور المفسرين.

وقد أثبتت السنة الرؤية فى الآخرة بما لا يقبل الشك، كقوله عليه السلام إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر أى الرؤية ستكون واضحة كرؤية القمر ليلة البدر.

ولا داعى لتأويل هذه النصوص الصريحة، وصرفها عن ظاهرها بتقدير مضاف أو ما شا به ذلك، لأن حمل الأسلوب على الحقيقة أولى من حمله على المجاز مادامت الحقيقة ممكنه.

٢- يقول الله حكاية عن كليمه موسى عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي...الآية﴾سورة الأعراف: ١٤٣ فقد سأل موسى ربه الرؤية، ولو كانت الرؤية مستحيلة لما سألها عليه السلام، فإنه رسول يعلم الواجب والجائز والمستحيل فى حق الله، وسؤاله المستحيل لا يكون إلا عن غفلة أو جهل، وكلاهما مستحيل على الأنبياء، ولا يجوز أن نقول إنما سألها ليبين لقومه أنها مستحيلة - كما يقول المعتزلة - فإنه يكفى أن يخبر قومه بإستحالتها، ثم إنه عند السؤال لم يكن معه أحد عن قومه ليشهد هذا، فقد كان عليه السلام يسأل لنفسه، لأنه

يريد أن ينال منزلة المشاهدة بعد أن نال منزلة المكالمة، والمشاهدة أعلى منازل الإدراك.

ونستطيع أن نأخذ من الآية دليلا آخر على جواز الرؤية. فإن الله سبحانه علق الرؤية على أمر جائز وهو استقرار الجبل، وكأن الله يقول لموسى : إنك لن تقوى على المشاهدة ولن تتحمل هذا التجلي. وسأجرى أمامك تجربة على الجبل وهو أقوى منك وأكثر تحملا. فإن تحمل الرؤية واستقر أمام التجلي الأعظم، كان من الممكن أن تجاب الى طلبك، وأن تنال هذه الأمنية، وقد أجريت التجرية فعلا، وتجلى الله تعالى للجبل فاهتز ولم يقدر على مشاهدة الجلال والعظمة وأصبح دكا، وخر موسى - من هول ما أصاب الجبل - صعقا، فما كان يصنع موسى لو أن التجلى كان له؟

وهناك دليلان آخران نستطيع أخذهما من الآية الكريمة كذلك، أولهما: أن موسى سمع كلام الله، والسمع نوع من الإدراك، وقد قلنا إنه سمع الكلام القديم من غير صوت ولا حروف أو مقاطع حتى لا يكون شبيهاً بالحوادث. والرؤية إدراك يقاس على الإدراك بالسمع، فيكون من غير مقابلة ولا جهة حتى لا يكون شبيهاً بالحوادث، وثانيهما، أن الله تجلى للجبل والجبل مخلوق أودع الله فيه الحياة والقدرة على الإبصار، فرفع الحجاب بينه وبين خلقه ليس مستحيلا، لأنه وقع التجلى للجبل بنص القرآن ، فيجوز لغير الجبل أن يرى فتكون الرؤية جائزة، والله أعلم.

وقد كان هذا الرد الجميل من الله تبارك وتعالى على موسى لينبهه أنه اختصه بالكلام، واحتفظ بخصوصية الرؤية لخاتم الرسل عليه السلام.

ولا معنى لقول المعتزلة هنا أن الرؤية علقت على أمر مستحيل وهو إستقرار الجبل حال تحركه، فمن أين لنا هذا القيد وليس هنا ما يدعوا ولا مايشير إليه.

ترجيح رأى أهل السنة

والرد على أدلة المعتزلة

أما قوله سبحانه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَار وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَار﴾سورة الأنعام : ١٠٣ الذى تمسك به المعتزلة فهو حجة لنا لا علينا ، فالإدراك معناه الإحاطة الشاملة ومعرفة الدقائق، لا مطلق الرؤية، ونحن لا نقول به، لأن الإدراك بمعنى الإحاطة مستحيل بالنسبة إليه سبحانه، وهو

النفى فى الآية، ولا يلزم من نفى الأخص لنفى الأعم، ولنا أن نقول أن «أل» فى «الأبصار» للعموم، وتقدم النفى على العموم يفيد سلب العموم، فالمعنى : لا تراه جميع الأبصار، بل يراه البعض دون البعض وهو مذهبنا.

وأما دليلهم العقلى وهو أن الرؤية تحتاج إلى مسافة وجهة..الخ، فقد حملهم على ذلك قياسهم الغائب على الشاهد، فهذه كلها شروط عادية أودعها الله فى الكائنات، وجعل رؤية الأحياء مشروطة بها. وكان من الممكن أن يودع فى الكائنات شروطاً أخرى، وأن يجعل الرؤية بغير شروط أصلا، فكل ذلك مقدور له سبحانه.

فرؤية الله إذن لاتخضع لهذه القوانين الطبيعية، من الحيز والمكان والجهة، بل يمكن أن تكون بغير كيف ولا انحصار. بأن يخلق الله قوة فى الرائى يرى ذاته سبحانه من غير حدود ولا انحصار.

هل الخلاف لفظى أم حقيقى؟

والحق أن رأى المعتزلة هنا ضعيف، وأن أداتهم منقوضة، ولو نظروا إلى الموضوع من نفس الزاوية التى نظر إليه منها أهل السنة لوافقوهم على الجواز، وذلك بأن لا يحكموا القوانين العادية التى تجرى فى هذه الدنيا، فلا يقيسوا الغائب على الشاهد، وهذا يرجح أن الخلاف لفظى، وقيل إن الخلاف حقيقى لأنه منصب على جواز الرؤية بالأبصار وعدم الجواز.

وقوع الرؤية فى الدنيا

أما وقوع الرؤية فى الدنيا فلم يثبت لأحد من الأنبياء والمرسلين السابقين على نبينا عليه السلام، أما ثبوته لنبينا عليه السلام أثناء المعراج فقد اختلف فيه الصحابة رضوان الله عليهم، فمنهم من أثبته كإبن عباس الذى روى عنه أنه عليه السلام رأى ربه بعينه، وفى رواية أخرى أنه رآه بقلبه، والأولى أشهر، ويقول رضى الله عنه: إن الله اختص موسى بالكلام، وإبراهيم بالخلة. ومحمد بالرؤية. وحجة إبن عباس فى ذلك قول الله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾سورة النجم : ١١ وإعادة الضمائر فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى...الخ﴾ سورة النجم : ٨ إليه سبحانه، كما يفسر ذلك حديث أنس الذى أخرجه البخارى وفيه يقول: ثم دنا رب العزة فتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة.

أما عائشة رضى الله عنها فكانت ترى أنه عليه السلام لم ير ربه فى الدنيا. وكانت نقول: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، وكانت تستدل على رأيها بقوله سبحانه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَار﴾سورة الأنعام : ١٠٣ وتصرف قوله ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾سورة النجم : ١١ إلى رؤية جبريل عليه السلام.

وقد تابع ابن عباس فى رأيه كثير من الصحابة، كما تابع عائشة آخرون، وتوقف سعيد بن جبير ومن تابعه عن القطع بأحد الرأيين فقال: لا أقول رآه أو لم يره، لأنه خشى أن يقطع فى أمر غيبى لم يرد فيه نص صريح، وهذا هو الحق كما يقول القاضى عياض: إن رؤيته تعالى فى الدنيا جائزة عقلا وليس فى العقل ما يحيلها..... وليس فى الآيات نص فى المنع، وأما وجوبها لنبينا عليه السلام، والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه دليل قاطع ولا نص.

وقوع الرؤية فى الآخرة

أما تحقق الرؤية فى الآخرة وثبوتها للمؤمن فى الجنة، فقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك فقد قال سبحانه ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة﴾سورة القيامة : ٢٢،٢٣ وقال ﴿عَلَى الْأَرَائِك يَنْظُرُون﴾سورة المطففين: ٣٥ وجاءت السنة لتبين القرآن الكريم، فقد أخرج مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ أنه قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، وفى رواية ثم تلا ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة﴾سورة يونس : ٢٦. وقال عليه السلام: إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وهذا صريح فى وقوع الرؤية فى الجنة.

ويقابل تكريم المؤمنين برؤيه ربهم حرمان الكفار من الرؤيه، وذلك قوله سبحانه فى حق الكفار ﴿كَلَّا إِنَّهُم عَن رَبِّهِم يَومَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾سورة المطففين : ١٥ أى ممنوعون من النظر إلى ذاته العلية، ومن التمتع بما خص به المؤمنين الذين جعل لهم الحسنى وزيادة. وكل دليل يثبت وقوعها يعتبر دليلا على جوازها عقلا، ولا داعى لصرف النصوص عن ظاهرها.

رؤية الله مناها:

وهذا الخلاف فى الرؤية حالة اليقظة، أما الرؤية مناما فهى انكشاف ومشاهدة بالقلب لا بالعين، وقد وقعت الرؤية بهذه الصورة لكثير من الصالحين ولكنهم يستطيعوا

التعبير عما شاهدوه، وإنما وقع فى قلوبهم أنهم رأوا الله.

وقد يتعرض باحتمال أن يكون هذا من تمثيل الشيطان، ويرد بأنه قد وردٍ أن الشيطان لا يتمثل بالنبى عليه السلام بنص الحديث: من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى.

وإذا كان الشيطان لا يتمثل بالرسول عليه السلام، فمن باب أولى لا يتمثل بالله سبحانه، وإن كان بعض العلماء يجعل هذه من خصائص الرسول عليه السلام، أما تمثل الشيطان بالله فمحتمل، والذى يراه يقطع بكذبه، لأنه يراه على صورة الحوادث، والله سبحانه ليس مثله شئ.

يقول صاحب الجوهرة مقررا رأى أهل السنة:

ومنه أن ينظر بالأبصار بلا كيف ولا انحصار
للمؤمنين إذ بجائز علقت هذا وللمختار دنيا ثبتت

أى ومن الجائز عقلا فى حقه سبحانه أن ينظر بالأبصار من غير تكيف وتصدر بصورة الحوادث ومن غير انحصار فى جهة، وفى هذا رد لشبه المعتزلة من توقف الرؤية على الكيف والجهة، وقوله للمؤمنين أى الناجين يوم القيامة فيشمل كل ناج من ذكر وأنثى من الإنس والجن من أمة محمد عليه السلام والأمم السابقة وأهل الفترة، وقوله إذ بجائز علقت إشارة إلى قوله سبحانه ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى﴾سورة الأعراف : ١٤٣ المأخوذ منه دليل جواز الرؤيه. وقوله هذا، وللمختار دنيا ثبتت أى وقعت الرؤية فى الدنيا للمختار كما أثبته أهل السنة.

النبوات

حاجة البشر الى الرسالة

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يكون من مخلوقاته من يجمع بين العقل والشهوة - كما مر -

وأن يكلفهم عبادته وعمارة الكون ويعد الخير بالثواب ويتوعد المسىء بالعقاب، والعقل لا يستطيع وحده أن يدرك الخير من الشر، ولا أن يعرف ما وراء الطبيعة بما هو مكلف بمعرفته والإذعان له، لذلك اقتضت حكمة الله كذلك أن يبعث إلى هؤلاء العقلاء المكلفين سفراء بينه وبينهم يبلغونهم عنه. ويبينون الخير من الشر والحسن من القبيح، فيما يتعلق بأمرى الدنيا والأخرة حتى ينقطع حجتهم يوم القيامة.

يقول سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾سورة طه : ١٣٤ ويقول ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِيْنَ وَمُنذِرِيْنَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعدَ الرُّسُلِ﴾سورة النساء : ١٦٥.

الوحي وأنواعه وإمكان وقوعه

الوحي لغة : هو الإعلام الخفى السريع، الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره، وقد يكون بالإيماء ،وقد يكون بصوت مجرد من التركيب، أو بإشارة ببعض الجوارح، أو بالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا عليه السلام ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِن الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِم أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾سورة مريم : ١١ أى أشار إليهم ولم يتكلم، ومنه الإلهام الغريزى، كالوحى إلى النحل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ اَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوْتاً......الآية ﴾سورة النحل : ٦٨ ومنه إلهام الخواطر بما يلقيه الله تعالى فى روع الإنسان السليم الفطرة، الطاهر الروح، كالوحى إلى أم موسى، ووحى الله تعالى إلى أنبيائه قد روعى فيه المعنيان الأصليان وهما : السرعة والخفاء.

والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله ﴿إِذْ يُوْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُم فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾سورة الأنفال : ١٢، ويوحى الله إلى ملك الوحى ما يوحيه الملك إلى الرسول ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾سورة النجم : ١٠ أى أوحى ألى عبده جبريل عليه السلام ما أوحاه جبريل إلى محمد عليه السلام.

الوحى شرعا : هو إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى.

أنواعه:

(ا) الإلهام، وهو النفث فى الروع، أو الرؤيا فى المنام، كما رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يذبح ولده، وكما ألهمت أم موسى أن تقذفه فى اليم، وكما يقول عليه السلام : إن روح القدس نفث فى روعى، إن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وتستو فى أجلها.

(ب) الكلام من وراء حجاب من غير رؤية من الموحى إليه، كما كلم موسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾سورة النحل : ٦٨.

(ج) إرسال رسول من الملائكة، جبريل أو غيره فيوحي ذلك الرسول إلى المرسل إليه بإذن الله ما يشاء، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَو مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾سورة الشورى : ٥١.

إمكان وقوع الوحى

إن ظاهرة الوحى متماثلة عند أنبياء الله المرسلين، لأن مصدرها واحد، وغايتها واحدة. قال تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ من بَعْده. وَأَوحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾سورة النساء : ١٦٣.

والوحى بمعناه السابق أمر ممكن الوقوع، ذلك أن اشتراك الناس فى البشرية لا يمنع إختصاص الله تعالى واحداً منهم بما شاء من العلم والحكمة والإيمان بأى أسلوب وحياً كان أو إلهاما، وليس فى هذا ما يثير الدهشة أو يدعوا إلى العجب ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَن أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُون إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِيْن﴾سورة يونس : ٢ فالرسل عليهم السلام واسطة بين المولى سبحانه وبين عباده يبلغونهم أوامره ونواهيه، ومقتضى هذا أن يتلقى الرسل من الله سبحانه وتعالى تلك الأوامر والنواهى وذلك لا يكون إلا بالوحى.

النبى والرسول

الرسول سفير بين الله وبين الناس يتلقى الوحى عن الله ثم يبلغه للناس؛ ويشترط فيه أن

يكون إنسانا ليستطيع التفاهم مع الناس ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاه مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُون﴾سورة الأنعام : ٩ وأن يكون رجلا كاملا العقل والخلق، طاهر الأصل كريم المحتد منزهاً عن العيوب خلقية كانت أو خلقية حتى لا ينفر منه الناس ﴿وَلَوْ كُنْت فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نْفَضُّوا مِن حَوْلِك﴾سورة آل عمران : ١٥٩.

والنبى قد يطلق بمعنى الرسول فهو إنسان بعثه الله تعالى لتبليغ أحكام الشرع فهو والرسول سواء، فكل نبى رسول، وكل رسول نبى، ويطلق عليه رسول لأن الله يقول إنا أرسلناك. ويطلق عليه نبى لأنه أنبأ الخلق عن الأحكام. وهذا رأى جمهور المعتزلة.

أما أهل السنة فيرون أن النبى أعم من الرسول. فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولا. فيشتركان فى أن الله نبأ كلا منهما وأوحى اليه، ثم أمر الرسول بتبليغ الشرع الموحى إليه، فالانبياء يؤيدون الرسل فى دعوتهم. ولا يأتون بشرع جديد ولا تنزل عليهم كتب خاصة بهم، ولا ينسخون أحكاما سابقة عليهم وهذا هو الحق ويؤيده قوله سبحانه ﴿وَمَا أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى....الخ﴾سورة الحج : ٥٢ والعطف يقتضى المغايرة، وما روى أن الرسول عليه السلام سئل عن عدد الأنبياء فقال : مائة وأربعة وعشرون ألفاً. قيل : كم الرسل منهم؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً.

حكم إرسل الرسل

إن المكلف لا يستطيع أن يدرك الخير وحده. وقد أخذ الله سبحانه العهد على نفسه ألا يعذب حتى يبعث رسولا فقال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِيْنَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾سورة الأسراء : ١٥.

فهل إرسال الرسل حتم لا بد عن وقوعه؟ أو هو أمر ممكن يجوز تخلفه؟ وقع خلاف بين العلماء فى الإجابة عن هذا السؤال بناء على المبادىء التى اعتنقوها.

فالفلاسفة : والذين يقولون بالطبيعة أو التعليل يقولون : إنه يلزم من وجود الله أن ينشأ عنه العالم بطريق الطبع أو العلة، ويلزم من وجود العالم وجود من يصلحه، وهم الرسل فإرسال الرسل أمر حتم لا اختيار فيه لله، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، وقد ثبت له أنه فاعل مختار، فلا إيجاب عليه سبحانه ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار﴾سورة القصص : ٦٨ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يأتى بآية إِلَّا بِإِذْنِ الله﴾سورة هود : ٣٨، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾سورة الحج : ٧٥.

أما المعتزلة : فقد نسب إليهم أنهم يقولون : إن إرسال الرسل واجب على الله سبحانه، بناء على قاعدة الصلاح والأصلح المنسوبة إليهم فيقولون : إن النظام المؤدى إلى صلاح حال النوع الإنسانى على العموم فى المعاش والمعاد لا يتم إلا يبعثه الرسل، وكل ما هو كذلك فهو واجب على الله تعالى، وقد علمت - فى مبحث الصلاح والصلح - أن القول بالوجوب على الله لا يصدر من عاقل فضلا عن مؤمن، ولعل مقصودهم - كما مر- أن أفعال الله لحكمة والحكمة تقتضى وترجح إرسال الرسل.

بجوار ذلك تجد رأيا باستحالة إرسال الرسل، وهو منصوب إلى فرقتين إحداهما البراهمة والأخرى السمنية، وكلاهما يمجد العقل ويعتمد عليه، ويرى أن فيه الكفية لإنارة الطريق فلسنا فى حاجة إلى الرسل، فالشيء إما أن يستحسنه العقل فيفعله، وإما أن يستقبحه فيتركه، وإما أن لا يجد فيه حسناً ولا قبحاً؛ فإن إحتاج إليه فعله وإلا تركه، فلا داعى إذن لإرسال الرسل، بل إن إرسالهم يكون عبثاً ، ومن ناحية أخرى يرى السمنية أن طريق الإدراك هو الحواس، والرسول لا يستطيع أن يدرك من أرسله هل هو الله أوجن أو شيطان، فيلتبس عليه الأمر لأنه لايدرك شيئاً من ذلك بطريق الحس فيكون إرسال الرسل مستحيلا. وهذا قول باطل. فالعقل لا يستطيع أن يستقل بمعرفة الخير والشر، ولا يجمع الناس على رأى واحد، بل أن الفرد يتبدل رأيه بتبدل الظروف ومرور الايام، فيرى الشىء خيراً وكان قبل يظنه شراً والعكس. ثم إن الاشتنباه فيمن أرسله يمكن رفعه بأن الله سبحانه يخلق فيمن أرسله علماً ضرورياً بأنه مرسل من قبل الله ثم يؤيده بالمعجزة التى يتحدى أن يأتوا بمثلها فلا يستطيعون، فيظهر صدق رسالته.

أما أهل السنة فيقفون وسطاً بين القولين المتنافرين، القول بالوجوب والقول بالإستحالة، ويرون أن إرسال الرسل من الأمور الممكنة لله الداخلة فى حدود قدرته، فهو رحمة منه ولطف بعباده يخضع لمشيئته ويصدر عن حكمته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾سورة الأنعام : ١٢٤ وقد يرسل إلى جماعة ولا يرسل إلى أخرى ولا يكون التكليف إلا بعد الإرسال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾سورة الإسراء : ١٥ فالإرسال جائز فى حقه عقلا واقع فعلا ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾سورة الحج : ٧٥.

الإيمان بالرسل والأنبياء

الإيمان بالرسل والأنبياء واجب على كل المكلف لأنه جزء من الإيمان العام الذى بينه

الرسول عليه السلام حين سأله جبريل عن الإيمان فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله......الخ ولقوله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُول بمَا أنْزل إلَيْه من رَّبه وَالمُؤمنُون كل آمَنَ بالله وَمَلائكَته وَكُتبه وَرُسُله لاَ نُفرِّقُ بَيْنَ أحَد من رُسُله﴾سورة البقرة : ٢٨٥ وعدم الإيمان ببعض الرسل تكذيب القرآن يخرج صاحبه عن مطلق الإيمان.

فيجب علي كل المكلف أن يعتقد أن الله أرسل رسلا مبشرين ومنذرين، وأنزل عليهم كتباً وصحفاً وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأن يؤمن برسالة من ورد اسمه فى القرآن الكريم تفصيلا، وهم خمسة وعشرون جمعهم بعض العلماء فى قوله:

فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذوالكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأن هناك غير هؤلاء كثير، بدليل قوله سبحانه ﴿مِنْهُم مَن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنهُم مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيكَ﴾سورة غافر : ٧٨ وليس هناك خبر قاطع بعدتهم إلا ما ورد أنه عليه السلام سئل عن عدة الأنبياء كما مر.

يقول صاحب الجوهرة :

ومنه إرسال جميع الرسل ... فلا وجوب بل بمحض الفصل

لكن بذا إيماننا قد وجبا ... فدع هوى قوم بهم قد لعبا

أى ومن الجائز عقلا فى حقه سبحانه إرسال الرسل إلى المكلفين، فليس هناك وجوب عليه سبحانه، بل هو تفضل ورحمة، وواجب علينا أن نؤمن برسالتهم جميعاً تصديقاً للقرآن الكريم، وأن تدع آراء القوم الذين قالوا بالوجوب وبالإستحالة فقد ضلوا الطريق ولعبت بهم أهواؤهم.

النبوة والرسالة منحة من الله وليست إكتسابا

عرفنا أن الفلاسفة يرون وجوب إرسال الرسل لإصلاح المجتمع وإرسال الرسل - فى رأيهم - ينشأ عن حاجة البيئة والمجتمع إليهم، فهم زعماء يحسون بإخساسات الشعب، فتميل

نفوسهم الطيبة إلى إصلاحه فيحاولون تربية نفوسهم بالرياضات والعبادات والخلوة والتخلى عما يشين والتحلى بكل خلق كريم، حتى تصفو النفس وتتطهر من أدران المادة، وتسمو إلى عالم الروح، ومتى وصل الشخص إلى هذه الدرجة كان نبى أمته، وتولى زعامتها وقادها إلى ما فيه خيرها، فهم لا يعترفون بالله الخالق المختار، وإنما يقولون بالطبيعة! فكيف تنتظر منهم أن يعترفون بأن الله أرسل رسلا مبشرين ومنذرين، فالرسل فى رأيهم ليسوا أكثر من زعماء مصلحين تأثروا بالبيئة والرياضات حتى وصلوا إلى الصفاء الروحى، فأصبحوا بهذا قادرين على إحداث بعض الغرائب والتسلط على بعض القوانين الطبيعة، والتحدث عن المستقبل، ولا مانع عندهم من أن يأتى الرسل فى أى وقت، مادام المجتمع فى حاجة إلى إصلاح، فليس هناك ختم للنبوة ولا نهاية للرسالة، وليس هناك تلق لوحى ولا استماع لملك، وهذا تكذيب صريح للقرآن الكريم، فهم لم يؤمنوا به.

والحق الذى عليه جميع المتدينين أن الرسالة منحة من الله الفاعل المختار، ولن يسطتيع أن يصل إلى درجاتها أحد منهما فعل بنفسه من تهذيب ورياضة، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ سورة الحج: ٧٥ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾سورة الأنعام : ١٢٤ وقد ختمت الرسالات برسالة نبيناعليه السلام حيث نزل عليه قوله سبحانه ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيين﴾سورة الأحزاب: ٤٠ وحيث يقول عليه السلام: لا نبى بعدى، وقد قام إجماع الأمة على بقائه على ظاهره.

وهناك من صفات الكمال صفات أربع هي ملاك الخير كله، لذلك كانت واجبة لهم على سبيل التفصيل، وهذه الصفات الأربع هى: الأمانة، والصدق، والفطانة، والتبليغ.

أما الزعماء المصلحون الذين يهبون أنفسهم لشعوبهم ويضحون براحتهم وسعادتهم فى سبيل المجتمع، وهم مع ذلك ممتثلون أو امر الله مجتنبون مناهيه، مجتهدون فى عبادته ومراقبته، فهم أولياء الله الذين قال فيهم ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّه لَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُم يَحْزَنُون. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون.... ﴾سورة يونس: ٦٢،٦٣.

فالولاية يمكن أن تكون مكتسبة بالتفانى فى العبادة والمراقبة ومساعدة الناس، وهذه هى الولاية العامة، وقد يفيض على بعض عباده علماً لم يجهد نفسه فى تحصيله، وإطلاعا على أمور لم يتخذ أسباب الاطلاع عليها، فهذه هى الولاية الخاصة الممنوحة، والله ذوالغضل العظيم.

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى فى الخير أعلى عقبة
بل ذلك فضل الله يؤتيه لمن يشاء جل الله واهب المنن

صفات الرسل

الوَاجب فى حق الرسل عليهم السلام

الرسل بشر اختارهم الله سبحانه لتبليغ الرسالة إلى الناس حتى لا تكون لهم حجة يوم القيامة، والاختيار مبنى على التفضيل فى الخلق والخلق. فليس من الحمكة أن يختار الخالق من يكون فيه عيب يحول بينه وبين أداء المهمة التى اختير لها، وإلا كان غير حكيم! تعالى عن ذلك علوا كبيراً.

والعقل يجيز على الأنبياء والرسل ما يجيزه على سائر البشر، ولكن الشرع يوجب لهم صفات خاصة تمكنهم من أداء مهمتهم، فقد اصطفاهم واختارهم من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ورباهم على عينه: أدبنى ربى فأحسن تأديبى، ومنحهم أفضل ما يمنحه البشر، وأوجب لهم سبحانه كل كمال بشرى ونزههم عن كل نقص بشرى.

الأمانة (العصمة)

هى حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه، ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى. فقد بعثهم الله لتبليغ الدعوة وهداية الناس، وجعلهم قدوة عملية وأسوة واضحة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾سورة الأحزاب: ٢١ والناس مطالبون بطاعتهم والاستجابة لهم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾سورة النساء: ٥٩ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾سورة الحشر: ٧ فكل لفظ يقولونه وكل فعل يفعلونه تشريع واجب الإتباع، ولو فعلوا المنهى عنه لكنا مأمورين باتباعهم، والله سبحانه يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ سورة الأعراف: ٢٨.

ولذلك حفظ الله ظواهرهم من كل ما يدنس، فهم محفوظون من الكذب والخيانة وشرب الخمر وإيذاء الناس والسجود لغير الله. كما حفظ قلوبهم وبواطنهم من المعاصى

التى لا يطلع عليها غيرة كالحسد والكبر والرياء، فهم لا يفعلون المحرم ولا المكروه، ولا خلاف الأولى ولا المباح باعتباره مباحا، فإذا فعلوا شيئاً من ذلك فهو للتشريع وبيان الحكم، فيصير بهذا القصد واجبا أو مندوبا فى حقهم، وليس ذلك عجيباً. فهذه المنزلة قد يدركها بعض أتباعهم فيفعلون المباح بنية العبادة فتكون مندوبة، لهم عليها أجر، ففى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يقول ﷺ : وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل فى امرأتك. أى ما تضعه من الطعام فى فمها نقصد الملاعبة. لك فيه أجر إذا قصدت وجه الله.

وحفظ الأنبياء فى الظاهر والباطن ليس قاصراً على زمن النبوة وإنما يمتد إلى أول عهدهم بالحياة، فهم ينشئون أممهم ممتازين بالأخلاق الكريمة حتى لا يطعن فيهم طاعن إن هم دعوا الناس إلى الخير.

ولذلك أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء منذ ولادتهم من الكفر ومن كل ما يستهجنه العقل ويوجب نفرة الناس كالكذب والزنا والسرقة.

أما المعاصى التى لا توجب نفرة ولا يحكم العقل عليها بخسة أو دناءة، فقد أجاز أهل السنة وقوعهم فيها قبل النبوة إذ لم يجدوا دليلا على عصمتهم منها. أما المعتزلة فقد أوجبوا عصمتهم منها كذلك، لدليل العصمة العام إذ كيف يستطيعون دعوة الناس إلى الخير، ونهيهم عن الإثم والشر، وأيديهم ملطخة بالإثم وقلوبهم مشحونة بالشر. ولقد نعى الله سبحانه على الدعاة وعدم الامتثال فى قوله ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وَأَنْتُم تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُون﴾سورة البقرة: ٤٤.

ثم إن الله سبحانه يؤيد رسله بالمعجزات فكيف يصدقهم وهم له عاصون ولأنفسهم ظالمون، وهو سبحانه القائل ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِيْن﴾سورة البقرة: ١٢٤.

وقد بين سبحاته أنه لا يتساهل في الحق ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيْلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِيْنِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِيْن. فَمَا مِنْكُم مِّن أَحَد عَنْهُ حَاجِزِيْن﴾سورة الحاقة: ٤٤-٤٧، ﴿وَلَو لَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَد كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِم شَيْئاً قَلِيلاً. إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ نَصِيْرًا﴾سورة الأسراء: ٧٤،٧٥.

فإذا ورد نص يوهم وقوع نبى فى معصية، فإن كان خبر آحاد وجب رده لمعارضة النص الصريح، وإن كان متوتراً أولناه، أو حملناه على أنه من باب حسنات الأبرار سيئات

المقربين، ولذلك سمى ذنبا وطلب الاستغفار منه لعظم مقامهم وشدة قربهم عليهم الصلاة والسلام.

بعض النصوص التى توهم عدم العصمة

ما ورد فى حق آدم عليه السلام: نهى الله آدم عن الأكل من الشجرة فوسوس له الشيطان وأغراه فوقع فى المعصية، واعترف بالذنب فقال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَم تَغْفِرْلَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين﴾سورة الأعراف: ١٥٩ وسمى الله سبحانه فعل آدم معصية وغواية فى قوله ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾سورة طه: ١٢١.

ويجاب عن ذلك بأن الوقوع فى الخطأ لم يكن عن قصد، وإنما هو نسيان بدليل قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾سورة طه: ١١٥ والتكليف إنما هو فى حدود الطاعة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾سورة البقرة: ٢٨٦ ولذلك رفع الله الإسم عن الناسى. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾سورة البقرة: ٢٨٦ وإنما سمى معصية لدرجة آدم وقربه من الله، ولو كان هذا الأمر مع غيره لم تكن فيه مؤاخذة ولا عتاب.

ولأهل السنة رد آخر وهو أن هذا الحادث وقع قبل النبوة وليس مما يشين فلا تجب العصمة منه.

ما ورد فى حق إبراهيم عليه السلام: (١) قال إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ وهذا يدل على الشك وعدم اليقين.

(٢) قوله عندما رأى كوكباً: هذا ربى، ولما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربى، ولما رأى الشمس بازعة قال: هذا ربى هذا أكبر- عبادة لغير الله واعتراف بألوهية غيره، وهو عين الشرك.

(٣) عندما خرج قومه فى عيدهم وأراد أن يمتنع عن الخروج بحث عن عذر يعتذر به نظرة فى النجوم قال إنى سقيم، وعندما كسر الأصنام وسأله قومه ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيْرُهُم هَذَا فَسْئَلُوهُم إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾سورة الأنبياء: ٦١،٦٢ . فقد كذب فى الموضعين.

وللرد على هذا نقول:

١- إنه عندما قال: رب أرنى كيف تحيى الموتى لم يكن شا كا. وإنما أراد أن يحصل إيمان المشاهدة. ولذلك قال ولكن ليطمئن قلبى.

٢- وقوله للكواكب والقمر والشمس هذا ربى مجاراة للخصم فى رأيه ليلتفت ويستمع ثم يكر على هذا الرأى بالإبطال والتسفيه. ولذلك قال لا أحب الآفلين وقال يا قوم إنى برىء مما تشركون. ثم بين لهم أن المستحق للعبادة هو خالق هذه الأجرام ومصرفها ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيْفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ﴾سورة الأنعام: ٧٩ وهذا الأسلوب من أبلغ الأساليب لإلزام الخصوم وإفحامهم.

٣- وكذلك نقول فى دعواه أنه سقيم حتى لا يخرج معهم، وفى قوله بل فعله كبيرهم عندما وجهوا إليه تهمة تكسير الأصنام، وقد أراد بذلك أن يستدرجهم ليعترفوا بضلالهم ويقلعوا عنه، ولذلك يقول: فأسألوهم إن كانوا ينطقون، ولما إعترفوا بأنهم لا ينظقون أعلن الحق الذى ألزمهم به ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُون مِن دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَنْفَعُكُم شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُم، أُفٍّ لَكُم وَلِماَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُون﴾سورة الأنبياء: ٦٦،٦٧ .

ما ورد فى حق موسى عليه السلام : ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُبِيْن﴾سورة القصص: ١٥ فقد قتل موسى شخصاً بغير حق وهذه كبيرة ما كان يصح أن تقع من نبى.

والجواب : أن بنى إسرائيل كانوا مستذلين فى مصر مهضومى الحق، وكانوا يتعاونون على رد الظلم عنهم، ولقد مر موسى برجلين يقتتلان أحدهما من شيعته بنى إسرائيل، والآخر من عدوه أتباع فرعون، فحاول موسى أن يرد المعتدى وأن ينتصر للضعيف المظلوم، فوكز الظالم أى دفعه عن صاحبه، ولكن المعتدى لم يتحمل هذه الدفعة اليسيرة فوقع ميتا ، فلم يكن هناك اعتداء من موسى وإنما هو رد اعتداء على مظلوم، ولم يقصد موسى قتله ولا إيذاءه وإنما قصد دفعه فحسب، فلم يرتكب شيئاً يستحق اللوم والمؤاخذة عليه إلا من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولذلك رجع إلى الله واستغفره فغفرله.

وأهل السنة يقولون لسنا بحاجة إلى هذا الدفع، فقد وقع القتل الخطأ قبل النبوة أى فى الوقت الذى لا تجب فيه العصمة.

ما ورد فى حق يوسف عليه السلام : يقول سبحانه مصوراً ما كان بين يوسف عليه

السلام وبين امرأة العزيز حينما دعته لنفسها ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾سورة يوسف: ٢٤.

فقد مالت نفسه إلى الوقوع فى الجريمة، وهذا لا يليق بالأنبياء.

والجواب : أن امرأة العزيز عندما تعلقت بيوسف راودته عن نفسه بعد أن أعدت العدة لا قتناصة، فغلقت الأبواب وقالت هيت لك، ولكنه عليه السلام، وهو المعصوم، ردها رد المؤمن القوى فقال : معاذ الله إنه - أى زوجك - ربى أحسن مثواى، إنه لا يفلح الظالمون، ولكنها لم ترض بهذا الأسلوب الوعظى الخاضع للعقل والحكمة، بل أرادت أن تشبع غريزتها، وأن تحقق رغبتها، فهو عبدها فكيف يقف منها موقف العناد والامتناع، فهمت به ترغمه على ما تريد، وهم بها يدفعها عن نفسه، وكادت تقوم بينهما معركة لولا أن أنقذه الله من هذه الورطة بأن رأى دلائل حضور ربه وسيده، فأسرع إلى الباب يريد أن يلوذبه وهى من خلفه تسابقة وتجذبه من ثيابه حتى مزقتها، وإذا برحمة الله تدرك يوسف فيجدا السيد لدى الباب، فتسرع المرأة إلى إلقاء الاتهام، ولها من ضعفها وأنوثتها، ومكرها ما يبرر ذلك الاتهام فتقول: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم. ولكن السيد، وهو الحاكم الأريب، يستمع إلي دفاع يوسف فيعرف جرم زوجته وبراءة يوسف فيعلنها صريح ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾سورة يوسف: ٢٨،٢٩.

فلم تحدث يوسف نفسه بالخطيئة، ولم يجد من نفسه ميلا إليها، وإنما هو اختبار وابتلاء من الله ليوسف خرج منه طاهر الذيل طيب النفس شريف القصد.

ومع ذلك فقد أخذت تكيد له، وجمعت النسوة وأعلنت عليهن ما كانت تخفيه واعترفت فى جرأة أنها طلبت منه وهددته أمامهن ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾سورة يوسف: ٣٢. وفى قولها فاستعصم دليل على قوة الخلق، وصلابة الإرادة، فكيف يتصور مؤمن مع هذا أنه هم بها يريدها لنفسه، حاشاه عليه السلام.

ما ورد فى حق داود عليه السلام : فى قصة داود عليه السلام التى ذكرها الله بقوله ﴿وَهَلْ أَتَاكُم نَبَأُ الخصم.... ﴾سورة ص: ٢١ ما يدل على أن داود ارتكب معصية فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب.

وقد أكثر القصاص والمفسرون فى موضوع داود، ونسبوا إليه ما هو براء منه:-

والذى يبدو أنه الحق - والله أعلم بالصواب - أن الفتنة والاختبار فى أن داود عليه السلام أسرع بالحكم دون أن يستمع إلى رأيِ الخصم أو أن يطلب الإثبات، ثم أدرك أنه أخطأ فاستغفر ربه، أو أنه فتن لأنه خص يوماً للعبادة مع أن النظر فى شئون الرعية والقضاء بينهم عبادة، وقد تكون هناك أمور لا تحتمل تأخير الفصل فيها، فنبه الله سبحانه إلى ذلك بهذا المثل الواقع. وأياما كان، فليست هناك معصية ولا ذنب وإلا من قبل حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ما ورد فى حق نبينا عليه السلام:

وردت آيات من كتاب الله فيها عتاب للنبى عليه السلام فى مواضع مختلفة، وهذا العتاب يدل على أن النبى ارتكب شيئاً يستحق عليه العقاب، فكيف يتمشى هذا مع القول بعصمة الأنبياء؟

فمن ذلك قوله سبحانه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِين﴾سورة التوبة: ٤٣ فقد أسرع النبى فى الإذن لهم بالتخلف عن الجهاد، وكان عليه ألا يأذن حتى يتبين الذين صدقوا فى أعذارهم ممن كذبوا. وقوله سبحانه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى الآية﴾سورة عبس: ١-٤ فإعراض النبى من السائل والتفاته إلى غيره يصرف الناس عنه ويبغضهم فيه.

وعندما اختلف المسلمون فى أسرى بدر أخذ الرسول بقول أبى بكر فعفا وقبل الفدية، ولم يأخذ برأى عمر، وهو الجدير بالإعتبار، لأنهم بصدد تكوين دولة وإصلاح أوضاع، ولذلك جاء العتاب شديداً ﴿مَا كَانَ لِنَبِى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم لَولَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيم﴾سورة الأنفال: ٦٧،٣٨ حتى قال الرسول : لو نزل عذاب ما نجا منه غير عمر.

وهناك ما هو أقسى من ذلك وهو عتاب الرسول فى إخفائه ما اعلمه الله به من زواجه زينب بعد أن يطلقها زيد ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾سورة الأحزاب: ٣٧.

ففى هذه الآيات وأمثالها ما يدل على أن الرسول عليه السلام ارتكب ما يستحق عليه اللوم، وهذا يتنافى مع العصمة.

اب عن هذه الشبه :

أما الإذن لبعض الناس بالتخلف، فقد نشأ عن اجتهاد، فلم يخالف فيه أمراً ولم فيه عن الصواب، والمجتهد مأجور أخطأ أم أصاب، والعتاب إنما هو المنزلة الرفيعة يحتلها عليه السلام، وكذلك حكمه فى أسرى بدر.

أما إعراضه عن ابن أم مكتوم وعبسه عندما ألح فى السؤال، وهو بصدد دعوة ى قريش فلرغبته عليه السلام فى أن تلين قلوب هؤلاء فيهتدى بهديهم أتباعهم ن نصراً للدعوة، أما المؤمن فله من إيمانه حصن يحميه من الزيغ فلينتظر حتى يفرغ الرسول، ولكن الله سبحانه أراد أن يشعر رسوله بأن هذا الأعمى الضعيف الذى سعياً ليحصل الخير أفضل من هؤلاء الصناديد المعرضين، ولذلك كان أولى بالاهتمام اية، وفى ذلك تحقير لشأن أولئك المعرضين، ورفع لشأن المقبلين على الله، وليست معصية وإنما هو عتاب الحبيب للحبيب.

أما موضوع زيد وزينب فليس فيه يمس الرسول بشىء، فقد أراد الله سبحانه أن المبادىء تطبيقاً عملياً، فأراد أن يقضى أولا على عصبية النسب فقال ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم للَّهِ أَتْقَكُم﴾سورة الحجرات: ١٣ ثم زوج زينب القرشية الحبشية من زيد المولى، فلما زيد منها وطراً أراد الله أن يحقق الأمر الآخر وهو القضاء على عادة التبنى، فأخذت تسىء معاملة زيد، وزيد لا يحتمل ويشكو إلى الرسول فيقول عليه السلام : اتق واصبر، وكان يعلم بطريق الوحى أنها ستطلق من زيد ليتزوجها، ولما كان الأمر خاصاً خشى أن يقول الناس عنه يمس شرفة، ولذلك أخذ ينصح زيدا بإمساكها حتى نفد صبره ها، وهنا كان العتاب الرقيق : أتخشى أن يتهمك الناس فتعمل لهم حساباً والله أحق تخشاه فلا يضرك أحد فهو ناصرك ومؤيدك، فالتصريح بما اخبره الوحى كان ثقيلا على عليه السلام لأنه يخصه وليس من التشريع المأمور بتبليغه فعدم التصريح خلاف ى.

الصدق

ق فى اللغة ضد الكذب، وهو مطابقة الخبر الواقع، وفى الشرع مطابقة الخبر للواقع ب الاعتقاد.

فغير الخبر لا يوصف بصدق ولا كذب، والخبر المطابق للواقع فى الخارج وفى اعتقاد المتكلم صدق لغة وشرعاً؛ وغير المطابق فيهما كذب لغة وشرعا، والمطابق فى الواقع لا فى الإعتقاد لغة كذب شرعا والمطابق فى الإعتقاد لا فى الواقع صدق شرعا كذب لغة.

والناس مطالبون بالصدق منهيون عن الكذب، والأنبياء معصومون من الكذب، والصدق الذى به التكليف هو الصدق شرعا لأنه المقدور للنفس ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والدليل على وجوب الصدق لهم عليه السلام : أنهم لو لم يصدقوا للزم الكذب فى خبره سبحانه، لأنه صدقهم بالمعجزة المنزلة منزلة قوله : صدق عبدى فيما يبلغ عنى، وتصديق الكاذب كذب، والكاذب محال علي الله، فيستحيل ملزومه وهو كذب الأنبياء، ويجب صدقهم، يقول الله سبحانه ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾سورة الحاقة: ٤٤ أى لو كذب علينا وافترى وقال مالم نقل ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾سورة الحاقة: ٤٥،٤٦ ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾سورة المائدة: ٦٧ وهذا يدل على أنهم لا يكذبون فى دعوى الرسالة ولا فى الأحكام الشرعية.

أما صدقهم فى غير ذلك من أمور الدنيا وحديث الناس والتكلم فى المباحات فهو داخل فى الأمانة. فقد حفظ الله ظواهر وبواطن أنبيائه عن التلبس بمنهى، فلم نكن فى حاجة إلى التحدث عن الصدق بذاته، وإقامة الدليل على وجوبه لهم لو لا أنه الاساس الذى تقوم عليه دعوة الأنبياء والرسل، ولذلك أثبته المتكلمون بطريقتين : أثبتوه ضمن الأمانة ثم أثبتوه بخصوصة.

ولم يؤثر عن نبى أو رسول كذب أبداً حتى المزاح، فقد كان عليه السلام يمزح ولا يقول إلا حقاً. أما قوله لذى اليدين : «كل ذلك لم يكن» عندما قال له أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ حين سلم ممن ركعتين، فليس ذلك كذبا لأنه مطابق للواقع فى اعتقاده ولا عبرة إلا بالمعنى الشرعى.

وقوله لمن يؤبرون النخل : لو تركتموها لصلحت. فتركوها فشاصت، ليس خبراً وإنما هو رجاء من قبيل الإنشاء، فلا يوصف بصدق ولا كذب، وعدم وقوع المرجو لا يعد نقصاً.

الفطانة

الفطنة والفطانة : الفهم وحدة العقل وذكاؤه، والتيقظ لأساليب المجادلين وإبطال دعواهم الفاسدة وإلزامهم الحجة، وهى من ألزم الصفات للأنبياء والرسل، لأن مهمتهم نشر الدعوة وتبليغ الرسالة وإبطال العقائد الفاسدة وغرس العقائد الصحيحة، وكل ذلك يحتاج إلى الحذق والذكاء والتيقظ، ولو كانت فيهم بلادة فى الفهم وغفلة عن أساليب الجدال لضاعت الحكمة فى إرسالهم، ولما استطاعوا أن يقيموا الحجة على خصومهم، أما وقد أقاموا الحجة ونشروا الدعوة فقد ثبتت لهم الفطنة.

وقد وصف الله سبحانه كثيراً من أنبيائه بحسن المجادلة والتيقظ لأساليب المعاندين، فقال فى حق إبراهيم عليه السلام مشيرا إلى محاجة إبراهيم قومه ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾سورة الأنعام: ٨٤ وقال حكاية عن قوم نوح ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾سورة هود: ٣٢ كما حكى لنا جدال هود وصالح وغيرهم من الأنبياء، وأمر خاتم المرسلين بأن يجادل بالحسنى فقال ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ سورة النحل: ١٢٥ كما قال ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾سورة العنكبوت: ٤٦.

وإذا ثبتت الفطانة للبعض ثبتت للكل لأنها كمال فى حقهم، وهى لازمة للأنبياء والرسل على السوء، وإن كان الواجب للأنبياء مطلق الفطانة. فإن الواجب للرسل كمالها.

التبليغ

هو إخبار الناس بالوحى الذى أنزل عليه وأمر بتوصيله للناس. الغاية من إرسال الرسل هداية للناس، فهم واسطة بين الخلق والخالق، مهمتهم تلقى الوحى وإيصاله للناس، فلو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه لخانوا الأمانة، وخيانتهم محالة.

ولوكتموا لكنا مأمورين بكتمان العلم لأننا مأمورون باتباعهم، وكاتم العلم ملعون، بدليل قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِمَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾سورة البقرة: ١٥٩. ولو كتموا لأضاعوا المهمة التى جاءوا من أجلها ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾سورة المائدة: ٦٨.

وتبليغ النبى عليه السلام آيات العتاب الخاصة به كقوله سبحانه ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ...الخ﴾سورة الأنفال: ٦٧ وقوله ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيْهِ وَتَخْشَى النَّاس وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاه﴾سورة الأحزاب: ٣٧ وقوله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾سورة عبس: ١،٢ تبليغ هذا العتاب دليل على الأمانة وعدم الكتمان، فلو كتم شيئا لكتم هذا العتاب.

على أن النبى لو كتم شيئا لماأقره الله على كيمانه، فقد توعده على الافتراء. ويقابل ذلك التوعد على الكتمان، وقد صدقه الله وأيده بالمعجزة ولو كتم شيئاً لفضحه ولسلب منه تأييده وبذلك ثبت أنهم بلغوا ولم يكتموا.

يقول صاحب الجوهرة :

واجب فى حقهم الأمانة ... وصدقهم وضف له الفطانة
ومثل ذا تبليغهم لما أتوا ... ويستحيل ضدها كما رووا.

المستحيل فى حق الرسل والأنبياء

عرفنا أنه يجب للرسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته كل كمال إنسانى بطريق العموم، ويحب لهم الأمانة. والصدق، والفطانة والتبليغ بطريق الخصوص، ويلزم مر ذلك أنه يستحيل عليهم أضدادها، وهى استحالة شرعية ثبتت بالأدلة النقلية ويؤيدها العقل. فيستحيل عليهم كل نقص بشرى يؤدى إلى خستهم والنفور؛ منهم عموما، ويستحيل عليهم بطريق الخصوص، الخيانة، والكذب، والبلادة، والكتمان.

إذ أنهم لو اتصفوا بشىء من هذه الصفات لنفر الناس منهم وانفضوا من حولهم ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيْظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك﴾سورة آل عمران: ١٥٩ فيفوت الغرض الأسمى من الرسالة، وتضيع حكمة الاصطفاء والاختيار.

الجائز فى حقهم عليهم السلام

يجوز فى حقهم عليهم السلام جميع الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم

العلية، كالأعراض المتعلقة بالصحة سواء أكانت مما لا يستغنى عنه كالأكل والشرب والنوم، أو التى يستغنى عنها بحبس النفس أو بغير حبس كالجماع فى الحل.

والأنبياء معصومون من الوقوع فى المحرم، فهم لا يتناولون المباح إلا إذا كان حلالا ، فهم الذين يعتقدون أن كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به فلا يأكلون الربا ، ولا يغشون ولا يجامعون، إلا ما أحل الله، فلا يطئون المجوسية ولا المشركة لابعقد ولا بملك يمين، ولا يعقدون على الأمة ولو كانت مسلمة لأنه إنما تنكح لخوف العنت ولعدم القدرة على المهر، والنبى لا يخاف العنت لأنها معصوم، ولأنه يقدر على المهر، بل ويجوز له النكاح بغير مهر فلا يحل له زواج الأمة.

ولا يطئون زوجاتهم وإمائهم صائمات صوماً مشروعاً ولا معتكفات ولا حائضات ولا نفساء ولا محرمات بحج أو عمرة. ولا يجوز الاحتلام على الأنبياء لأنه من الشيطان وقد ورد : ما احتلم نبى قط. كما صححه النووى، فإذا كان مجرد فيضان ماء من غير تلاعب من الشيطان فلا مانع منه.

يجوز عليهم المرض غير المنفر، يقول رسول الله: إنى لأوعك كما يوعك رجلان منكم. كما يجوز الإغماء غير الطويل. أما الجنون فهو نقص فيستحيل قليله وكثيره، وكذلك الجذام والبرص والعمى وكل ما يدعو إلى نفره الناس، أما قول الله فى حق يعقوب ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾سورة يوسف: ٨٤ فلم يكن مابه عمى، وإنما كان حجابا على العين من تواصل الدموع، ولذلك لما جاء البشير عاد إليه بصره، أما شعيب فلم يثبت أنه كان ضريراً ، وما قيل فى حق أيوب من الأمراض المنفرة فذلك من أقاصيص المختر عين والإسرائليات الكاذبة التى تهدف إلى تشكيك الناس فى معتقداتهم، والحق أن الذى كان به مرض داخلى شديد غير منفر، وهو نوع من الابتلاء والاختبار كشفه الله عنه عندما اتجه إليه ودعاه ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾سورة الأنبياء: ٨٣،٨٤.

السهو والنسيان : السهو فى اللغة الغفلة، والنسيان ضد الذكر والحفظ، وفرقوا بين الساهى والناسى بأن الناسى إذا ذكرته تذكر والساهى بخلافه.

والذهول : ذهاب الشىء من الحافظة والمدركة أو من أحدهما ، والأول نسيان والثانى سهو والغفلة السهو.

فهل يجوز السهو والنسيان على الأنبياء؟

أما السهو فمستحيل فى الأخبار مطلقاً سواء أكانت بلاغية كقولهم : القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، أم كانت غير بلاغية كقولهم قام زيد وقعد عمر.

أما فى الأفعال فهو جائز للتشريع كحديث ذى اليدين، ولكن السهو لا ينشأ عندهم من الاشتغال بغير الله، وإنما يسهون عما سوى الله، فينصرفون بقلوبهم إليه ويغفلون عما هم فيه وهذا تعظيم الله.

وأما النسيان فى البلاغيات فمستحيل قبل التبليغ، سواء أكانت قولية كالجنة أعدت للمتقين، أو فعلية كصلاة الضحى إذا أمرهم الله بفعلها ليقتدى بهم فيها، فلا يجوز نسيان شىء من ذلك قبل التبليغ بالقول أو بالفعل، أما بعد التبليغ فيجوز النسيان.

والنسيان بالنسبة لهم من الله سبحانه لا من الشيطان، لأنه لا سبيل له عليهم ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَان﴾سورة الحجر: ٤٢ أما قول فتى موسى ﴿وَمَا أَنْسَانِيْهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾سورة الكهف: ٦٣ - على أنه نبى - فهو من قبيل التواضع والأدب بنسبة الشر إلى غير الله، وقد كان النسيان حقاً من الله لحكمة يعلمها بدليل قوله سبحانه على لسان موسى ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾سورة الكهف: ٦٤.

ووسوسة الشيطان لآدم تمثيل ظاهرى، والممتنع هو لعبه ببواطنهم وقلوبهم، فقلوب الأنبياء متعلقة بربهم لا تغفل عنه ولا تحيد، وما يفعلونه مما يجوز على البشر ولا يؤدى إلى نقص فى مراتبهم إنما يتعلق بظواهرهم حتى يندمجوافى البيئة التى هم فيها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُم أَزْوَاجًا وَذُرِّيَة﴾سورة الرعد: ٣٨.

يقول صاحب الجواهرة :

وجائز فى حقهم كالأكل ... وكالجماع للنسا فى الحل

أى يجوز على ذات الرسل والأنبياء ما ليس واجبا ولا مستحيلا سواء كان متعلق بالصحة التى لا يستغنى عنها عادة مثل الأكل والشرب والنوم، أو التى يمكن الاستغناء عنها كالجماع بدون حبس النفس على أنه من باب التفكه أو بحبس النفس أنه من الضروريات.

المعجزة

مقدمة :

أودع الله فى هذا الكون قوانين طبيعية يسير على سننها، واستطاع الإنسان أن يدرك كثيراً من هذه القوانين وأن يستغلها فى صالح الإنسانية، وبعض هذه القوانين بديهية كإحراق النار للخشب، وقطع السكين للحم، وإطفاء الماء للنار، وبعضها نظرى يحتاج فى إثباته إلى تجارب كتمدد المعادن بالحرارة وانكماشها بالبرودة، وكقضاء بعض العقاقير على أنواع خاصة من ميكروبات الأمراض.

ولكننا نجد فى بعض الأحوال أن هذه القوانين الطبيعية تتخلف، ويكون تخلفها غير خاضع لسبب علمى أو لقانون طبيعى آخر، ونجد أن هذا التخلف يقع فى حدود ضيقة، وعلى أيدى أفراد مخصوصين، لا يستطيع غيرهم أن يجاريهم فيما يفعلون، فيقول الناس إن هذا أمر خارق للعادة يعجز الكافة عن الإتيان بمثله، وقد تناول العلماء المفكرون هذه الأمور الخارقة للعادة بالبحث فلم يجدوا لها محدثاً إلا الله سبحانه، فهو الذى خلق القوانين الطبيعية، وهو القادر على تغييرها وإخلافها.

ولكن الذين تجرى هذه الخوارق على أيديهم ليسوا صنفاً واحداً، وبالتحرى والبعث وجد أنهم ينحصرون فى أنواع ستة: فقد يظهر الأمر الخارق على يدى شخص معروف بالصلاح، أو مستور الحال، أو فاسق، والمعروف بالصلاح إما أن يدعى النبوة أولا، والفاسق إما أن يكون الخارق وفقاً لمطلوبه أولا، كما يأتى ذلك تفصيلا :

(١) المعجزة : لغة مأخوذة من العجز أى الضعف وعدم القدرة.

واصطلاحا : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى، أى دعوى النبوة أو الرسالة، مع عدم إمكان المعارضة.

أو هى كما يقول السعد: أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدعى البنوة عند تحدى المفكرين على وجه يعجز المفكرون عن الإتيان بمثله.

وهذا الأمر الذى يظهر لا بد أن يكون حادثاً، فتخرج بذلك صفات البارى القديمة عن تعريف المعجزة : والأمر الحادث إما أن يكون قولا: كالقرآن الكريم أو فعلا: كانقلاب العصا حية، أو تركا: كعدم احراق النار لإبراهيم، وهذا الأمر لابد أن يكون على خلاف

العادة والسنة والطبيعة، فلا يخضع لأسباب، ولا ينتج عن مقدمات، فإذا كان كذلك فليس من المعجزة فى شيء كتمدد المعادن بالحرارة وانكما شها بالبرودة.

ولا بد أن يظهر هذا الخارق على يد مدعى النبوة ليكون تصديقا له فى دعواه، ويكون بمنزلة قول الله سبحانه: صدق عبدى فيما يبلغ عنى.

(٢) الكرامة : فإذا ظهر الخارق على يد غير مدعى النبوة، وكان ظاهر الصلاح، فهذه هى الكرامة التى يجريها الله سبحانه على يد أوليائه تكريماً لهم وتعظيما لشأنهم.

(٣) المعونة: أما إذا كان الشخص من عامة الناس مستور الحال، وقد وقع فى شدة فأخرجه الله منها بشيء خارق للعادة فهذه هى المعونة.

(٤) ألإستدراج: وقد تظهر هذه الخوارق على يد ظاهر الفسق والفجور أو الكفر والإشراك، وقد تكون على وفق مراده، فهى إستدراج ليزيد طغيانه وغرووه ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

(٥) ألإهانة: وقد تكون على خلاف مطلوبه وعكس مراده، تكذيبا له فى دعواه فهى إهانة، كما حدث لميسلمة الكذاب عندما اراد أن يفعل كرسول الله عليه السلام، فتفل فى عين عوراء لتبرأ فعميت الصحيحة.

(٦) الإرهاص: والخارق الذى ظهر على يد من هيأه الله لتحمل رسالته وهو لا يزال فى دور التكوين يكون إرهاصا وتأسيساً للنبوة، ليلتفت نظر القوم إليه وتتوجه القلوب نحوه؛ كإظلام الغمام للنبى عليه السلام قبل البعثه.

فالخوارق الستة إذن هى: (١) المعجزة وتظهر على يد مدعى النبوة.
(٢) الكرامة « « « ظاهر الصلاح
(٣) المعونة « « « مستور الحال.
(٤) الإستدراج « « ظاهر الفسق وفق مراده.

(٥) الإهانة « « « عكس مراده.
(٦) الإرهام « « « من يبعث بعد ذلك.

شروط المعجزة:

قد إشترطوا فى المعجزة بعد ذلك أن تكون موافقة للدعوى، وألا تكون مكذبة للمدعى من غير عاقل كما إذا قال : آية صدقى أن ينطق هذا الجماد أو هذا الحيوان فنطق قائلا: إنك مفتر كذاب ، أما إذا كان التكذيب من عاقل فلا عبرة بالتكذيب، كما إذا قال : آية صدقى أن ينطق هذا الميت فنطق مكذبا له، فيكون نطقه معجزة ولا عبره بتكذيبه لأنه عاقل، ولعله اختار الكفر على الإيمان فعبر عن رأيه باختياره. كما إشترطوا ألا تكون فى زمن نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها فى نهاية العالم، وما يقع من الدجال كأمره السماء أن تمطر فتمطر، وأمره الأرض أن تنبت فتنبت فهذا ليس من المعجزة لأنه وقع فى زمن خرق العادة اختباراً وامتحاناً.

السحر والشعبذة:

السحر هو التمويه بالحيل والتخاييل، والشعوذة أو الشعبذة خفة اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها كفعل الحواة.

وكلاهما فى ظاهره خرق للعادة، ولكنه يخضع للتعليم والتعلم، ويمكن أن يأتى أكثر من شخص بأفعال متشابهة إذا تعلموها، ثم إنهما ليسا مقرونين بدعوى الرسالة فلا يكون أحدهما معجزة، ولا يأتى السحر أو الشعوذة، ظاهر الصلاح ولا مستور الحال فليسا من الكرامة ولا من المعونة، وإنما يأتى هذه الأفعال الفساق والمرتذقة يموهون بها على العامة لسلب أموالهم بغير عناء، فهو أقرب إلى الإستدراج، والصحيح أنه ليس من الخوارق أصلا لأنه يخضع للتعليم فكل من أخذ بأسبابه يستطيع أن يأتى بما تعلمه منه، ويرى المعتزلة أن السحر لا حقيقة له ولا يخرج عن أن يكون خفة فى اليد كالشعبذة.

والحق ما يراه أهل السنة من أن للسحر حقيقة تخضع للتعليم، وقد ثبت بالقرآن والسنة فالله يقول فى قصة سحرة فرعون ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾سورة الأعراف: ١١٢ ولا حجة للمعتزلة فى قوله سبحانه ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾سورة طه: ٦٦ ولم يقل تسعى على الحقيقة لأن التخييل من السحر، ولا فى قوله ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾سورة الأعراف: ١١٢ أى ولم يغيروا الحقائق، لأن سحر الأعين تغيير للحقائق.

وقد إتفق المفسرون على أن سبب نزول سورة الفلق سحر لبيد بن الأعصم الرسول عليه السلام، وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سحر رسول الله ﷺ يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما فعله......الخ وفىآخره يقول عليه السلام قد عافانى الله.

فقول الرسول عليه السلام قد عافانى الله، دليل على حقيقة السحر وتأثيره، فإن المعافاة إنما تكون برفع العلة وزوال المرض.

والمشاهدة تدل على أن له حقيقة تخالف الشعوذة وخفة اليد، فالساحر الهندى الذى زار القاهرة سنة ١٩٦٠ يأتى بأعاجيب، فهو يوهمك أنه يقطع فتاة نصفين بمنشار كهربائى ثم يعيدها إلى ما كانت عليه، وهو يفعل ذلك بطرق علمية خاصة تعلمها ويمكن أن يعلمها غيره فليست هذه الأعاجيب من الخوارق فى شىء.

حكم المعجزة:

وتأييد الله سبحانه لرسله عليهم السلام بالمعجزات تفضل منه وتكرم عليهم حتى تسهل مهمتهم ولا تقوم الحجة عليهم.

وليس التأييد بالمعجزة واجباً على الله سبحانه كما يقول الفلاسفة وكما ينسب إلى المعتزلة، حتى لا تضيع فائدة الإرسال الواجب فى رأيهم بناء على القول بالصلاح والأصلح المبنى على التحسين والقبيح العقليين. وهذا باطل لأن الله لا يجب عليه شىء فهو سبحانه فعّال لما يريد كما مر.

وليست المعجزة مستحيلة كما يقول السمنية والبراهمة بناء على استحالة إرسال الرسل عندهم والاكتفاء بالعقل، لأن الواقع بكذبهم. فقد جاء الأنبياء والرسل مؤيدين بالمعجزات.

فهى ممكنة عقلا واقعة فعلا وهو أهل الحق، ومخالفتها للقواعد الطبيعية العامة

التى أودعها الله الكائنات التى تخرجها عن إمكانها، فالله الخالق الذى أودع أسباباً خاصة فى الكائنات قادر على أن يودع أسباباً تناقضها فكل ذلك مقدور له سبحانه.

دلالة المعجزة على صدق الرسول:

المعجزة تصديق من الله لرسوله فى دعواه الرسالة، فدلالتها تفيد اليقين لمن شاهد المعجزة وعاينها ورأى عجز الجميع عن الإتيان بمثلها، وكذلك تفيد اليقين لمن لم يشاهد بنفسه وإنما نقل إليه الخبر عن طريق التواتر إذا كان فى موضع بعيد عن الرسول أو فى عهد بعد عهد الرسول، ولم يخالف أحد من العلماء فى أن دلالة المعجزة دلالة يقينية.

ولكنهم إختلفوا بعد ذلك فى هذه الدلالة اليقينية هل هى عقلية، أو وضعية أو عادية، فالذين قالوا إنها دلالة عقلية بنوا رأيهم على أن جريان المعجزة على يدى ومدعى الرسالة وتحدى الرسول لقومه وعجزهم عن الإتيان بمثل ما أتى به يستنبط منه العقل السليم أن الله أيده بالمعجزة وأراد تصديقه فى دعواه فيستحيل عقلا أن تأتى معجزة على يد كذاب.

أما الذين قالوا إنها وضعية، فقد رأوا أن دلالة المعجزة على صدق الرسول كدلالة الألفاظ على المعانى للموضوعة لها، فهى فى منزلة قول الله: صدق عبدى بما يبلغ عنى، ودلالة هذه الألفاظ وضعية فكذلك ما نزل منزلتها، وعلى هذا يستحيل أن تجرى المعجزة على يد كاذب، لأنه يلزم عليه أن يكون الله كاذبا وهذا محال وهذا الرأى هو المشهور بين علماء الكلام.

وقد اختار الأشارة أن دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عادية، فقد جرت عادة الله سبحانه أن يخلق المعجزة على يد الرسول تأييداً لرسالته، ولم تجر عادته بتأييد الكاذب فى دعواه، بل جرت بفضيحته وإهانته كما حدث لمسليمة الكاذب، كما جرت عادته سبحانه بأن يخلق فى نفس التابعين تصديقاً للرسل عندما يشاهدون المعجزة أو عندما تبلغهم بطريق التواتر.

وعادة الله هذه فى تأييد رسله بالمعجزات لم تتخلف منذ إرسال آدم إلى إرسال خاتم الأنبياء عليهم جميعاً السلام، وهذه العادة وإن أمكن تخلفها عقلا لأنها ليست من

قبيل الواجب، فإنها تفيد القطع عادة لعدم تخلفها فى الواقع.

يقول صاحب الجوهرة : بالمعجزات أيدوا تكرما.

بعض معجزات الأنبياء

أيد الله أنبياء السابقين بمعجزات حسية تتناسب مع عقلية الجماعات التىأرسل إليها النبى، فقد كان كل نبى يرسل إلى قومه خاصة فتكفيه المعجزة المادية التى يراها قومه لتقوم عليهم بها الحجة، وكثيراً ما كانوا يطلبون الخوارق متحدين الرسل فيجابون إلى البعض إذا كان فى ذلك مصلحة، ويأبى الله عليهم إجابة البعض الآخر لما فيه من التعنت وعدم الرغبة فى الاقتناع.

من هذه المعجزات انقلاب العصا حية فى يد موسى تلقف ما يأفك الكفرة، وضم يده إلى جناحه وإخراجها بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون قومه، ومنها ناقة صالح التى خرجت أمام القوم من صخرة صماء، وشرط عليهم أن يكون لها شرب يوم ولهم يوم، فضاقوا بها ذرعا، فانبعث أشقاهم فعقر الناقة فحل عليهم غضب الله ونزلت بهم الكارثة وأخذتهم الصاعقة، ومنها معجزات عيسى كإحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص وإخبارهم بما فى بيوتهم من مدخراتهم، ومنها ما طلبوه من عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء فطلبها عليه السلام من الله، ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُم فَمَن يُكَفِّرُ بَعْدَ مِنكُم فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحداً مِنَ الْعَالَمِين﴾سورة المائدة: ١١٥.

وهناك أمور طلبت بتعنت وعدم رغبة فى الهداية أخبرنا الله عن بعضها بقوله ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾سورة الإسراء: ٩١،٩٠ ألآيات. وهذه لم يستجب الله لها لظهور التعنت فيها.

معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام

ولما كانت رسالة نبينا محمد ﷺ عامة خالدة، فليست مختصة بزهنه ولا بقومه، اقتضت حكمة الله سبحانه أن يؤيده بمعجزات عقلية تصلح دليلا خالدا يطوف بقاع الأرض، ويطوى السنين والدهور معلناً صدق الرسالة، متحدياً الإنس والجن أن يعارضوها أو يجدوا فى الشريعة ثغرة ينفذون منها، تلك المعجزة الخالدة هى القرآن الكريم.

وإذا كان القرآن موجها إلى أصحاب العقول المفكرة. فإن الله سبحانه لم يهمل عوام العرب الذين عاصروا الرسول ﷺ، فأظهر الله على يديه معجزات مادية تتناسب مع عقولهم حتى يسرعوا بالدخول فى الإسلام ليساهموا فى بناء ذلك الصرح الشامخ.

حكم منكر المعجزات:

وقد نقلت المعجزة الكبرى - القرآن الكريم - إلى العالم أجمع بطريق التواتر، فمنكر هذه المعجزة يعتبر كافراً. أما المعجزات المادية فمنها المشهور كنبع الماء بين أصابعه عليه السلام فمنكر فاسق، ومن المعجزات ما لم يبلغ هذا القدر الشهرة، وإنما نقل عن طريق صحيح أو حسن، فلا يفسق منكره وإنما يعزر فحسب.

المعجزات الخالدة القرآن الكريم

القرآن الكريم أو كلام الله:

يطلق كل من هذين اللفظين ويراد به صفة الله القديمة، صفة الكلام، أو اللفظ المنزل على النبى ﷺ المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه. ولكن علماء التوحيد أطلقوا كلام الله وأرادا به الصفة القديمة، وأطلقوا لفظ القرآن وأرادوا به اللفظ الحادث.

والقرآن أعظم معجزاته عليه السلام، لأن التحدى به لايزال قائما إلى أن تقوم الساعة ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كَانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾سورة الإسراء: ٨٨.

ثم إنه ليس مرتبطا بالرسول ﷺ كبقية المعجزات، فعصا موسى لا تنقلب حية إلا فى يده، ولا يستطيع أحد من أتباعه أن يخرج يده بيضاء من غير سوء كما خرجت يد موسى، وإحياء الموتى لا يأتى إلا على يد عيسى بذاته، ونبع الماء إنما كان من بين أصابع محمد ﷺ، وأما القرآن الكريم فقد تلاه محمد ﷺ وحفظه أتباعه، وكل منهم يتلوه، كما تلاه محمد، وينقل ألفاظه من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، والهداية قائمة والتحدى موجود والمعجزة دالة على الرسالة من غير حاجه إلى بقاء محمد ﷺ ليحمل المعجزة بنفسه ويتحدى المعاندين.

وقد أشتغل القرآن الكريم على تشريع حكيم لسياسة الدنيا وجعلها طريقاً موصلا إلى الآخرة، وقد إعترف أعداء الإسلام بمنزلة هذه الشريعة وجعلها مرجعاً من مراجع القوانين.

إعجاز القرآن:

كان العرب إبان بعثة النبى ﷺ أئمة الفصاحة والبلاغة، يديرون الألفاظ والمعانى فى خطبهم وأشعارهم بأساليب يطرب لها الذوق السليم، فكان لا بد أن تأتى المعجزة من قبيل ما برع فيه القوم، فلما سمعوا تلك الآيات البينات ملكت عليهم قلو بهم وعقولهم وخروا ساجدين لفصاحتها، ولكن شيطانهم وهواهم أبى على كثير منهم الإذعان لهذه الهداية، فرموا الرسول تارة بأنه ساحر، وأخرى بأنه شاعر، وثالثة بأن ما أتى به أساطير الأولين، ولم تفتّ هذه الاتهامات فى عضده ﷺ، وإنما استمر فى دعوته متحديا لهم أن يعارضوا هذا التنزيل المحكم فيقول ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾سورة الطور: ٣٤ ولكنهم يقفون حيارى، ومع ذلك يستمرون على جحودهم فيتنزل معهم ويخفف تحديه فيطلب معارضة عشر سور فيقول ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾سورة هود: ١٣ فلا يستطيعون الإجابة! فيطالبهم بسورة واحدة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾سورة البقرة: ٢٣ ثم يسجل عليهم العجز وينذرهم مغبة الكفر فيقول ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾سورة البقرة: ٢٤ ولا يقتصر التعجيز على المرجودين فى عهده عليه السلام وإنما يمتد إلى كل زمان ومكان وإلى الإنس والجن ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾سورة الإسراء: ٨٨.

القدر المعجز من القرآن:

تحدى الله العرب أن يأتوا بمثل القرآن ثم تنزل معهم إلى مطالبتهم بمعارضة سورة واحدة ولم يتنزل معهم أكثر من ذلك، ولذلك إتفق العلماء على أن القرآن بجملته معجز، ثم إختلفوا فى أقل ما يقع به الإعجاز، فاختار الجمهور أن أقصر سورة يتحقق بها الإعجاز. وكذلك ثلاث آيات، ولكن القاضى عياضا رأى أن الآية الواحدة أو الآيتين أو الثلاث إن كانت فى قدر السورة القصيرة فإنه يقع بها الإعجاز، وهو المعتمد، لأن ظاهر القول الأول أن الآية الواحدة – وإن كانت طويلة كآية الكرسى وآية الدين – لا يقع بها الإعجاز وليس هذا بشىء فإن الآية الطويلة معجزة كالسورة القصيرة.

جهة فإن إعجاز القرآن:

أنزل الله القرآن الكريم معجزة لنبيه مصدقة لدعواه، وقد تحدى العرب أن يأتوا بمثل سورة منه فلم يستطيعوا مع أنهم أمراء الكلام، وقد خروا ساجدين لبلاغته وفصاحته.

ولم يكن إعجازه قاصراً على البلاغة والفصاحة، وإنما كان ذلك وجهاً من وجوه إعجازه فحسب. وهناك وجوه إعجاز كثيرة غير البلاغة والفصاحة نذكر بعضا:

١ – نزل القرآن منجما فى ثلاثة وعشرين سنة تبعا للمناسبات والظروف، ثم تكون من آياته هذا النظم المحكم، فأصبح كتاباً واحداً متناسقاً تناسب الآية الآية ، والسورة السورة، لا تجد فيه عوجاً ولا أمتا.

٢ – اشتمل على إشارات إلى كثير من عجائب الكون ومحتويات هذا الوجود مما لا يعلمه العرب الأميون ولا رسولهم الأمى كقوله سبحانه ﴿وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِن أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ ونَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيرُ صنوانٍ يُسْقَى بمَاء واحِد﴾سورة الرعد: ٤ وقوله ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْر...... ﴾سورة فاطر: ٢٧.

٣ – ذكر القرآن قصص السابقين من الأنبياء والمرسلين وما حدث لهم مع أممهم مما كان يكتمه أهل الكتاب فلم يجرءوا على تكذيب شىء من أنبائه.

٤ – أخبر عن أمور مستقبلة، وقعت كما أخبر وصدقتها الحوادث، كقوله سبحانه ﴿ألم. غُلِبَتِ الرُّومِ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِن بَعْد غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون فِى بِضْعِ سِنِين﴾سورة الروم: ١-٣ كقوله ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ.....﴾سورة الفتح: ٢٧.

٥ – جمع القرآن بين دفتيه تشريعاً حكيماً تناول جميع مناحى الحياة. إقتصادية كانت أم سياسية أم إجتماعية، وأثبت التطبيق الصحيح أن هذه التشريعات أصلح ما حكمت به الأرض منذ نشأتها إلى أن تقوم الساعة.

٦ – لم يستطع أعداء القرآن – مع كثرتهم – أن ينالوا منه، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيراً، ولسهلت مهمتهم فى طعنه والقضاء عليه، ولكنه تشريع خالد وعد الله بحفظه فى قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾سورة الحجر: ٩ وما هى ذى القرون تتوالى وهو لا يخلق على كثرة الرد.

٧ – نزول هذا القرآن المعجز على نبى فى بيئة أمية لم تأخذ بقسط من التعليم ولم تنتشر فيها معرفة ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّين رَسُولاً مِنهُم يَتْلُوا عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيْهِم وَيُعَلِّمُهم الْكِتَاب وَالْحِكْمَة وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين﴾سورة الجمعة: ٢.

هذا قليل من كثير من وجوه إعجاز القرآن الكريم لم يستطع، معها العارضون أن يأتوا بشىء مثله وهذا هو رأى الجمهور. هناك رأى آخر ضعيف لبعض العلماء يقول: إن العرب كانوا يستطيعون – لو تركوا وشأنهم – أن يأتوا بمثل القرآن وأن يعارضوه، لأنهم ملوك البيان وأئمة الفصاحة وذوو العقول الناضجة، ولكن الله سبحانه صرفهم عن الإتيان بمثله وسلب منهم قوة المعارضة ولذلك وقفوا عاجزين، وهذا معنى قولهم إن القرآن معجز بالصرفة، أى بصرف الله العرب عن معارضته، وهو رأى ضعيف لا قيمة له كما قدمت.

أمثلة من المعجزات المادية له عليه السلام:

ذكر القرآن الكريم كثيراً من المعجزات المادية للأنبياء، واقتصر على ذكر بعض المعجزات المادية لرسولنا عليه السلام إشارة إلى أن إعتماد الدعوة الخالدة ليس إلا على القرآن، تلك المعجزة الباقية لأن رسالة الإسلام لن تنتهى بانتهاء حياة محمد ﷺ، ومع ذلك فقد أثبت القرآن وجود تلك المعجزات بنسبة القدرة الكاملة لله سبحانه، حين يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيْرٌ﴾سورة البقرة: ٢٠.

إنشقاق القمر:

طلب كفار مكة من الرسول عليه السلام أن يريهم آية على صدقه، فأشار إلى القمر فأصبح فرقتين يبدو الجبل بينهما، وقد سجل القرآن الكريم ذلك الحدث التاريخى، وجعله علامة على قرب الساعة، وندد بالكفار لإعراضهم عن الحق فى قوله سبحانه ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَر، وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾سورة القمر: ١-٣ وقد رأى بعض المفسرين أن القمر لم ينشق فعلا وإنما سينشق عن قرب الساعة على حد قوله سبحانه﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّه﴾سورة النحل: ١ ويرد هذا القول ما أخرجه البخارى وغيره حيث يقول : إنشق القمر فرقتين، وفى لفظ أخر يقول أنس : سأل أهل مكة النبى عليه السلام آية فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت اقتربت الساعة إلى قوله سحر مستمر.

وقد حمل المنكرين على رأيهم شبهة يسيرة وهى : أن الانشقاق آية عظمى تظهر للناس جميعاً وليست خاصة بمن طلبها. ولو وقعت لرآها الناس حميعاً ولم ينقل إلينا ذلك.

ويرد هذه الشبهة أن الآية كانت ليلية، ولم يكن الناس فى الآفاق يترصدونها فمن

التفت بطريق المصادفة فقد رآها، بخلاف أهل مكة الذين طلبوا الآية، فقد كانوا يترصدونها فرأوها جميعاً، وقال كفارهم هذا سحر مستمر!، على أنه قد روى أنه لم تفتهم هذه الملاحظة فبعثوا إلى أهل الآفاق يسألونهم فأخبرهم بعض أهل الآفاق أنهم رأوا القمر منشقا نصفين فلم يجد الكفار بداً من أن يطعنوا فيه بأنه سحر مستمر.

تسليم الحجر والشجر على الرسول عليه السلام:

روى جمع من الصحابة رضوان الله عليهم أحاديث تسليم الحجر والشجر على الرسول عليه السلام، ومن ذلك ما روى عن على رضى الله عنه أنه قال كنت مع النبى ﷺ بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها، فما استقبله حجر ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. وروى القاضى عياض من حديث أبن مسعود فى حديث استماع الجن للرسول عليه السلام: أن الجن قالوا من يشهد لك؟ قال هذه الشجرة، تعالى يا شجرة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع.

حنين الجذع:

وأنين الجذع وحنينه عندما تركه عليه السلام إلى المنبر أشهر من أن ينكر، فقد خرجه أهل الصحيح ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم أنس وإبن عباس وأبن عمر، وقد تواتر خبره وأشتهر أمره.

قال جابر: كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل، فكان النبى ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار. وفى رواية أنس حتى أرتج المسجد بجواره. وفى رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به. وفى رواية المطلب وأبى: حتى تصدع وانشق، حتى جلء النبى ﷺ فوضع يده عليه فسكت، زاد غيره: فقال النبى ﷺ: إن هذا بكى لما فقد من الذكر. وزاد غيره: والذى نفسى بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة، تحزنا على رسول الله ﷺ. وفى حديث بريدة قال النبى: إن شئت أردك إلى الحائط - أى البستان - الذى كنت فيه تنبت لك عروقك ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك فى الجنة فيأكل أولياء الله من ثمرك، ثم أصغى له النبى ﷺ يستمع ما يقول فقال: بل تغرسنى فى الجنة فيأكل منى أولياء الله وأكون فى مكان لا أبلى فيه، فسمعه من يليه، فقال النبى ﷺ: فقد فعلت، ثم قال: اختار دار البقاء على دار الفناء وأمر به فدفن تحت المنبر، فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال: يا عباد الله الخشبة تحن لرسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه. ا هـ من الشفا للقاضى عياض.

تسبيح الحصا:

روى ثابت أن أنس بن مالك قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فأخذ كفا من حصا فسبحن فى يده حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن فى يد أبى بكر فسبحن، ثم فى يد عمر فسبحن، ثم فى يد عثمان فسبحن، ثم صبهن فى أيدينا فما سبحن.

شهادة الضب:

روى عن عمر أن رسول الله ﷺ كان فى محفل من أصحابه إذ جاء أعرابى قد صاد ضباً فقال من هذا؟ قالوا: نبى الله. فقال: واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب، وطرحه بين يدى النبى ﷺ فقال عليه السلام له: يا ضب، فأجابه بلسان مبين يسمعة القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال: من تعبد؟ قال: الذى فى السماء عرشه، وفى الأرض سلطانه، وفى البحر سبيله، وفى الجنة رحمتة، وفى النار عقابة. قال: فمن أنا؟ قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك، فأسلم الأعرابى.

رد عين قتادة:

حينما اشتدت الحرب فى غزوة أحد، وأحاط المشركون بالمسلمين، فكان قتادة يتلقى السهام عن رسول الله ﷺ فأصاب عينه سهم فسالت على خده! فأخذها بيده وسعى إلى رسول الله ﷺ. فلما رآه على هذه الصورة دمعت عيناه، وقال: إن شئت صبرت ولك الجنة. وإن شئت رددتها ودعوت الله لك فلم تفقد منها شيئاً. فقال قتادة: إن الجنة لجزاء جميل وإنى أخشى أن أعير، ولكن ردها وأسأل الله لى الجنة، فردها ودعا له. فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى!.

الإسراء والمعراج:

مما فضل به رسولنا الكريم: دعوته لمشاهدة ملكوت السماء والأرض فى تلك الرحلة القدسية التى ركب فيها البراق وصحبه فيها جبريل وميكائيل، حيث أسرى به عليه السلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهناك اتقى بالأنبياء الذين جمعهم الله لتحيته، ثم عرج به إلى السموات السبع حيث كان فى استقباله فى كل سماء نبى مقرب، ولا زال يترقى إلى سدرة المنتهى إلى حيث سمع صريف الأفلام ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى. مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾سورة النجم: ٨-١١ وهناك فرضت عليه

وعلى أمته الصلاة: خمس فى الأداء وخمسون فى الثواب، وقد عاد من ليلته إلى حيث بدأت الرحلة.

والإسراء: أى السير ليلا، والمعراج: أى الصعود إلى السماء، فى حد ذاتهما أمران خارقان للعادة، أكرم بهما رسول الله تطييباً لنفسه لما لقيه من تكذيب قومه، وقد أصبح يحدث بهما فسخر الكفار، وارتد ضعاف الايمان! لأنهم لم يتصوروا أن شخصا يقطع هذه المسافات الشاسعة ثم يصعد إلى السماء كما يزعم ويعود من ليلته.

وقد وقع خلاف بين العلماء فى الإسراء والمعراج. هل كانا يقظة أم مناما؟ وهل كانا بالروح والجسد أم بالروح فقط؟ والصحيح أنهما كانا يقظة بالروح والجسد، ولو كانا غير ذلك لما كان هناك معنى للتكذيب وارتداد بعض ضعاف الإيمان وسخرية الكفار، والذين يعترضون على وقوع المعراج بأن السموات لا تقبل الخرق والالتئام، وبأن الإنسان لا يمكن أن يعيش خارج الغلاف الهوائى إلى غير ذلك من الاعتراضات، لم يضعوا فى أذهانهم أن الأمر خارق للعادة؛ فلا يخضع للقوانين الطبيعة العادية، وإلا لما كان خارقا.

وقد ثبت الإسراء بالكتاب والسنة والإجماع فمنكره كافر، أما المعراج فقد ثبت بالسنة الصحيح وأشار القرآن إليه فى سورة النجم، فمنكره فاسق لأنه لم يكذب صريح القرآن ولا المتواتر من السنة.

يقول صاحب الجوهرة: واجزم بمعراج النبى كما رووا.

أى وأعتقد اعتقاداً جازما بعروج نبينا عليه السلام وصعوده إلى السموات السبع كما رواه أهل الحديث والسير وقد استغنى المصنف بذكر المعراج عن ذكر الأسراء لشهرة أطلاق أحدهما على ما يعم مدلولهما فإذا ذكر المعراج خطر على الذهن الإسراء، والعكس.

تعقيب: لعلك ترى أن بعض هذه الخوارق لا تدخل فى باب المعجزة لأن كثيراً منها لم يكن نتيجة تحدى الكفار وطلب الآية، فرد عين قتادة، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى وتكثير الماء، كل ذلك حدث دون طلب الكفار، ولم يكن هناك منكر للنبوة يراد إثباتها له بطريق المعجزة.

وهى وإن كانت كذلك إلا أنها خارقة للعادة لتطمئنّ نفس الرسول عليه السلام إلى منزلته عند ربه وإلى دوام تأييده، وليزداد الذين آمنوا إيمانا كلما توالت عليهم هذه الخوارق مؤيدة صدق رسولهم، فالمقصود إذن إنما هو تعداد الخوارق التى حدثت على يده عليه السلام سواء أكانت مقرونة بالتحدى أم لا.

يقول صاحب الجوهرة: ومعجزاته كثيرة غرر منها كلام الله معجز البشر.

بعض خصوصيات الرسول عليه السلام

محمد خاتم المرسلين:

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يعهد إلى الثقلين بالتكاليف الشرعية، والعقل الإنسانى - كأى كائن حى - يتطور نحو الكمال، فكانت التكاليف التى تناسبه فى زمن لا تناسبه فى زمن آخر، والتى تناسب بيئة ومجتمعاً خاصاً قد لا تناسب بيئة أخرى ومجتمعا مغايراً، فكانت الرسل تأتى بشرائع تناسب عقلية الجماعات التى ترسل إليها وبيئتها، وأخذت الشرائع تتطور بالمجتمع الإنسانى حتى بلغ العقل البشرى نضجه. فكان العالم فى حاجة إلى رسالة تتم بها الرسالات، وشريعة تختم بها الشرائع، فبعث محمد بن عبد الله خاتم الرسل بالشريعة الخالدة العامة.

ختمها للرسالات:

وقد ثبت أنه عليه السلام خاتم النبيين بالأدلة القطعية التى لا تحتمل تأويلا، يقول الله سبحانه ﴿وَلَكِن رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾سورة الأحزاب: ٤٠ والنبى أعم من الرسول، فيلزم من ختم الأنبياء، ختم الرسل، ويقول عليه السلام: أنا العاقب فلا نبى بعدى. وفسر العلماء العاقب بأنه: الذى يحشر الناس على عقبه؛ فهو عليه السلام آخر نبى يأتى بشريعة، وتشريعه آخر تشريع يوحى به، وفى الحديث الذى ذكر فيه عليه السلام فضله على الأنبياء قال: وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبييون، وقد مثل عليه السلام ختمه للأنبياء ببناء صرح شامخ كان هو آخر لبنة فيه، وذلك فى قوله: مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية؛ فجعل الناس يطوفون له ويطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين.

ولا يطعن فى ختمة عليه السلام للأنبياء وجود الخضر وإلياس عليهما السلام الآن على القول بحياتهما، إذ أن المقصود: أنه لا تبدأ نبوة ولا تنزل شريعة بعده عليه السلام.

وكذلك لا يطعن فى ختمه للأنبياء والرسل نزول عيسى عليه السلام، لأنه سيحكم بشريعة محمد عليه السلام، وسيكون فرداً من أفراد الأمة الإسلامية، ولا ينافى ذلك أنه حين ينزل يحكم برفع الجزية عن أهل الكتاب، ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف؛ فيكون ذلك نسخا لحكم من أحكام الإسلام، لأن الإسلام جعل قبول الجزية من أهل الكتاب موقوتاً بنزول عيسى عليه السلام، فإذا نزل انقطعت شبهتهم فى اتباعهم له، لأنه يدعوهم إلى الإيمان بمحمد فمن أنكر فليس له إلا السيف.

عموم الرسالة:

وإذا كان محمد عليه السلام خاتم النبيين، ولن ينزل وحى بعده على بشر، ولن تتصل السماء بالأرض طريق سفراء حدد، فلا بد أن تزود هذه الشريعة التى قدر لها البقاء إلى يوم الدين بالقواعد العامة والأسس القويمة الصالحة لكل زمان ومكان، ولا بد أن يبقى الدليل على صلاحها، والحجة على صدقها ونسبتها إلى الله قائمة، فتمثل هذا الدليل وهذه الحجة فى الدستور الخالد كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

فخاطب الجنس البشرى كله مهما تناءت به الديار أو امتد به الزمن ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةُ شَىْءٍ عَظِيم﴾سورة الحج: ١ وسجل القرآن عموم الرسالة حتى تنقطع الحجج ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُول اللّه إِلَيْكُم جَمِيعًا﴾سورة الأعراف: ١٨٥ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيْرًا وَنَذِيرًا﴾سورة سباء: ٢٨ ثم اتجه القرآن إلى أهل الكتاب بخصوصهم حتى لا يظنوا أنهم مستثنون من هذه الدعوة فقال ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَد جَآءَكُم رَسُولُنَا يُبَيِّنَ لَكُم عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُل أن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيْر وَلَا نَذِير فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾سورة المائدة: ١٩ ولم تكن الرسالة قاصرة على الإنس، بل إنها شملت الجن كذلك وهى تسجل عليهم ذلك فى أكثر من موضع من القرآن ﴿وَإِذَا صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآن، . . . الخ﴾سورة الأحقاف: ٢٩. ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآنًا عَجَبًا . . . الآية﴾سورة الجن: ١.

فلم يبق لحكم من الاحكام ولا لشريعة من الشرائع بقاء مع هذه الشريعة الخالدة

التى اختارها الله سبحانه وقال فى شأنها ﴿إِنَّ الدِّيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامِ﴾سورة آل عمران: ١٩ وأبطل كل دين غير الإسلام فى قوله ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامَ دِيْنًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْه﴾سورة آل عمران: ٨٥ ووضع أسس الحكم الصالح لكل زمان ومكان، فأرسى قواعد العبادات التى يستطيعها كل مكلف ولا تحتاج إلى تطور مع الزمن، وجمعها عليه السلام فى حديث جبريل عندما سأله عن الإيمان والإسلام.

ثم خاطب العقل البشرى ورفع شأنه، وأعلى منزلته، وترك له حرية التفكير والانطلاق فى حدود هذا الإسلام المتين، وأباح له الاجتهاد فيما يطرأ من أقضية، وجعل للمجتهد إذا أخطأ أجراً: وإذا أصاب أجرين ليستطيع المجتمع الإسلامى أن يتطور مع العلوم والمعارف فلا يصطدم بها ولا تناقض تدينه.

وقد شمل هذا العلوم الإنس والجن منذ عهد رسالته عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، كما شمل الملائكة بإرساله عليه السلام إليهم إرسال تشريف، وعموم الرسالة من خصوصياته عليه السلام فلم تعم رسالة قبل رسالته.

ولا يقدح فى هذه الخصوصية رسالة نوح عليه السلام إذ لم يكن فى المعمورة إلا قومه، وعلى فرض أن هناك غيرهم فقد أصابه الغرق بالطوفان فأصبح رسولا لمن بقى على الأرض ممن آمن به، فهو أمر اتفاقى إذ لو كان هناك غيرهم لما كانوا مكلفين برسالته، ومن ناحية أخرى فرسالته خاصة بزمنه فلم تمتد إلى قيام الساعة كرسالة محمد عليه السلام، ومن ناحية ثالثة لم تكن رسالتة لغير الإنس أما محمد فرسالته ألى الإنس والجن.

وإرساله إلى الجن خاص به كذلك، فلم يرسل إليهم نبى قبله أما تسخيرهم لسليمان، فقد كان تسخير ملك وسلطان لا نبوة ورسالة، ولم يطعن أحد فى عموم رسالته عليه السلام إلا فريق العيسوية الذين سلموا برسالته وقصروها على العرب مستدلين بقوله سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهم﴾سورة ابراهيم: ٤ وفاتهم أن هذا تقدمه لبيان حال الأنبياء السابقين الذين أرسلوا إلى قومهم. ففى الآية بعدها إرسال موسى إلى قومه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوْسَى بِآيَاتِنَا أَن أَخرِجْ قَومَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور..الخ﴾سورة ابراهيم: ٥ ثم يذكر إرسال الأنبياء الآخرين إلى قومهم، أما محمد عليه السلام فقد كانت بعثته إلى الناس كافة. فقد أفتتحت هذه السورة نفسها – سورة إبراهيم – بإثبات عموم الرسالة ﴿آلر. كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور﴾سورة ابراهيم: ١ ولم يقل لتخرج العرب أو لتخرج قومك كما قال فى شأن موسى عليه السلام.

وإذا ثبت أنه عليه السلام خاتم النبيين وأن رسالته عامة وأن شرعه خالد فقد نسخ جميع الشرائع السابقة فلا يتصور أن ينسخ حكم من احكامه بحكم آخر، ولا أن تبدل هذه الشريعة بشريعة أخرى.

يقول صاحب الجوهرة:

وخص خير الخلق أن قد تمما ... به الجميع ربنا وعمما
بعثته، فشرعه لا ينسخ ... بغيره حتى الزمان ينسخ

كلمة ختامية

وبعد، فهذا أيها القارىء الكريم - مجهود المقل، وقد كنت فيه عالة على السابقين، ولا أدعى أننى وفقت غاية التوفيق، ولكنى أستطيع أن أقول، إنى بذلت ما أستطيع لتوضيح هذه العقائد، فإن وجدت فيها خيرا فمن توفيق الله، وإن وجدت غير ذلك فهو من تقصيرى.

أسأل الله أن يجعل ذلك العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به وأن يحفظ على الإسلام قوته ومجده.

وصلى الله على سيدنا محمد النبىالأمى، خاتم النبيين، المبعوث إلى الناس كافة رحمة للعالمين، والحمد الله رب العالمين.

توضيح التوحيد

من تحفة المريد على الجوهرة

والفرق الاسلامية

الجزء الرابع

لطلبة الرابعة الثانوية بالمعاهد الأزهرية

أدبى وعلمى بشعبتية

طبقا للمنهج المعدل لسنة ١٩٧٦

تأليف

حسين محمد المصرى

وكيل معهد الاسكندرية

حقوق الطبع محفوظة

١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م

منهج التوحيد

الصف الرابع الثانوى (أدبى) درسان فى الأسبوع

١. بيان الفرق الآتية:

- المعتزلة : أهل السنة «الأشاعرة - الماتريدية» أشهر مبادئهم - طريقتهم فى البحث- التعريف بإمام كل فرقة : واصل بن عطاء، أبو الحسن الأشعرى، أبو منصور الماتريدى.

- الشيعة وأهم فرقها : الإمامية، الزيدية، مبادئ كل فرقة، الخوارج، الإباضية، وأهم المبادئ لهما -المرجئة، مبادئ لها.

- الإسماعيلية، البهائية، القديانية، مبادئ كل نحلة من هذه النحل وعلاقتها بالإسلام.

ب. السمعيات

الملائكة : عصمتهم، رد الشبه الواردة عليها، التفاضل بينهم وبين الأنبياء، الحفظة والكتبة، الجن، العرش، الكرسى، القلم، اللوح، أهم مباحث الروح، الموت وأجل المقتول، الشهيد، الرزق، سؤال القبر، نعيمه وعذابه، البعث، مذاهب العلماء فى إعادة الاجسام، الحشر، اليوم الآخر، الحساب، بم تغفر الذنوب، التوبة، شروطها، حكم من عاد إلى الذنب بعد التوبة، حكم مرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب من ذنبه، صحائف الأعمال، الوزن والميزان والصراط الحوض، مباحث الشفاعة ، الجنة والنار.

ج. حكم إنكار ما علم من الدين بالضرورة، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الكليات التى أوجب الشارع حفظها.

على أن يكون هذا المنهاج من حاشية الباجورى، ويضع المدرس مذكره مناسبة الفرق.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

إلى الإخوة الطلبة الأعزاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد تم بحمد الله وتوفيقه إعادة طبع كتاب العقيدة: "توضيح التوحيد من تحفة المريد على الجوهرة" المنشورة من المكتبة الأزهرية للمؤلف: "حسين محمد المصري"، والذي تم تحت إشراف جمعية معهد تحفيظ القرآن: "دار القرآن".

فيسسرنا نحن المشاركين القائمين بالتصحيح والتدقيق في مراجعة إعادة طباعة الكتاب وإنجاز هذا العمل، أن نقدم لإخواننا الطلبة والطالبات هذا الكتاب في صورة جديدة أكثر وضوحًا ودقة في الخط، لغرض اليسر والسهولة للجميع، مع الحفاظ على المضمون الأساسي لكتاب العقيدة: "توضيح التوحيد"، مع الإشادة بأنه لم يحدث أي تغيير عما في الكتاب الأصلي من حيث المنهج أو الموضوع، أو المحتوى. إلا أن فيه إضافة جديدة وهو بيان مصدر الآية للأدلة المذكورة في الكتاب من حيث اسم السورة ورقم الآية، وذلك لغرض السهولة للرجوع إلى تفسير معنى الآيات.

ونتمنى أن يكون هذا الإنجاز موفق وناجح بإذن الله، بالرغم من الصعوبات التي قد واجهناها خلال القيام بهذا العمل منذ البداية حتى نهايته من حيث الجهد والوقت، التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

وأخيرا لا ننسى إن نقدم أسمى آيات الشكر والعرفان لكل من ساهم في إنجاح هذا العمل، وأخلص الأمنيات، لتحقيق الفائدة والسهولة لقاريء هذا الكتاب كمرجع أساسي لدراسة مادة العقيدة الإسلامية. ولا نرجو منه سوى وجه ورضوانه علينا....

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الأعضاء المشاركين بالتصحيح والتدقيق في إعادة طبع كتاب العقيدة:

١. الأستاذ محمد عدلين صالح
٢. الأستاذ عبد الملك بن
٣. الأستاذة آسية عبد الرحمن جافاكيا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، عالم الغيب والشهادة العزيز العليم والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، والهادى إلى الصراط المستقيم المنزل عليه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَسُوْلٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا ، لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِم وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِم وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ﴾سورة الجن: ٢٦-٢٨.

وبعد، فإن وراء ذلك العالم المادى المدرك بحواسنا الخمس أموراً غيبية لا يستطيع العقل وحده وإدراك تفاصيلها، وإن كان يستطيع استباطها ومعرفتها على وجه العموم، وإنما تعرف تفاصيلها عن طريق السمع من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، ولا يتم الإيمان إلا باعتقادها.

وقد شمل هذا الجزء من «توضيح التوحيد» تلك الأمور الغيبية التى يطلق عليها «السمعيات» وقد حرصت على إيراد العقائد الثابتة المنقولة بطريق صحيح من قرآن أو سنة.

وإنى لأرجو الله سبحانه أن أكون قد وفقت فى عرضها ليسهل فهمم وإدراكها والانتفاع بها ...

وهو سبحانه المسئول أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يدخر لنا ثوابه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

حسين محمد المصرى

المعتزلة

فى الفترة التى وجدت فيها الآراء المتباينة والمذاهب المختلفة كان الناس يبحثون عن الحق من بينها ويسألون أهل الذكر، وقد سأل سائل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مرتكب الكبيرة الذى مات ولم يتب منها: هل هو كافر كما يقول الخوارج أو مؤمن لا تضره المعصية كما يقول المرجئة؟

وقبل أن يجيب الحسن البصرى تصدى أحد تلامذته وهو «واصل بن عطاء» للاجابة، فقال: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ولم تعجب هذه الإجابة الحسن الذى يرى أن مرتكب الكبيرة مؤمن عاص، فاعتزل واصل مجلسه وأخذ يقرر رأيه، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، وأطلق الناس عليهم المعتزلة ، ولكنهم لم يرضوا عن هذه القسمية وأطلقوا على أنفسهم أهل العدل والتوحيد، لأنهم ينفون عن الله الظلم ينسبه أفعال العباد الاختيارية إليهم، حتى لا يعذبهم عن شئ لم يفعلوه. ولأنهم يتغالون فى التوحيد الله سبحانه، فينفون الصفات الزائدة على الذات حتى لاتشاركه فى القدم.

طريقتهم فى البحث: يقدس المعتزلة العقل، ويرفعون شأنه، ويوجبون معرفة الله سبحانه عن طريقة؛ ويقولون: إنه يستطيع إدراك الخير من الشر، والحسن من القبيح، ثم يأتى الشرع مؤيدا لما أدركه العقل.

أشهر مبادئ المعتزلة:

وقد بنى مذهب المعتزلة على أصول نذكر منها:

١. تجب معرفة الله عن طريق العقل ثم يأتى الشرع مؤيدا العقل.
٢. الإيمان يكون من التصديق بالقلب والعمل بالجوارح.
٣. نفى الصفات القديمة عن الذات حتى لا تشاركه فى القدم، فليست هناك - فى رأيهم - صفة علم أو قدرة أو إرادة وإنما هو عالم بذاته وقادر بذاته ومريد بذاته.
٤. أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لهم بقدرة أودعها الله فيهم.
٥. يقولون بالتحسين والتقبيح العقليين.

٦. يقولون إن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد، ولذلك نسب إليهم القول بوجوب الصلاح والأصلح.
٧. يقولون إن مرتكب الكبيرة الذى مات دون توبة ليس مؤمناً ولا كافراً، وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين، ويحكمون بخلوده فى النار، ولكنه يكون فى درك أخف من درك الكفار.
٨. يقولون إن رؤية الله تعالى مستحيلة لأنها تقتضى المشابهة للحوادث.
٩. يؤمنون بالشفاعة الكبرى فى الموقف وينكرون الشفاعة لمرتكبى الكبائر.
١٠. يؤولون المتشابة من القرآن.
١١. يقولون إن القرآن مخلوق فهو حادث.
١٢. يقولون فى أصحاب موقعة الجمل وموقعة صفين وأشباه ذلك: إن أحداهما مخطئ لا بعنيه فيكون فاسقا لا محاله، كما أن أحد الزوجين المتلاعنين فاسق لا بعينه، فلا تقبل شهادة كل من اشترك فى حرب الجمل أو صفين أو مقتل عثمان، كما لا تقبل شهادة المتلاعنين.

وهذا تفسيق للصحابة رضوان الله عليهم.

وكان زعماء المعتزلة ممن حصلوا العلوم والمعارف ودرسوا الفلسفة واستخدموا أساليب الجدال فى إقناع الخصوم، وكان لهم فضل رد شبه المارقين، وقد أبلوا فى هذا الميدان بلا حسناً، ولكنهم كانوا من ناحية أخرى يتعصبون لآرائهم ويستعينون بالحكام لإزغام الناس فى اعتناق مذاهبهم، وقد لاقى الفقهاء والمحدثون غتًا من جراء هذا التعصب، مما حمل الناس على مقتهم واتهامهم بالمروق عن الدين.

من أشهر أئمة المعتزلة بعد مؤسسها واصل بن عطاء، عمر بن عبيد، وأبو على الجبائى، وأبو الهزيل العلاف، وأبو اسحاق يسار المعروف بالنظام، وبشر بن المعتمر، وعمر بن بحر الجاحظ الأديب اللغوى، وأبو الخياط، وأبو الحسن البصرى الكعبى، والإمام الزمخشرى صاحب التفسير المشهور، وأبو هاشم وعبد الجبار.

وكان أكثر الناس عداء لهم الفقهاء والمحدثون وأهل السنة بسبب ما وقع عليهم من ظلم أثناء مشايعة الحكام للمعتزلة وحمل الناس بالقوة على آرائهم.

كما حدث أثناء محنة القول بخلق القرآن وامتناع أحمد بن حنبل عن مجاراتهم فكان نصيبه السجن والتعذيب، وقد مات محمد بن نوح مكبلا بالحديد وهو فى طريقة إلى المأمون.

واصل بن عطاء

هو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال، ولد فى المدينة سنة ثمانين هجرية (٩٩٦ م) انتقل إلى البصرة واتصل بأعلامها، وأخذ عن شيوخها وكان يتردد على سوق الغزل، ويتصدق على فقيرات معامل الغزل، ولذلك سمى الغزال.

تتلمذ واصل على الإمام الحسن البصرى، إمام أهل السنة، وقرأ عليه العلوم والأخبار، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبى الكبائر، وقال الجماعة بإيمانهم، خرج واصل عن الفريقين وقال بمنزلة بين المنزلتين فطرده الحسن من مجلسه، فاعتزل عنه، وتبعه عمرو بن عبيد، ومن ثم سموا وجماعتهم المعتزلة.

وكان واصل عالماً اربيا، مخلصا لدينه ولعقيدته، تقياً ورعاً، تصفه زوجته فتقول: كان إذا جنه الليل صف قدميه يصلى، ولوح ودواة بجانبه، فإذا مرت به آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد إلى صلاته، وقد أخذ من علوم الفلسفة والمنطق بقسط وافر، وسلح نفسه وأتباعه بسلاح العلم ليرد شبه أعداء الإسلام، وليبطل حجج المنكرين للألوهية بنفس أسلوبهم، يقول المرتضى: إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج، وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين.

وكان واصل خطيباً مفوهاً، وشاعراً حكيما، عليما بمعانى الكلمات، دقيقاً فى استعمال الألفاظ، غير أنه كان ألثغ بالراء لا يستطيع النطق بها، فكان يتجنبها فى خطبه وأشعاره، ولا يكاد يفطن لذلك السامع لقدرته الكلام وسهولة ألفاظه.

ومن حكمه:

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ... ولا تلقهم بالعقل إن كنت ذا عقل

فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل

ولقد ألف كثيراً من الكتب والمصنفات، منها: معانى القرآن، كتاب التوبة، كتاب المنزلة بين المنزلتين ، السبيل إلى معرفة الحق، أصناف المرجئة، طبقات أهل العلم والجهل، وقد توفى سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ م) .

أهل السنة

كان السلف الصالح يفهمون نصوص الشريعة بالسليقة دون أن تصرفهم عنها الأهواء والشهوات، وقد ظهرت فرق ومذاهب خالفت فى بعض مفاهيم الشريعة، وبقى جماعة على نفس المنهج الذى كان يسير عليه سلف الأمة وأطلقوا على أنفسهم أهل السنة والجماعة، كما أطلقوا على خصومهم أسماء تتناسب مع آرائهم ومذاهبهم كالقدرية والمرجئة والمعتزلة.

وقد امتاز أهل السنة بإثبات الصفات لله فأطلق عليهم أهل التوحيد والصفات، أو الصفاتية، أما المعتزلة فقد نفوا الصفات حتى لا يكون هناك أكثر من قديم، وقالوا إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية ليحاسب عليها فسموا أهل التوحيد والعدل، وفسروا العدل بأنه ما يقتضيه العقل من الحكمة، وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة. أما أهل السنة فقد فسروا العدل بأنه وضع الشئ فى موضعه، وهو القصرف فى الملك على مقتضى المشيئة والعلم، كما امتاز أهل السنة بأنهم كانوا يتفهمون روح الإسلام من نصوص القرآن والسنة دون أن يحملوها فوق طاقتها فإذا اشتبه عليهم نص رجعوا إلى أساليب اللغة، وفى نفس الوقت لا يهملون العقل وإنما يستعينون به على الوصول إلى الفهم الصحيح.

أشهر مبادئ أهل السنة :

١. لله تبارك وتعالى صفات دلت أفعاله عليها، فكما دلت الأفعاله على كونه عالما قادراً مريداً، كذلك دلت على وجود صفة العلم والقدرة والإرادة وهكذا.
٢. هذه الصفات ليست عين الذات ولا زائدة عليها، بل هى صفات أزليه قائمة بذاته سبحانه.
٣. طريق وجوب معرفة الله سبحانه هو الشرع، يقول سبحانه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾سورة الإسراء: ١٥ ويترتب على ذلك نجاه أهل الفترة.
٤. جميع ما فى ذلك الوجود مخلوق لله سبحانه بما فى ذلك أفعال العباد، فهو وحده المتفرد بالخلق والإيجاد.
٥. الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع.
٦. الإيمان هو التصديق القلبى بما جاء الانبياء عليهم السلام. أما النطق باللسان فشرط لإجراء الأحكام الدنيويه عليه، والعمل شرط لكمال الإيمان فمن آمن ولم يعمل فهو فاسق.
٧. مرتكب الكبيرة الذى يموت دون توبة: مؤمن فاسق أمره مفوض لربه إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

٨. رؤية الله جائزة لأنه موجود وكل موجود يجوز أن يرى.
٩. لا يجب على الله شئ فإنه الفاعل المختار، وأفعاله سبحانه لحكم يعلمها.
١٠. تجوز الشفاعة لمرتكبى الكبائر.

طريقة أهل السنة فى البحث:

كان أئمة أهل السنة هم أول من دون التوحيد، وردوا على المخالفين واهتموا بإبطال مذهب المعتزلة الذين كانوا يناقضونهم فى كثير من آرائهم، وهم يعتمدون فى بحثهم على الشرع الحنيف من الكتاب والسنة ويجعلون ذلك أساساً التكليف ثم يأتى العقل مؤيداً ومفسراً لما جاءبه الشرع فالحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع.

وفريق من الماتريدية يوافقون المعتزلة فى أن العقل يستطيع وحده إدراك حسن الأشياء وقبحها، وأن العاقل الذى تبلغه الدعوة، ولم يصل إليه الشرع مكلف بمعرفة الله سبحانه وتعالى عن طريق العقل.

أما جمهور الماتريدية فيوافقون الأشاعرة فى أن المعرفة واجبة بالشرع وأن اساس التكليف هو الشرع.

وأهل السنة ينتسبون إلى إمامين عظيمين كان لهما فضل السبق فى السبق فى هذا المضمار هما أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتريدى.

وقد نشأ ذلك المذهب عندما رفع المتوكل المحنة عن أهل السنة وقربهم إليه وأبعد المعتزلة.

أبو الحسن الأشعرى (١)

نشأ أبو الحسن الأشعرى فى البصرة على مذهب الاعتزال وتتلمذ على إمام المعتزلة فى عصره أبى على الجبائى، وكان واسع الاطلاع سريع البديهة قوى الحجة، فكان يتولى الجدل والنفاش نيابة عن أستاذه الجبائى الذى كان يجيد التأليف دون المناقشة، وقد حدث أن اختلف مع استاذه عندما كان يقرر وجوب الصلاح والأصلح على الله، فسأله عن ثلاثة

(١) ولد أبو الحسن الأشعرى بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ، وتوفى سنة ٣٢٧ هـ. وهو منسوب جده السابع أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما.

أخوة مات أحدهم كبيراً مؤمناً، ومات الثانى كبيراً كافراً ومات الثالث صغيراً، فقال الجبائى أما الأول فيثاب بالجنة، وأما الثانى فيخلد فى النار، وأما الثالث فلا يثاب ولا يعاقب، فقال الأشعرى: فإن قال الصغير يارب لم أمتنى صغيراً وما ابقيتنى حتى أكبر فأطيعك فأدخل الجنة؟ قال الجبائى يقول الرب: إنى أعلم أنك لو كبرت عصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً. فقال الأشعرى: فإن قال الثانى يا رب لم لم تمتنى صغيراً حتى لا أدخل النار؟ ماذا يقول الرب؟ فبهت الجبائى، فترك الأشعرى مذهبه وانضم إلى أهل السنة، وقد عرف أساليب للمعتزلة ووجه خلافهم فاحتجب عن الناس مدة ثم خرج إليهم وصعد منبرالمسجد الجامع بالبصرة وأعلن أنه انسلخ عن آراء المعتزلة التى كان يعتنقها، وأنه يقول برأى أهل السنة والجماعة وأنه أودع آراءه فى الكتب التى صنفها فى فترة الاحتجاب عن الناس. فلما قرأ هذه الكتب أهل الحديث وجدوا أنها صورة صادقة لآراء أهل السنة، فاتخذوه إماما لهم ونسب اليه أتباعه وسموا بالأشاعرة.

أبو منصور الماتريدى

ولد أبو منصور محمد بن محمد بن محمود فى قرية «ماتريد» من أعمال «سمرقند» بخرسان فى القرن الثالث الهجرى ونبغ فى علوم الفقه والكلام، وتفقه على مذهب أبى حنيفة النعمان، وكان يعيش فى نفس العصر الذى عاش فيه «أبو الحسن الأشعرى» وقد ألف فى علم الكلام على طريقة أهل السنة، ورد شبه المخالفين وأبطل حجج المعاندين حتى كانت له الرياسة فى علم الكلام ونسب إليه أتباعه وسموا «الماتريدية».

والناظر فى آراء أبى منصور الماتريدى وأبى الحسن الأشعرى يجد أنهما ينبعان من معين واحد، ويصلان إلى غاية واحدة وليس بينهما خلاف إلا فى أمور يسيرة من فروع هذا العلم الواسع، كاختلافهم فى وجوب المعرفة هل هو بالشرع أم بالعقل وكاختلافهم فى مفهوم الإيمان والإسلام وفى مفهوم القضاء والقدر.

وقد تلقى المسلمون آراء الإمامين بالقبول واعتبروهما علما على هذا الفن وسار على منهاجهما المصنفون وتداولت الأمة هذه الكتب فى مختلف العصور، وكان من أنصارهما كثير من المحققين مثل القاضى أبى بكر الباقلانى والأستاذ أبى إسحاق الإسفراييني.

وقد أجاد أبو منصور فى توضيح العقائد والرد على المعتزلة والقرامطة والروافض كما ألف فى الشريعة وأصول الفقه وتتلمذ عليه جيل من العلماء وتوفى سنة ٣٣٢ هـ .

الشيعة

عندما انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى، أخذ المسلمون يبحثون أمر الخلافة، واجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة حيث بايعوا أبا بكر رضى الله عنه، وقد تأخر عن مبايعته على بن أطالب رضى الله عنه ثم بايعه. وقد تشيع لعلى أفراد كانوا يرون أحقيته فى الخلافة لقرابته من رسول الله عليه السلام، ومصاهرته له، ولمنزلته فى الإسلام، ولكن هؤلاء الأشياع لم يكن لرأيهم وزن أثناء خلافة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فقد أجمع المسلمون عليها، وبايع على نفسه كما بايع بقية المسلمين. فلما قتل عثمان وتولى السلطة على أخذ أشياعه ينشطون وينشرون مبادئهم، ثم قامت الفتنة وانتهت باغتيال على رضى الله عنه واستقررا الأمر لمعاوية فأخذ الشيعة يظهرون حينا ويختفون أحيانا، ولم يستطيعوا أن يقيموا لأنفسهم سلطانا أثنا الدولة الأموية والعباسية، ومع ذلك فقد كانوا يتواصمون بمبادئهم وإمامهم.

وكان المبدأ الأول الذى قامت عليه هذه الجماعة أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى يترك أمرها للناس يقضون فيه بما تمليه المصلحة، وإنما هى ركن من أركان الدين لا يصح أن يهمله الرسول، بل عليه أن يعين الإمام الذى يخلفه، ثم هذا الإمام يعين من بعده وهكذا، والتعيين إنما هو بوحى وإلهام لأن الإمام فى رأيهم معصوم.

والشيعة يرون أن الرسول عليه السلام أوصى لعلى بذاته، ويرون فى ذلك آثاراً ويؤولون نصوصا يحملونها مالا تحتمل تأييداً لرأيهم، وقد دفعهم هذا الاعتقاد إلى القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان تعدوا على حق فى الخلافة.

وهم يقولون بالتقية أى أن يتقى المرء كيد عدوه ليحافظ على نفسه وعرضه وماله فلا مانع من أن يظهر خلاف ما يبطن ويروون عن أئمتهم: لا دين لمن لا تقية له.

ثم ينقسمون ن على أنفسهم، فيرى بعضهم أن هذا التعدى خلاف الأولى ويصححون إمامة الخلفاء الثلاثة، ويرون أنه لا مانع من إمامة المفضول مع وجود الفاضل، ويرى آخرون أن هذا التعدى محرم، ويحكمون على الخلفاء الثلاثة بالسفق، ويتغال البعض الآخر حتى يحكم بفكرهم، ويزيد بعضهم فى هذا الغلو فيصل بعلى إلى درجة النبوة والعصمة، وقد يرتفع به إلى درجة الألوهية ويقولون بالحلول، أى أن روح الإله حلت فى علىّ ثم تنتقل لتحل فى الإمام الذى يليه وهكذا.

وبذالك ظهرت عقائد باطلة كالرجعة والحلول والتناسخ والتجسيم والتشبيه وعدم ختم النبوة، وكان المقصود من كل ذلك هدم هذه الدعوة الفتية وإثارة الشكوك بين ضعاف الإسلام، وهم بذلك يظهرون حقدهم الكامن، إذ لم يستطيعوا الوقوف بالسيف أمام قوته الغالبة فلم يجدوا إلا أن يتظاهروا بالإسلام وينفثوا سمومهم، وقد وجدوا فى التشيع مباءة خصبة لإظهار الحقد الدفين.

فرق الشيعة

اتفق الشيعة على أحقية على رضى الله عنه فى الخلافة، واعتمدوا على نصوص يروونها فى إثبات معتقدهم. وقد انقسموا فى فهم هذه النصوص إلى فرقتين رئيسيتين فرقة ترى أن النصوص تشير إلى على بالوصف لا بالشخص وهم الزيدية. وفرقة ترى أن النصوص تشير إليه بالشخص وهم الإمامية. وقد تفرع من كل من الفرقتين فرق شتى.

الإمامية

هم الذين ينتقدون أن الإمامة ركن من أركان الدين لا يجوز لنبى أن يهملها بل عليه أن يعين الشخص الذى يتولى الأمر من بعده ليقضى على أسباب الخلاف، ولذلك لا يكفى أن يعينه بالوصف بل يجب النص عليه والإيصاء إليه، ومن هم نشأت فكرية الوصاية وسمى الأئمة أوصياء، وهم يرون كفر أبى بكر وعمر لأنها اغتصبا الخلافة من على. كما يرون كفر جميع الصحابة الذين بايعوهما.

وقد خرجت هذه الفرقة على الشيعة عندما ناظروا زيدا فى أمر الشيخين، أبى بكر وعمر، فوجدا أن زيدا يعترف بأمامتها ولا يكفر ولا يفسق أحداً من أتباعهما، فضوا إمامته ولذلك سموا الإمامية الرافضة.

وتتلخص مبادئهم فيما يلى:

١. وجوب نص النبى على الإمام بشخصه والإيصاء إليه، ثم نص كل إمام عل من بعده.

٢. نص الرسول عليه السلام على إمامة على رضى الله عنه بذاته، ويستدلون على ذلك بأدلة لا يعترف بها علماء الحديث.
٣. يحكمون بكفر من نازع علياً الخلافة، فيكفرون الشيخين ومن بايعهما من الصحابة.
٤. لا يعتبر الإيمان منجيا إلا إذا عرف المؤمن إمام وقته.
٥. لا يشترط خروج الإمام ومطالبته بحقه فى الخلافة لأنه معين فعلا بالايصاء، وعلى ذلك قد يكون الإمام ظاهراً وقد يكون خفيا.
٦. يجوز اختفاء الأئمة، فإذا تهيأت الظروف لظهورهم ظهروا، وهو ما يسمون بالرجعة.
٧. لا تخرج الإمامة عن أولاد على من فاطمة رضى الله عنها.
٨. التقية أى العمل على مداراة أعدائهم والدعوة إلى أئمتهم سراً وإظهار الطاعة لولاة الأمر حتى يقوى أمرهم فيعلنوا إمامهم وينشقوا على الدولة القائمة ويحاربوها.

وقد اتفقوا على إمامة الحسن والحسين، ثم اختلفوا فى تعين الإمام بعدهما، وكان ذلك الخلاف سبباً فى تفرع فرق كثيرة من هذه الفرقة من أشهرها الإسماعيلية والاثنا عشرية.

والإمامية وإن تغالوا فى جعل الإمامية ركنا من أركان الدين وفى تكفير أبى بكر وعمر والصحابة الذين بايعوهما فهم من المسلمين لأنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم ينكروا معلوما من الدين بالضرورة وقد فسقوا بسب الصحابة وتكفيرهم، وقد نهى عليه السلام عن سب الصحابة حيث يقول: لا تسبوا أصحابى.

الزيدية

هم أتباع زيد بن على زين العبدين بن الحسين بن الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه. وكان زيد تلميذاً لواصل بن عطاء إمام المعتزلة.

ومذهب الزيدية أقرب مذاهب الشيعة إلى الجماعة الأسلامية، فهم يرون أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعين علياً بشخصه، وإنما أشار إليه بالوصف فحسب، وإذا كان المسلمون قد أخطأوا بانتخاب غيره فقد كان ذلك الخطأ نتيجة اجتهاد منهم، ولذلك لم يكفروا أحدا من المسلمين.

ولم يروا عصمة أئمتهم، ولم يصلوا بأحد منهم إلى درجة النبوة أو الألوهية، كما فعل غلاة الإمامية. وهم يشترطون فى الإمام أن يكون فاطمياً تقياً ورعاً شجاعاً وان يخرج مطالبا بحقه في الإمامه. وقد اعترض على إمامهم زيد بأن أباه زين العابدين ليس فى اعتقادهم إماماً لأنه لم يخرج ولم يتعرض للمطالبة.

وأهم مبادئ الزيدية :

١. ان يكون الإمام فاطمياً ورعاً تقياً شخياً شجاعاً يخرج داعياً لنفسه فلا يلزم أن ينص عليه الإمام السابق بشخصه بل يكفى النص عليه بالوصف.
٢. لا يقولون بالتقية بل لا بد أن يدعوا الإمام لنفسه صراحة.
٣. لا مانع من إمامة المفضول مع وجود الفاضل، فبيعه أبى بكر وعمر صحيحة مع أن علياً - فى رأيهم - أفضل منهما.
٤. الإمامة من المصالح العامة التى تفوض للمسلمين يختارون من يرونه أصلح لها.
٥. لا يكفرون ولا يفسقون أحداً من الصحابة بمبايعة أبى بكر لأنهم اعتمدوا على اجتهاد، وليس هناك نص صريح فى تعيين على بشخصه.
٦. يجوز أن يكون هناك أكثر من إمام فى أقطار مختلفة، أما فى قطر واحدا فلا يجوز أن يكون هناك أكثر من إمام.
٧. يرون أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار إذا مات دون أن يتوب توبتاً نصوحا، وقد أخذ إمامهم ذلك من المعتزلة.

وقد خرج إمامهم زيد على هشام بن عبد الملك، بتحريض أهل الكوفة مطالباً بالخلافة لنفسه فهزمته جيوش عبد الملك، وقتل وصلب سنة ١٢١ هـ . ثم خرج من بعد ولده يحيى فقتل سنة ١٢٥ هـ، ثم خرج من بعده بالمدينة الإمامان محمد وإبراهيم، وبقى محمد بالمدينة حيث قتله عيسى بن ماهان عامل المنصور. وأما إبراهيم فقد مضى إلى البصرة حيث قتل بها فى عهد المنصور كذلك.

وقد انتشر مذهب الزيدية فى شرق الجزيرة العربية وجنوبها ولا يزال أهل اليمن يعتنقون هذا المذهب إلى الآن.

عندما قامت الفتة الكبرى بمقتل عثمان رضى الله عنه، وانقسام المسلمين إلى معسكرين، أحدهما بقيادة علي رضى الله عنه، والآخر بقيادة معاوية، ووقع الصدام بين الفرقين وكل منهما يرى أن الحق معه. اندس فى صفوف على رضى الله عنه جماعة من الفرس الموتورين تظاهروا بالإسلام والتشيع لعلى رضى الله عنه ليحدثوا الفرقة بين المسلمين انتقاما من هذا الدين الذى قوى شوكة العرب، حتى أزالوا ملك فارس العظيم، وقد وجدوا فى الفتنة مجالا واسعاً لكيدهم، ففى موقعة صفين كادت كفة على ترجح فلجأ أصحاب معاوية إلى رفع المصاحف على رؤوس الرماح داعين إلى تحكيم كتاب الله، فأدرك على رضى الله أنها خدعة وأحب أن يستمر أصحابه فى القتال حتى يتم لهم النصر، ولكن الأشعث بن قيس، ومسعود بن فداكى التميمى وزيد بن حصين الطائى، عارضوا علياً فى رأيه حملوا رأية العصيان فى جيشه وقالوا: القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف !!!! فقال على رضى الله عنه أنا أعلم بما فى كتاب الله، ولكنهم أصروا على قبول التحكيم وألزموه أن يدعوا الأشتر - قائد جيشة - إلى وقف التقال وإلا انقلبوا عليه وفعلوا به كما فعلوا بعثمان، وخشى على تفرق الجند من حوله فأجابهم إلى وقف القتال وبعث إلى الأشتر - الذى كاد يقضى على جيش معاوية - أن يوقف القتال، فاستجاب الأشتر لأمر على. ثم جاء دور اختيار الحكم فاختار على عبدالله بن عباس، فعارضه هؤلاه وقالوا: هو منك، وحملوه على أن يبعث أبا موسى الأشعرى على أن يحكم هو والحكم الآخر بكتاب الله، واختار معاوية عمرو بن العاص، وكانت الخدعة التى دبرها الخوارج رءوس الفتنة فإذا بهؤلاء الذين حملوه على وقف القتال وقبول التحكيم يخرجون عليه ويحملونه مسئولية هذا التحكيم ويقولون لم حكمت الرجال؟ لا حكم إلا لله. وخرجوا على على رضى الله عنه فسموا الخوارج ولجأوا قرية بالكوفة تسمى «حروراء» فسموا الحرورية ولكنهم سموا أنفسهم الشراة أخذا من قوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى نَفْسَهُ ابْتِغَا مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ سورة البقرة: ٢٠٧.

أقسام الخوارج:

تجمع الخارجون على على بالنهروان ووقعت الفرقة بينهم فانقسموا إلى ستة أقسام: الأزارقة ، والنجدات، والصفرية، والعجاردة، والأباضية، والثعالبة، وكل فريق من هؤلاء تفرعت منه فروع مختلفة.

آراؤهم:

١. يجمع الخوارج على التبرؤ عن على عثمان ويقدمون ذلك التبرؤ على كل طاعة.
٢. لا يصححون المناكحات إلا إذا أقر المتعاقدان بالبراءة عن عثمان وعلى.
٣. يصححون خلافة أبى بكر وعمر.
٤. يكفرون أصحاب الكبائر، والذنوب كلها كبائر عندهم.
٥. يوجبون الخروج على الإمام إذا خالف السنة.

والمحكمة الأولى برئاسة «عبد الله الكوا» يزيدون فى المبادئ.

١. يجوز أن تكون الأمامة فى غير قريش.
٢. إقامة الإمام أمر جائز فيصح خلوا العالم عن إمام، وإن احتيج إليه جاز أن يكون عبداً أو حراً أو نبطياً أو قرشيا.

وقد قاتلهم على رضى الله عنه حتى أبادهم ولم ينج منهم إلا أقل من عشرة هرب اثنان إلى عمان واثنان إلى كريان واثنان إلى سجستان واثنان إلى الجزيرة وواحد إلى تل مورن بالمين حيث أظهروا بدعهم فى هذه الموضع، واستمر إحدائهم فى أمور الدين.

والأزارقة أصحاب «أبى رشد نافع بن الأزرق» يزيدون فى مبادئهم.

١. إباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم.
٢. إسقاط الرجم عن الزانى لأنه لم يذكر فى القرآن.
٣. إسقاط جد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، ووجوب حد من قذف المحصنات من النساء.
٤. الحكم بخلود أطفال المشركين فى النار مع آبائهم.
٥. لا يوجبون عصمة الأنبياء، فيجوز على النبى الكفر قبل البعثة وبعدها ويجوز أن يرتكب الكبائر والصغائر.

أما بقية الفرق وما تفرع منها فلم تخرج عن هذه الطرق المعوجة، وكانوا جميعاً يتغالون فى التقى والصلاح، وكانوا يضحون بأنفسهم فى سبيل عقائدهم وكان فيهم الفوارش والشجعان أمثال قطرى بن الفجاءة، ومن زعمائهم عبدالله بن واهب الراسى

وحرقوصى بن زهير البجلى، وعبدالله بن الكوا، ونافع بن الأزرق، ونجدة بن عامر وقد أخذوا يناوئون الحكام والخلفاء، فيظهرون إذا ضعفت شوكة الحكم ويختفون إذا قويت سلطة الحاكم حتى انقرضوا.

الإباضية

هم أصحاب عبدالله بن إباض التميمى الذى خرج فى أيام مروان بن محمد فجهز جيشاً للقضاء على فتنته، وأرسله بقيادة عبدالله بن محمد بن عطية الذى قاتله بتبالة[1] وكان يرافق عبدالله بن إباض، عبدالله بن يحيى الإباضى فى جميع أحواله وأقواله.

والإباضية فرقة من الفرق الست التى انقسم إليها الخوارج.

وأهم عقائدهم التى يمتازون بها عن بقية الخوارج هى:

١. يفرقون بين الكفر والإشراك، ويعتبرون الكفر كفر النعمة لا كفر الملة.
٢. يعتبرون جميع مخالفيهم من أهل القبلة كفاراً غير مشركين، تجوز مناكحتهم وموارثتهم، ويجوز قتالهم بعد إقامة الحجة ونصب القتال ويجوز أخذ أموالهم وسلاحهم غنيمة، أما بدون إقامة الحجة ونصب القتال فلا يجوز قتلهم ولا أسرهم غيلة.
٣. دار مخاليفهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى.
٤. تجوز شهادة مخالفيهم على أوليائهم.
٥. مرتكب الكبيرة موحد لا مؤمن، وهو كافر كفر النعمة لا كفر الملة.
٦. أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً، ومكتسبة العبد حقيقة لا مجازاً.
٧. لا يسمعون إمامهم أمير المؤمنين، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين.
٨. توقفوا فى الحكم على أطفال المشركين، وجوزوا تعذيبهم كما جوزوا دخولهم الجنة تفضلا من الله سبحانه.

(١) تبالة بلد باليمن خصبة. القاموس.

٩. اختلفوا فى النفاق هل يسمى شركا أم لا، وقالوا: إن المنافقين فى عهد الرسول عليه السلام كانوا موحدين إلا أنهم ارتكبوا الكبائر فكفروا بالكبيرة لا بالشرك.

١٠. لا يخلق الله شيئاً إلا دليل على وحدانيته، ولا بد أن يدل به أحدا. وهم جماعة متفرقون فى مذاهبهم وآرائهم وعقائدهم تفرق غيرهم من فرق الخوارج، ولكنهم أقرب الفرق إلى الجماعة الإسلامية، فمذهبهم مبنى على التسامح والاعتدال، وقد انقرضت أغلب فرق الخوارج فى عصر الدولة الأموية ولم يبق منها إلا الإباضية الذين لايزالون إلى وقتنا هذا فى بعض أقطار العالم الإسلامى كالمغرب الأقصى.

المرجئة

فى فترة الصراع العقيدى الذى نشأ فى الفتنة الكبرى ظهرت آراء كثيرة متضاربة لا تمت إلا الحق بصلة، وإنما تنبع من الأهواء النفسية والأحقاد الخفيفة، فبينما نجد الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة إذا بنا نجد فريقاً آخر يقابلهم فى العقيدة وهم المرجئة الذين يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

والإرجاء:

معناه التأخير والإمهال. والمرجئة يؤخرون العمل عن النية والقصد، أو يؤخرون الحكم على صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلا يقضون عليه بشئ فى الدنيا، أو معناه إعطاه الرجاء. فإنهم يؤملون من آمن بالجنة مهما فعل فلا تضر مع الإيمان معصية.

فرقهم:

والمرجئة فرق شتى فكلما ظهر من بينهم شخص بمقالة جعل منها مذهباً نسب إليه، فمنهم «اليونسية» أصحاب «يونس السمرى» ومنهم «العبيدية» أصحاب «عبيد المكبت» ومنهم «الغسانية» أصحاب «غسان الكوفى» ومنهم «الثوبانية» أصحاب «أبى ثوبان المرجئ» إلى غير هؤلاء.

مبادئهم:

١. زعم بعضهم أن الله، تعالى عن قولهم-على صورة إنسان.
٢. الإيمان هو المعرفة الإجمالية دون التفصيل.
٣. الإيمان يزيد ولا ينقص.
٤. زعموا أن الإيمان هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة بالقلب، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن ولا حرج من ارتكاب المنهيات.

وما سوى المعرفة من الطاعة ليس من الإيمان ولا يضر تركها.

وإنما دفعهم إلى قولهم هذا أنهم قالوا: لو عفا الله سبحانه عن عاص يوم القيامة لعفا عن كل عاص فى مثل حاله، وإن أخرج من النار واحداً اخرج من هو فى مثل حاله.

وهذا رأى باطل لأنه ينفي المشيئة الثابتة فى قوله سبحانه ﴿للَّه مَا فى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوِ مَا فِى أَنْفُسِكُم أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّه فَيَغْفِرَ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبَ مَن يَشَاءُ وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾.

ولأنه يبيح للناس أرتكاب المحرمات، وانتهاك الحرمات فيفسد نظام المجتمع، ولا يكون هناك معنى لإقامة الحدود وتطبيق الأحكام، وقد انقرض أصحاب هذا الرأى ولم يبق أحد من أهل القبلة يدين به.

الإسماعلية

هم الذين يقولون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، ويخصونه بالذات لأنه مات فى حياة أبيه ليثبتوا الإمامه فى عقبه، ولذلك نسبوا إليه.

ويطلق عليّهم كذلك «الباطنية» لأنهم يقولون: إن للقرآن ظاهراً وباطناً، ويفسرونه حسب أهوائهم، ويقولون إن المعانى الباطنية لا يدركها إلا الأئمة لأنهم يعتقدون أن الإمام معصوم و لا يلزم ظهوره بل يجوز اختفاؤه، فيكون باطناً أى غير ظاهر. والإمام إنما يظهر إذا كانت له شوكة ومنعة، فإذا لم يكن له ذلك وجب عليه أن يختفى، ويظهر أتباعه لنشر دعوته، وذلك محافظة عليه.

وقد ظهر إمامهم عبدالله المهدى الذى عاونة أبو عبد الله الشيعى فى (كتامة) حتى تغلب على المغرب وملك القيروان ثم فتح أبناؤه من بعده مصر وأسسوا الدولة الفاطمية، وادعوا نسبتهم إلى هذه الشجرة الطاهرة. وقد شك المؤرخون فى صحة هذه النسبة وأثبتوا زيفها، كما أثبتوا أن الدعاة الأصليين لهذه الفرقة من ابناء المجوس الذين حاولوا القضاء على الإسلام بهذا السلاح الدنئ، ووضعوا مبادئهم الهدامة، وهى تتلخص فيما يأتى:

١. أن الدين الإسلامى سر الله المكتوم وأمره المستور فلا يطيق حمله إلا نبى مرسل، او ملك مقرب أو عبد مؤمن. أما بقية الشعب فلا يعرفون من أسراره إلا ما يهديهم إليه فيما أئمتهم.
٢. ليس العالم حادثاً وإنما هو قديم، يدبره الله من ناحية والنفس الإنسانية من ناحية، أى أن له مدبرين اثنين.
٣. هناك حكم خفية لا يستطيع الناس إدراكها، وإلا فلماذا كانت السموات سبعاً والأرضين سبعاً، وما معنى العبادات الجسمية من صلاة، وصوم، وما معنى رمى الجمار والطواف والسعى؟ انه لا يدرك هذه المعانى الباطنية فى رأيهم إلا أئمتهم.
٤. الأئمة عندهم سبعة ينتهون بمحمد بن اسماعيل بن جعفر الذى عنده علم المستور وانتهى إليه علم الأولين.
٥. الأئمة معينون بالشخص، فمن نازع الإمام كفر، ولذلك يكفرون أبا بكر وعمر وبقية الصحابة لا تنزاعهم الخلافة من على.
٦. يؤمنون بالقرآن، ولكنهم يجعلون تفسيره حقاً لأئمتهم فحسب، يفسرونه حسب أهوائهم دون الاعتماد على لغة أو أصول، ولهم أن يغيروا ويبدلوا فى التفسير كما يشاء لهم الهوى، لأنهم معصومون يدركون وحدهم المعانى الباطنية القرآن.
٧. كل علم نقل عن غير أئمتهم فلا قيمة له.
٨. الشعائر الدينية من صلاة وصوم وحج إنما جاءت لتربية العامة، أما الخاصة فليسوا فى حاجة إلى تربية أو تطهير، فهم غير مكلفين.
٩. لا يعترفون بالجنة والنار على حقيقتهما المشهورة، وإنما يرون أن الجنة نعيم الدنيا، وأن العذاب اشتغال المكلفين بالعبادات حتى تتطهر نفوسهم فتسقط التكاليف عنهم وينعمون بذلك.
١٠. لا يعترفون بإمكان خرف العادة، ولذلك لا يقولون بأن هناك معجزات للأنبياء ولا كرامات للأولياء.

وقد انتشر أتباع هذا المذهب فى الهند وفارس والشام والخليج العربى وزنجبار ولا يزالون يعتقدون فى إمامهم العصمة ويؤلون جميع أفعاله، فها هو ذا أغا خان وابنه على من بعده تشهد مراقص أوربا ودور اللهو فيها بما كان لهما من جولات هناك، ومع ذلك يجمع له الأتباع من أقواتهم ما ينفقه على ملاهية وشهواته. ويعتقدون مع ذلك عصمته وأن له أن يفعل ما يشاء.

البابية

استغل الاستعمار فى الهند وإيران الاختلافات الدينية، فأخذ يغذى المذاهب الشاذه ويساندها لتكون عونه فى استمرار خضوع هذه الأرض الطيبة له.

وقد ظهر فى إيران دعى من هؤلاء المرتزقة الوصوليين اسمه «المرزا محمد على» وأطلق على نفسه الباب، وكأنه يقصد أنه باب النجاة.

ولد فى شيراز سنة ١٨١٩ ميلادية وسار فى طريق الضلال، فادعى أنه المهدى المنتظر ووجد أرضا خصبة لدعواه، فترقى درجة أخرى وادعى النبوة والرسالة، وزعم أن الله أوحى إليه بكتاب أسماه «البيان» وأنه نسخ التوراة والإنجيل والقرآن ثم ادعى أنه المسيح المنتظر، ثم ترقى وادعى الألوهية، وعهد من بعده بالخلافة إلى أجد أتباعه ويسمى مرزا يحيى الملقب «بصبح أزل» ومن بعده إلى أخيه حسين الملقب «بالبهاء».

وقد أجمع أهل الرأى على وجوب مناهضة هذا الضلال، وأفتى العلماء بوجوب قتله: ونفذ ذلك سنة ١٨٥٠ م، ولم يعتبر أتباعه بما أصابه، بل ساروا فى نفس الطريق، فطردوا إلى بغداد ثم طردوا منها إلى القسطنطينية ثم إلى أدرنه، ولكنهم انقسموا على إنفسهم، فريق اتبع يحيى، وفريق اتبع حسينا، وكل منهما كان يدعو إلي نفسه ويكذب أخاه، ويدعى أنه أوحى إليه وحده، فضاقت الحكومة التركية بهما فنفت الأزل إلى قبرص وسجنته فى قلعتها، ونفت البهاء فى عكا وسجنته فى قلعتها ومات الأزل فى سجنه.

البهائية

ولد حسين، الملقب بالبهاء، فى بلدة نور، من ضواحى مازندران فى إقليم إيران سنة ١٢٢٣ هـ وقد تتلمذا على الباب، وكان من المقربين إليه حتى عهد إليه بالخلافة بعد أخيه

يحيى، وقد سار فى نفس الطريق التى سار أستاذه فادعى المهدوية ثم النبوة والرسالة ثم الوحي إليه بكتاب «الأقداس» الذى ادعى أنه نسخ جميع الكتب السابقة، ثم ادعى الألوهية لأن الله تجلى فيه كما تجلى فى سلفه وكما سيتجلى فى خلفه.

وأخذ ينتقل داعياً لمبدئه حتى مات فى مدينة عكا سنة ١٣٠٩ هـ، ١٨٩٢ م، وقد عهد بالخلافة من بعده لابنه عباس الذى سمى عبد البهاء ولقب بغصن الله الأعظم وقد انتشر ذلك المذهب فى الهند وإيران، ودان أتباعه بتقديس كل خليفة جاء بعد البهاء.

وفى سنة ١٨٩٢ نزل خليفتهم عبدالبهاء بمصر وأسس فيها لدعوته، واستجاب له بعض المسيحيين فكانت مبادئهم خليطا من المسيحية والاسلام، وأهم مبادئهم:

١. لا يستطيع فهم الوحى ولا إدراك مفاهيمه السامية إلا إمام هذه الدعوة وهو «الباب» أو «البهاء» ويقولون: وما يعلم تأويله إلا الله أى البهاء.
٢. القول بألوهية البهاء وذلك بعد أن تدرج فى الادعاء من المهدويه إلى النبوة والرسالة ثم إلى الألوهية.
٣. كتاب البهاء نسخ جميع الكتب السابقة والأديان الماضية، فهذه الأديان لا تصلح للعالم فى هذا الزمان.
٤. جاء البهاء بدين يرى أنه يصلح لجميع الناس فهو دين التقدم والمدنية.
٥. جعل الصلاة تسع ركعات فى ثلاثة أوقات. البكور والزوال والآصال.
٦. أبطال صلاة الجماعة.
٧. جعل القبلة «عكا، كما جعل الحج إليها للرجال دون النساء، وإنما خصت «عكا» بهذا الفضل لأن البهاء مات فيها.
٨. حرم على النساء الحجاب وأوجب السفور والاختلاط.
٩. جعل الحدود عقوبات مادية.
١٠. أنكر معجزات الأنبياء كما أنكر القيامة بما فيها من بعث وحشر وميزان وصراط وحساب وجنة ونار، وأول النصوص الدالة على ذلك تأويلا يأباه العقل وينبو عنه الذوق.
١١. يعتقدون أن المسيح قتل وصلب وأنه لن يعود بنفسه وإنما تحل روحه فى البهاء أو خليفته.
١٢. يعتقدون بالحلول كما يقول المسيحيون بحلول اللاهوت فى الناسوت.
١٣. يربطون عبادتهم بالسنة الشمسية لا القمرية، ويجعلون عيدهم النيروز والسنة تسعة عشر شهراً وكل شهر تسعة عشر يوما والأيام الأربعة أو الخمسة الباقية أيام إباحة لأتباع ملتهم وهى أعيادهم.

وهؤلاء كفار يفترون على الله الكذب، وقد قال سبحانه فى أمثالهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَم يُوحَ إِلَيْهِ شَيءٌ وَمَن قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّه﴾سورة الأنعام: ٩٣.

أساليبهم فى الدعوة

غاية البهائيين إضلال الناس وصرفهم معتقداتهم السليمة وإشاعة الفرقة بين طبقات الأمة، فليسوا أصحاب مبادئ يدافعون عنها. وللوصول إلى هذه الغاية يبيحون لأنفسهم انتهاج أى طريق، فإذا كانوا ينفثو ن سمومهم بين المسلمين تظاهروا بالإسلام وحب الإصلاح، وإذا التقوا باليهود ادعوا أنهم منهم وعلى دينهم، وكذلك يفعلون مع المسيحيين، وهم يدعون أن غايتهم جمع الناس على دين واحد، وإزالة البغضاء والحقد من نفوسهم، فإذا آنس داعيتهم ضعفاً من مستمعيه وميلا إلى تصديق هذا الزيف أخذ يشككهم فى معتقداتهم ويلقى أمامهم الشبهات، ولكن المخلصين فطنوا الهذه الأساليب فأظهروا زيفها وطمسوا بريقها.

القديانية

«أدبى وعلمى شعبتيه»

ظهر أثر الاستعمار الإنجليزى الهند جلياً فى تفريق كلمة المسلمين، وتشكيكهم فى معتقداتهم بحمايتهم «غلام أحمد» مؤسس القديانية أو الأحمدية.

ولد غلام أحمد فى «قديان» مركز بنجاب من أعمال كورداسور بالهند سنة ١٢٥٢ هـ. تعلم العربية والمنطق والفلسفة والطب واطلع على العلوم الدينية، ثم تقلد وظيفة فى إدارة نائب المندوب السامى البريطانى، ولعل هذا كان سبباً فى حماية الإنجليز له بعد سلوكه وسيره فى نفس الطريق التى سار فيها أمثاله كالباب والبهاء، مدفوعاً بعوامل سياسية لتفريق وحدة المسلمين، فادعى أنه المهدى ثم تدرج حتى ادعى النبوة والرسالة، وجاء بكتاب أسماه «مكتوب أحمد» ولقب نفسه «أحمد المسيح» وخلط فيه بين الحق والباطل، فتارة يقول إنه يعترف بالقرآن ويستشهد ببعض آياته كما يعترف برسالة محمد عليه السلام، ولكنه يرى أنه أرسل بعده لهداية الناس، فليس محمد عليه السلام فى رأيه خاتم الرسل بمعنى آخرهم، وإنما هو خاتمهم بمعنى حليتهم فلا يمنع أن يكون بعده نبى هو أحمد المسيح.

وتتلخص مبادئ القديانية فيما يلي :

١. الاعتراف برسالة محمد ولكنه ليس آخر الأنبياء، ويؤولون ما يدل على أنه خاتم بأنه حلية.
٢. الوحي لم ينقطع بعد وفاة محمد عليه السلام.
٣. نزل الوحي على أحمد بكتاب ناسخ لما قبله من الكتب وهو مؤيد للقرآن في جملته وناسخ لبعض أحكامه، بشأن كل شريعة تأبى بعد شريعة أخرى.
٤. احمد هو النبي المؤيد بشريعة محمد وهو المسيح الذي أخبر محمد بنزوله.
٥. أهم شئ تناوله النسخ تحريم الجهاد على المسلمين ووجوب طاعتهم لأولي الأمر من الإنجليز ! ولا غرابة فهم أرباب نعمته.
٦. كما أن البهائيين قدسوا عكة وجعلوها كعبة لموت البهاء فيها، كذلك جعل غلام أحمد (قديان ومسجدها) في منزلة مكة ومسجدها وجعل الحج إليها كالحج إلى مكة، فهي ثالثة الأماكن المقدسة لأنه ولد فيها.
٧. هو وأتباعه أفضل من جميع الأنبياء السابقين وأتباعهم.
٨. من لم يصدق برسالته من المسلمين فهو كافر، سأنه شأن اليهود الذين لم يصدقوا برسالته عيسىٰ، فهو في السلسلة المحدية كعيسى في السلسلة اليهودية.
٩. سنة محمد عليه السلام ليست أصلا في التشريع بجوار القرآن.
١٠. آيات القرآن لا يستطيع فهم حقيقتها وإدراك ما فيها إلا المسيح القدياني.

وقد عمتى على الناس في أول الأمر، واوهمهم أنه مصلح إسلامي لايرجو لهم إلا الخير، وأخذ يستخدم القرآن للوصول إلى غايته.

وقد تولى خليفته (نور الدين) الأمر من بعده، وظل يسير على نفس النهج الذي سار فيه سلفه، تؤيده السلطات الإنجليزية المستعمرة، وتمده بالمال والعون كما كانت تمد أستاذه.

وقد دب الخلاف بين الأتباع في أواخر حياة نور الدين، ولما مات انقسم أتباعه إلى قسمين.

١. شعبة في قديان برياسة محمود بن غلام أحمد، وقد سار هؤلاء في نفس الطريق التي سار فيها سلفهم وآمنوا بنبوة أحمد.

٢. شعبة «لاهور» برياسة «محمد على» وكان هؤلاء يرون فى أحمد مصلحاً إجتماعياً وإسلامياً، ولا يصلون به إلى درجة النبوة، وكأنهم يكذبونه فى ادعاء النبوة وهذا تناقض منهم، وقد ترجم رئيسهم «محمد على» القرآن إلى الانجليزية.

ولا يخرج أصحاب هذه المذاهب الباطلة عن أن يكونوا أداة فساد في هذا الدين المتين، فهم عون الاستعمار فى تقرير كلمة المسلمين، وقد استطاع الشرق أن يهزم الستعمار السكرى وأن يخرجه من بلاده مدحورا، ولكن جذوره فى الثقافة، وعوامل الفرقة التى بثها بين المسلمين لا تزال فى حاجة إلى حرب قوية حتى تجتث من أصولها ويعود للدين مجده والحق وسلطانه.

السمعيات

هناك أمور غيبية لا يستطيع العقل إدراكها وحده، لأنها وراء المادة المدركة بالحواس، وطريق الإيمان بها هو السمع من الصادق الأمين الذى صدقة الله بالمعجزة، وهذه الأمور السمعيات لا تخضع لأحكام دنيانا المادية المدركة بالحواس، لذلك يجب الإيمان بما أخبر به الصادق فحسب دون أن نزيد عليه أو ننقص منه، ودون أن يسبح الخيال فى تصور مالم يخبر به الصادق، فمدار الأمور الغيبية على السمع ولذلك سميت (سمعيات).

الملائكة

جمع مالك، وهم أجسام لطيفة نورانية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة فى أشكال حسنة، شأنها الطاعة ومسكنها السموات غالبا ومنهم من يسكن الأرض وكان الرسل عليهم السلام يرونهم تارة على صورتهم الحقيقية، وتارة بأشكال أخرى، ونحن لم نكلف معرفة جوهر الملائكة ولا أشكالهم، فإذا أخبرنا أنهم ذوو أجنحة فهم كذلك من غير أن نخوض فى شكل الأجنحة ولا كنهها، وإنما نسلم بما أخبرنا القرآن أو الحديث من غير أن نزيد.

عصمتهم:

العصمة لغة مطلق الحفظ، واصطلاحاً حفظ الله المكلف من الذنب مع استحالة وقوعه، ولما لم تدخل الشهوة فى تركيب الملائكة كانت طبيعتهم الطاعة، فهم معصومون محفوظون

من الذنب ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُم وَيَفعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ﴾سورة التحريم: ٦ ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْل وَالنَّهَار لَا يَفْتَرُون﴾سورة الأنبياء: ٢٠ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَافِى الأَرض مِن دَآبَّةٍ وَالمَلَائِكَةُ وَهُم لَا يَسْتَكْبِرُون، يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُون﴾سورة النحل: ٤٩ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَولِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُون﴾سورة الأنبياء: ٢٧.

فالفرق بين عصمة الملائكة وعصمة الأنبياء أن الملائكة ليست عندهم قدرة على المعصية لعدم وجود الشهوة فى تركيبهم ، أما الأنبياء فعندهم القدرة على المعصية بطبيعة كونهم بشر ولكن الله يحفظهم ويحول بينهم وبين المعصيه فالعصمة واجبة للأنبياء وللملائكة كما يقول صاحب الجوهرة:

وعصمة البارى لكل حتما *

أى حفظ البارى أى الخالق لكل من الأنبياء والملائكة أمر حتم لازم اعتقاده.

وهنا يرد سؤال: هل تجوز العصمة لغير الأنبياء والملائكة؟

أو هل يجوز لنا سؤال العصمة بأن نقول: اللهم انا نسألك العصمة؟

إذا أردنا المعنى اللغوى أى مطلق الحفظ جاز السؤال. أما إذا قصدنا المعنى الاصطلاحى فإنه لا يجوز لأن العصمة بالمعنى الاصطلاحى لا تكون إلا للأنبياء والملائكة.

والمشهور عصمة جميع الملائكة.

وقيل إن العصمة خاصة برؤساء الملائكة.

وقد وردت بعض نصوص يدل ظاهرها على عدم عصمتهم ووقوعهم فى المعصية، وتمسك بها من قال بعدم عصمتهم وهى شبه واهية نوردها ونرد عليها إن شاء الله فيما يلى.

رد الشبه الواردة على عصمة الملائكة:

١ـ عندما خاطب الله الملائكة بقوله ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَة﴾سورة البقرة: ٣٠ اعترضوا وقالوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾سورة البقرة: ٣٠ واعتراضهم هذا معصية الله سبحانه تخرجهم عن العصمة.

والصحيح أن سؤالهم لم يكن اعترضاً، وإنما كان استفهاماً حقيقياً ولذلك أجابهم سبحانه بقوله ﴿إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُون﴾سورة البقرة: ٣٠ فكأنهم يسألون عن الحكمة فى خلق هذا النوع الذى يعصيه.

أو أن السؤال وقع على سبيل التعجب من كمال حكم الله وإحاطة علمه بما خفى عليهم.

وقيل فى الرد إن العبد المخلص فى حب سيده يكره أن يكون له عبد آخر يعصيه، فكان سؤالهم على وجه المبالغة فى إعظام الله عز وجل.

٢. قصة هاروت وماروت، قال المعترض: إنهما ملكان وقعا في المعصية وهذا دليل على عدم عصمة الملائكة.

والجواب: أن القصة التى رويت في هذا الموضوع مختلقة من أساسها، من أكاذيب اليهود الذين طعنوا فى عصمة الأنبياء وعصمة الملائكة: وقد رد الله سبحانه على افتراءاتهم فى نفس الآية ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنِ الشَّيَاطِيْنَ كَفَرُوا﴾سورة البقرة: ١٠٢ وكما كذب اليهود على سليمان عليه السلام وكفروه، كذبوا عل الملكين ونسبوا إليهما المعصية، وقد أخبر الله سبحانه أنهما نزلا فتنة للناس واختباراً ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر﴾سورة البقرة: ١٠٢ وهذا صريح فى طاعتهما وتنفيذهما أوامر الله سبحانه بأن يعلما الناس السحر امتحانا لإيمانهم وطاعتهم، وقد حرم الله عليهم السحر، فهل ينتهون عنه، أم يغريهم به الشيطان فيفرقون به بين المرء وزوجه، وهذا يسير مع طبيعة التكليف (آلم. أَحَسِبَ النَّاس أَن يَترَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُم لَايُفْتَنُون﴾سورة العنكبوت: ١،٢.

أصنافهم:

ورد أن للملائكة أصنافاً مختلفة بحسب ما يوكل إليهم من أعمال بعد الاتفاق على أنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لم تركب فيهم الشهوة، فليسوا ذكوراً ولاإناثاً، ومن وصفهم بالذكورة فهو فاسق، ومن وصفهم بالأنوثة فهو كافر لتكذيبه قول الله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُم عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُم﴾سورة الزخرف: ١٩ وهم جند الله! لايعلم كنههم ولا مقدار عبادتهم ولاهيآتها إلا الله سبحانه ﴿وَمَايَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُو﴾سورة المدثر: ٣١.

الحافظون والكاتبون:

عهد الله إلى فريق من ملائكته أن يكونوا حفظة لخلقه يحفظونهم من المضار، وهؤلاء الحفظة لأفراد الإنس خاصة، وقل إن للجن حفظة كذلك، أما الملائكة فالظاهر أنه لا حفظة عليهم، يقول سبحانه ﴿لَهُ مُعَقِّبَات مِن بَيْنِ يَدَيْه وَمِن خَلفِه يَحفَظُونَه من أَمْرِ اللَّه﴾سورة الرعد: ١١ وهناك فريق آخر يكتب ما يصدر من العبد من قول أو فعل أو اعتقاد، ويجعل الله لهم علامة على الاعتقاد، ويرى بعض العلماء إن الحفاظ هم الكتاب مستدلين بقوله سبحانه ﴿وَإِنَّ عَلَيكُم لَحَافِظِين، كِرَامًا كَاتِبِين، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلون﴾سورة الإنفطار: ١٠-١٢ فهى أوصاف لصنف واحد من الملائكة، والفريق الأول يقول: ان كاتبين صنف آخر موصوف بالعلم ومعطوف بغير حرف على الصنف الأول. ويؤيد هذا الرأى الآية الأولى التى بينت مهمة الحافظين. كما يؤيده ما ورد من أن الحفظة لا يفارقون العبد أبداً، أما الكتبة فإنهم يفارقونه عند ثلاث حالات: عند قضاء الحاجة وعند الجماع وعند الغسل، كما جاء ذلك فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما، ويجعل الله لهم علامة على ما يصدر من العبد فى هذه الحالات فيكتبونه، ولا يفارقونه فى غير هذه الحالات الثلاث حتى ولو كان فى بيته جرس أو كلب أو صورة كما ورد فى الحديث ان الملائكة لاتدخل بيتا فيه جرس او كلب او صورة، فالمقصود ملائكة الرحمة.

أما عدد الحفظة فقد ورد أن لكل فرد عشرة بالليل ومثلهم بالنهار [1] وقيل عشرون، وقيل غير ذلك وحفظهم للعبد إنما هو من القضاء المعلق، أما القضاء المبرم فلا بد من إنفاذه فيتنحون عنه حتى ينفذ.

والكتبة ملكان، كل منهما رقيب أى حافظ، عتيد اى حاضر، فليس أحدهما رقيباً والآخر عتيدا كما يتوهم، يقول الله سبحانه ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾سورة ق: ١٨. وهما لا يتغيران ما دام حياً، فإذا مات يقومان على قبره يسبحان ويكتبان ثوابه إلى يوم القيامة إن كان مؤمناً، ويلعنانه إلى يوم القيامة إن كان كافراً.

وليست الكتابة لحاجة دعت إليها. فإنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور. وإنما ليقيم الحجة على العبيد يوم يعطى كل منهم كتابه فيقول ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَاب

(١) ورد أن عثمان رضى الله عنه سأل النبى ﷺ عن عدد الملائكة .... بالادمى فقال: لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار، واحد عن ..... وآخر عن شماله، واثنان بين يديه ومن خلفه، واثنان على ....، وآخر قابض على ناصيته، فإن تواضع رفعه، وإن تكبر وضعه واثنان على شفتيه ليس يحفظان علي ألا الصلاة على النبى ﷺ والعاشر يحرسه أن تدخل ....

لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾سورة الكهف: ٤٩ فلعلهم يستحون من المعصية إذا علموا أنها ستكتب.

وقد ورد أن أحد الملكين عن يمين العبد وهو مختص بكتابة الحسنات، والآخر عن يساره وهو مختص بالسيئات، كما ورد أن الأول أمير على الثانى فإذا فعل العبد حسنة بادر ملك اليمين: لكتابتها، وإذ فعل سيئة قال ملك اليسار: أأكتب؟ فيقول ملك اليمين: لا ... لعله يستغفر أو يتوب، فاذا مضت فترة ولم يتب قال: أكتب أراحنا الله منه، أما المباحات فقيل تكتب وقيل لا، والأصح الأول، لعموم قوله سبحانه ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾سورة ق: ١٨.

وهما يلازمان الشخص منذ كونه نطفة إلى أن يموت، وقيل يتوارد عليه أربعة، اثنان نهاراً واثنان ليلا، يتعاقبون عند صلاة العصر وعند صلاة الصبح.

وهل الكتابة حقيقية؟ وهل هى على قرطاس، وماآلتها وما مدادها وما لغتها؟ كل هذه أمور عيبيه لم يخبرنا الرسول بتفاصيلها فنترك علمها لله.

يقول صاحب الجوهرة:

بكل عبد حافظون وكلوا ... وكاتبون خيرة لن يهملوا

من أمره شيئا فعل ولو ذهل ... حتى الأنين فى المرض كما نقل

فحاسب النفس وقلل الاملا ... فرب من جد لأمر وصلا

التفاضل بين الملائكة وبين الأنبياء

العالم أجناس مختلفة متفاوتة مخلوقة الله سبحانه، يمتاز بعضها على البعض الآخر بخصائص وهبه لله إياها، وليس للعقل مجال فى إدراك هذا التفاضل إلا بقدر، والمعول عليه فى هذا الأمر هو السمع، وقد وردت نصوص تفيد أفضلية بعض العوالم على البعض الآخر.

فهؤلاء البشر كرمهم الله وفضلهم على كثير ممن خلق ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ . الآية﴾ سورة الإسراء: ٧٠ وسخر لهم ما فى السموات والأرض، ثم جعل هناك تفاوتاً بين أفراد البشر، وإن كانوا يخضعون للقانون العام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُم﴾سورة الحجرات: ١٣ ثم نجد نسبة بين المؤمنين من الثقلين وبين الملائكة، وكل ذلك يدخل فى باب العقائد.

وقد اتفق المسلمون على أن أفضل الخلق على الإطلاق هو خاتم الرسل محمد بن عبدالله المبعوث رحمة العالمين، ولم يشد عن هذا الإجماع إلا الزمخشرى الذى فضل عليه جبريل عليه السلام مستدلا بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُ لَقَولُ رَسُولٍ كَرِيمٍ الخ﴾سورة التكوير: ١٩ فقد وصف الله جبريل بأوصاف الخير الكثيرة، واقتصر فى جانب محمد ﷺ بنفى الجنون عنه بقوله ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾سورة التكوير: ٢٢ والحق أن الآية لم ترد لبيان التفاضل حتى تكون دليلا عليه، وإنما جاءت للرد على القائلين: إنما يعلمه بشر والقائلين: أفترى على الله كذبا أم به جنة، على أنه وصف عليه السلام فى غيره هذه الآية بكثير من أوصاف الخير كقوله سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾سورة القلم: ٤ وقوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾سورة التوبة: ١٢٨.

وهناك شبهة أخرى دفعت الزمخشرى إلى رأيه وهى أن جبريل كان معلماً لمحمد والأستاذ أفضل من التلميذ، وهذا دليل منقوض، فكم من تلميذ بذ أستاذه وأصبح أفضل منه، ولذلك لم يطعن رأى الزمخشرى فى إجماع الأمة.

ثم يليه عليه السلام فى الفضل الأنبياء، وهم متفاوتون فيما بينهم، يقول سبحانه ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ﴾سورة البقرة: ٢٥٣.

والرسل أفضل من الأنبياء لأنهم جمعوا بين النبوة والرسالة، وأفضل الرسل بعد محمد عليه السلام أولو العزم، وهم بقية الخمسة، محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم السلام، وسموا أولى العزم لأنهم صبروا أكثرهم من غيرهم على إيذاء قومهم، وتحملوا المشاق فى سبيل الدعوة. ويلى أولى العزم فى المرتبة بقية الرسل ثم الأنبياء.

ولا يصح الخوض فى تفضيل بعض الأنبياء والرسل على بعض بما ينقص من منزلتهم، فالأدب يقتضينا أن نمسك حتى لاتزل بنا القدم، وقد قال عليه السلام: لا تفضلونى على الأنبياء، وقال لا تفضلونى على نونس بن متى، وقال: لا تميزونى على موسى، تواضعا منه عليه السلام وتعليما لأمته حتى لا يخوضوا فيهم خوضاً يؤدى إلى تنقيص أحدهم فيأثموا.

ثم يأتى بعد هذه المنزلة الملائكة، ورؤساؤهم فى المقدمة كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ثم بقية الملائكة ثم بقية البشر غير الأنبياء.

هذا رأى الأشاعرة:

أما الماتريدية: فقد فصلوا الأفضلية، فقالوا: الأنبياء أفضل من رؤساء الملائكة، ورؤساء الملائكة أفضل من عامة البشر غير الفساق، وهؤلاء أفضل من عامة الملائكة. والعبرة فى التفضيل على هذا الرأى كثرة الثواب، فعوام البشر أكثر ثوابا من عوام الملائكة المعصومين، لتحمل البشر المشقة ومحاربة الهوى والشيطان بخلاف الملائكة المجبولين على الطاعة.

ورأى الماتريدية هذا الراجح.

أما المعتزلة والقاضى عياض وأبو عبدالله الحليمى فيرون أن الملائكة أفضل من الأنبياء إلا نبينا محمداً عليه السلام لأنه مستثنى من الخلاف كما مر معللين رأيهم بأن الملائكة قد جردوا من الشهوات، وقد رد هذا بأن وجود الشهوات مع قمعها وتهذيبها أفضل وأدل على الطاعة، يقول عليه السلام: أحب الأعمال إلى الله أحمزها أى أشقها.

وليس ذلك التفضيل داخلا فى أصل العقيدة، ولذلك لا يضر اعتقاد أحد هذه الآراء أو عدم اعتقاد أى شئ من ذلك، والأسلم عدم الخوض وترك الأمر لله سبحانه يحكم فيه بما يشاء. ولذلك يقول صاحب الجوهرة:

وأفضل الخلق على الإطلاق ... نبينا فمل عن الشقاق

والأنبياء يلونه فى الفضل ... وبعدهم ملائكة ذى الفضل

هذا وقوم فصلوا إذ فضلوا ... وبعض كل بعضه قد يفضل

الجن والشياطين

من الأمور الغيبية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم الجن والشياطين حيث يقول سبحانه ﴿شَيَاطِيْنَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِى بَعضُهُم إِلَى بَعضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ سورة الأنعام: ١١٢.

والجن خلق من خلق الله تناسلوا من إبليس، كما تناسل الإنس من آدم، ومن هؤلاء وهؤلاء المؤمن والكافر، وهذا رأى الحسن البصرى رضى الله عنه، وقد روى عن ابن عباس أن نسل أبليس هم الشيطان، أما الجن فهم جنس آخر فهم ولد الجان وهم كالأنس منهم المؤمن ومنهم الكافر.

والرأى الأول أقرب إلى الصواب. فقد ذكر الله سبحانه أنه خلق الجان من مارج من نار. وقال فى حق إبليس إنه ﴿كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّه﴾سورة الكهف: ٥٠ وقال على لسانه ﴿خَلَقْتَنِى من نَار﴾سورة الأعراف: ١٢ فالجن إذن مخلوقون من النار وقد تحولوا إلى أجسام شفافة تستطيع التشكل بما تريد، وفيهم القدرة على رؤيتنا وليس فينا القدرة على رؤيتهم، يقول سبحانه ﴿إِنَّهُ يَرَاكُم هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِن حَيثُ لَا تَرَونَهُم﴾سورة الأعراف: ٢٧.

وقد ثبت وجود الجن بالقرآن والسنة. وسميت سورة كاملة باسمهم، ذكر فيها سبحانه استماع الجن إلى دعوة الإسلام، واهتداء فريق منهم بذلك النور ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَم فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾سورة الجن: ١٤، وكان الجن يستمعون إلى القرآن كما يقول سبحانه ﴿وَإِذَ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ..﴾سورة الأحقاف: ٢٩.

وقد خاطبهم الله مع الإنس حيث يقول ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِن اسْتَطَعْتُم أَن تَنْفُذُوا مِن أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَ ان﴾ سورة الرحمن: ٣٣ كما يقول سبحانه لكافريهم يوم القيامة مقيما عليهم الحجة ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَم يَأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِى﴾سورة الأنعام: ١٣٠.

وقد أنكر وجود الجن جماعة من المتكلمين وصرفوا الآيات عن ظاهرها، وقالوا إن المقصود بالجن والشياطين هم أولئك الكفرة من الإنس. وهذا قول بعيد عن الحق فالقرآن ضريح فى وجود هذا العالم وتكليفه كالإنس.

والسنة كذالك مشحونة بهذا المعنى. وقد قابلهم عليه السلام وبلغهم الدعوة واستمعوا إلى القرآن وآمنوا به. وقد أثنى عليهم ﷺ لما قرأ سورة الرحمن على الناس وسكتوا فقال: إن الجن كانوا أحسن منكم، ما قرأت عليهم فبأى آلاء ربكما تكذبان إلا قالوا: ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد.

أما الشياطين فهم عصاة الجن جنود إبليس، مهمتهم تزيين الشر للإنس والجن وإبعادهم عن الجادة، وفيهم يقول عليه السلام: إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، ويدل على

تكليفهم قوله سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتَ الجِنَّ وَالإِنْسِ الَّا لِيَعْبُدُون﴾سورة الذاريات: ٥٦ وقوله ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَم يَأتِكُم رُسُلُ مِنْكُم يَقُصُّونَ عَلَيكُم آيَاتِى...﴾سورة الأنعام: ١٣٠.

العرش والكرسى

من مظاهر عظمة الألوهية وجلالها أن يكون له سبحانه - وهو الخالق المتصرف فى ذلك الكون عرش وكرسى، وقد ثبت وجودهما بالقرآن، يقول سبحانه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْش اسْتَوَى﴾سورة طه: ٥ ويقول ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء﴾سورة هود: ٧ ويقول ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض﴾سورة البقرة: ٢٥٥.

وقد وردت آثار تدل أن العرش فوق الكرسى، وأن الكرسى يحيط بالسموات السبع، وأن العرش من فوقه يحيط بالعالم، فهو كروى، أو هو من كالقبة فوق العالم، وأنها أجسام نورانية أو مخلوقات من زبرجدة خضراء أو من ياقوتة حمراء، والأولى الإمساك عن الخوض فى هذه التفاصيل التى لم يردبها نص، ويكفى أن نؤمن بأن هناك عرشاً وكرسياً، وأن العرش يحمله الآن أربعة من الملائكة كما ورد فى بعض الأحاديث، ويحمله يوم القيامة ثمانية ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾سورة الحاقة: ١٧.

القلم واللوح

كذلك ورد فى القرآن ذكر القلم واللوح، وقد أقسم سبحانه بالقلم حيث يقول: ﴿ن. وَالْقَلَم وَمَا يَسْطُرُون﴾سورة القلم: ١ وذكر اللوح فى قوله: ﴿بَلْ هُوَ الْقُرآنٌ مَجِيد. فِى لَوح مَحْفُوظ﴾ سورة البروج: ٢١،٢٢ وكلاهما جسم نورانى عظيم، خلقهما سبحانه وأمر القلم أنْ يكتب فى اللوح ما كان وما يكون إلى يوم القيامة. وقد قيل إن القلم من اليراع وهو القصب وقيل إن اللوح له وجهان أحدهما من ياقوتة حمراء والآخر من زمردة خضراء، والأولى أن نمسك عن حقيقتهما فإنها من الأمور الغيبية التى لم يخبرنا بها الصادق الأمين، ويكفى أن نؤمن أن هناك قلماً ولوحاً.

والملائكة الكاتبون ينسخون من اللوح المحفوظ، وهم غير الملائكة الذين يكتبون أعمال العباد فى الدنيا، وغير الذين يكتبون من صحف الملائكة كتاباً يوضع تحت العرش، فالكاتبون أقسام ثلاثة.

حكمة هذه المخلوقات: وهذه المخلوقات من عرش وكرسى وقلم ولوح وملائكة يكتبون وجدت لحكمت عليا يعلمها سبحانه، وليست لحاجة إليها لأن الله سبحانه يتعالى عن الاحتياج. وقد يدرك العقل شيئاً من هذه الحكم وقد لا يدرك فيفوض الأمر فيها لله سبحانه. يقول صاحب الجوهرة:

والعرش والكرسى ثم القلم　　والكاتبون اللوح كل حكم

لا لاحتياج، وبها الإيمان　　يجب عليك أيها الإنسان

الروح

يتكون الإنسان من جسم وروح، والجسم المادى أمره ظاهر، فتكوينه وأجزاؤه محل بحث ودراسة، أما الروح فقد استعصى فهمها على الناس منذ القدم فاتجهوا إلى البحث عنها فى الخيال، وفى صدر الإسلام سئل الرسول عليه السلام عنها فنزل قوله سبحانه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّى وَأَمَّا أُوتِيتُم مِن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾سورة الإسراء: ٨٥. وقد فهم بعض العلماء أن فى هذه الإجابة صرفاً للمسلمين عن الخوض فيها، لأنها غيب مما استاثر الله سبحانه بعلمه، ولم يطلع أحدا من خلقه عليه، فالخوض والبحث عن كنهها وتركيبها مكروه، وبالغ بعضهم كالجنيد فجعله حراما، ولكن كثيراً من العلماء رأوا أنه لا مانع من الخوض فيها والبحث عن تركيبها، لنعلم من وراء ذلك قدرة الخالق وإبداعه، ويرون مع ذلك أن الآية الكريمة ليس فيها ما يشير إلى تحريم البحث أو كراهيته، وإنما فيها ما يدفع إليه ويحث عليه، لأنها نوع من العلم الخاضع للتحصيل، وفى تذييل الآية بقوله ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾سورة الإسراء: ٨٥ ما يشير إلى هذا.

ومن هؤلاء بعض المالكية الذين قالوا إن الروح جسم ذو صورة كصورة الجسد فى الشكل والهيئة، ويوضح ذلك عبد الرحيم بن خالد فيقول: الروح ذو جسم ويدين ورجلين وعينين ورأس تسل من الجسد سلا، ويقول إمام الحرمين: أنها جسم لطيف شفاف مشتبك بالجسم كاشتباك الماء بالعود الأخضر فهى سارية فى جميع البدن، وقال آخرون إن مقرها القلب، وقيل بقرب القلب، وقيل البطن.

ومذهب جماعة من الصوفية والمعتزلة أنها ليست بجسم ولاعرض بل جوهر مجرد ومتعلق بالبدن التدبير غير داخل ولاخارج عنه.

والشارع الحكيم لم ينص صراحة على حقيقتها أو شكلها، لأن معرفة ذلك مما يتوقف عليه الإيمان، ولا صحة العبادة، وهى كأعضاء الجسم المادية ستخدمها الشرع الحكيم في الاستدلال على الخالق المبدع، كما يقول سبحانه ﴿وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾سورة الذاريات: ٢٠-٢١.

وكما ترك الإسلام حرية البحث فى تركيب الأعضاء ومعرفة ما ينتابها من أمراض وعلل ليعمل على شفائها أو التخفيف من آلامها، كذلك ترك للناس أن عن يبحثوا عن الروح كما يشاءون لعلهم يستفيدون من ذلك فى خدمة الإسانية.

وقد ذهب العز بن عبد السلام، إلى أن كل فردله روحان، رقح اليقظة وروح الحياة، فاذا خرجت الأولى نام، وإذا خرجت الثانية مات، وهما فى باطن إنسان لا يعرف مقرهما إلا الله وذلك أخذا من قوله سبحانه ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَم تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾سورة الزمر: ٤٢ وليس فى الآية دليل على وجود روحين وإنما هى روح واحدة، وشبه النوم بالموت لعدم التمييز.

حدوث الروح: وقد أجمع المسلمون على حدوثها، ثم منهم من قال إنها خلقت قبل البدن، ومنهم من قال إنها خلقت بعد البدن، والأولون يستدلون بقوله سبحانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى...... ﴾سورة الأعراف: ١٧٢، وبقوله عليه السلام: الأروح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، ويقول أصحاب هذا الرأى: إن الأرواح يوم أخذت من الظهور كان بعضها يولى البعض وجهه وهذا غاية المودة، وبعضها يولى البعض ظهره وهذا غاية الكره، وبعضها يتقابل بالجنب فهو بين بين، وهذا يفسر التعارف والتناكر الذى ورد فى الحديث. أما الفريق الآخر، ومنهم الغزالى، فيرى أن الروح قد خلقت بعد الجسد، ويستدل بقول الرسول عليه السلام كما فى الصحيح: إن ابن آدم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ولو كانت مخلوقة قبل ذلك لقال فيضع أو فيدخل فيه الروح، والرأى الأول هو الأقرب إلى الصواب، ولا يعارضه الحديث فقوله فينفخ فيه يحتمل نفخ الروح الموجودة قبل ذلك.

وقد رأى أهل السنة أن الأسلم عدم الخوض فى حقيقة الروح وكنهها حتى لا تزل العقول، فتثبت أشياء ليس لها وجود، أوتنفى أمورا ثابتة.

ولذلك يقول صاحب الجوهرة معبراً عن رأيهم:

ولا تخض فى الروح إذ ماوردا　　نص عن الشارع لكن وجدا

لما لك هى صورة كالجسد　　فحسبك النص بهذا السند

الموت

من الأمور البديهية التى يشاهدها الناس كل آن انتهاء حياة الأفراد، وتوقف الحركة والحس والشعور فيهم. وعدم عودتهم إلى هذه الحياة مرة أخرى، وقد سميت هذه النهاية بالموت.

وقد ذهب الناس فى تفسير هذه الظاهرة منذ القدم مذاهب شتى إذ لم يعد أحد ممن انقضت حياتهم ليخبر بما لقى، فلم يبق إلا الظن والتخمين، أو ألاعتماد على النقل والسمع من المعصومين.

قال الدهرية الذين لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة: إن الزمن هو الذى يهب الحياة وهو الذى يسلبها، وليس هناك، شئ بعد ذلك، فما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع.

أما الحكماء فقالوا: إن الموت ينشأ عن اختلال نظام الطبيعة.

وهما رأيان فاسدان، فكلاهما لا يبنى رأيه على وجود خالق مختار منظم لذلك الكون، وقد ثبت بما لا يقبل الشك ولا الجدال وجود الخالق الحكيم.

أما المتدينون: فيرون أن الموت نشأ عن انتهاء الأجل الموهوب من الخالق الحكيم، ولكل فرد أجل كما أن لكل أمة أجل ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لَا يَسْتَأخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون﴾ سورة الأعراف: ٣٤ وقد ورد فى القرآن الكريم أن الذى يتولى مهمة إنهاء الحياة نوع من الملائكة على رأسهم ملك الموت، ولذلك ينسب الموت إليه تارة كما فى قوله سبحانه: ﴿قُل يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْموتِ الَّذى وُكِّلَ بكم﴾سورة السجدة: ١١ وينسب الموت إلى أعوانه تارة كما فى قوله سبحانه: ﴿حَتَّى اِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُم لَا يُفَرِّطُون﴾ سورة الأنعام: ٦١ وينسب إلى الله سبحانه باعتباره الخالق الحقيقى كما فى قوله ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنفُس حِينَ مَوتها﴾سورة الزمر: ٤ والموت مقدر على كل مخلوق، يقول سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْت﴾سورة آل عمران: ١٨٥ ويقول مخاطباً رسوله الأمين ﴿إِنَّكَ مَيِّت وَإِنَّهُم مَيِّتُون﴾سورة الزمر: ٣٠.

هل الموت وجودى أو عدمى؟

اتفق العلماء على أن الحياة أمر وجودى لأنها حركة وحس ونماء، وكلها أمور موجودة، أما الموت فقد وقع الخلاف فى تحقيقه:

فقال الأشعرى إنه وجودى. وعرفه بأنه كيفية أى صفة وجودية تضاد الحياة، واستدل على ذلك بقوله سبحانه: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاة﴾سورة الملك: ٢ وخلق الشئ إيجاده، وقد وقع الخلق على الموت وعلى الحياة فهما وجوديان.

ورأى الإسفرايينى والزمخشرى أن الموت عدم، وعرفاه بأنه عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حيا. وأول الخلق فى الآية بالتقدير، أى قدر الموت والحياة.

وملك الموت وأعوانه يقبضون أرواح الثقلين(١) وأرواح الملائكة، وكذلك أرواح البهائم والطيور والحشرات كما قال أهل السنة، أما المعتزلة فقد خصوه وأعوانه بالثقلين والملائكة فحسب.

ومنكر الموت بالمعنى الذى قرره للقرآن كافر لإنكار القرآن، أما كونه وجودياً أو عدمياً وكون ملك الموت واعوانه يقبضون أرواح الثقلين فحسب أوهما وبقية المخلوقات الحية فأمور ظنية لم تثبت بأدلة قاطعة فلا ضير على من اعتقدها أو لم يعتقدها.

يقول صاحب الجوهرة:

وواجب إيماننا بالموت ويقبض الروح رسول الموت

أثر الموت فى جزئى الانسان

عرفنا أن الإنسان مكون من جسم وروح وأنه يبقى حيا مادامت الروح متصلة بالجسم فاذا انفصلت عنه انتهت الحياة، والذى نشاهده أن الجسم تتفكك اجزاؤه بعد فترة من الزمن طالت أو قصرت. أما الروح فلا نشاهد من أمرها شيئاً، فل يفنى الجسم وتفنى الروح؟

١- الإنس والجن.

إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَان، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبُّكَ ذُو الجَلالْ وَالإِكْرَام﴾سورة الرحمن: ٢٦،٢٧ ويقول ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾سورة القصص: ٨٨.

وهناك وقت تنتهى فيه الحياة الدنيا حين ينفخ فى الصور النفخة الأولى، يقول سبحانه فى شانها: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّور فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّه﴾ سورة الزمر: ٦٨، وتمضى فترة يعلمها الله ﴿ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَام يَنْظُرُون﴾.سورة الزمر: ٦٨ فما شأن الجسم والروح فى هاتين الفترتين اللتين تسبقان القيامة؟

أما الروح فقد أجمع المسلمون على بقائها منذ الوفاة إلى النفخة الأولى فى الصور وتكون منعمة إن كانت من أهل الخير، ومعذبة إن كانت من أهل الشر -كما سيأتى فى عذاب القبر ونعيمه - وتكون بأفنية القبور كما ورد فى الصحيح.

أما عند النفخ فى الصور فقد اختلف العلماء فى بقائها وفنائها، فالبعض أخذ بظاهر قوله سبحانه ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَان﴾سورة الرحمن: ٢٦ وبقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ سورة القصص: ٨٨ فقال إنها تفنى عند النفخة الأولى، والبعض الآخر يرى أنها لا تفنى عند النفخ فى الصور، وأنها من المستثنى فى قوله سبحانه ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّور فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّه﴾سورة الزمر: ٦٨ وشأنها فى ذلك شأن رؤساء الملائكة الأربعة فالعموم آية ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَان﴾سورة الرحمن: ٢٦ وآية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾سورة القصص: ٨٨ مخصوص بهذه الآية.

أو نقول ليس هناك استثناء ولا تخصيص، ومعنى قوله «فان» و «هلك» أنه قابل للفناء والهلاك لافان وهالك بالفعل.

والقول بعدم فناء الروح عنط النفخة الأول هو الأصح، وهو الذى اختاره الإمام تقى الدين السبكى.

عجب الذنب

أما الجسم فإنه يبلى ويبقى جزء واحدا، أخبر الرسول عليه السلام ببقائه وهو عجب الذنب، وهو عظم كالخردلة فى آخر سلسلة الظهر مختص بالإنسان وهو يقابل مغرز الذنب فى الدابة.

ورد فى الصحيحين: ليس من الإنسان شئ إلا يبلى.. إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب منه خلق الخلق يوم القيامة، وفى حديث مسلم: كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب، وفيه أيضا: إن فى الإنسان عظماً لا تأكله الأرض.

وقد وقع الخلاف فى فناء ذلك الجزء عند النفخة الأولى، فرجح الإمام إسماعيل بن يحيى المزنى وابن قتيبة فناءه لعموم قوله سبحانه ﴿كُلُّ مَن عَلَيهَا فَان﴾سورة الرحمن: ٢٦ وقالا إنه آخر ما يبلى من الميت، والأصح أنه لا يبلى للأحاديث الصريحة التى مرت عليك، ويكون داخلا فى الاستثناء فى قوله ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّه﴾سورة الزمر: ٦٨ أو يكون المعنى قابل للفناء والهلاك كما قلنا فى الروح، فقد وردت الأحاديث باستثناء أشياء من الهلاك عند النفخة الأولى نظم الإمام السيوطى ثمانية منها فى قوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها   من الخلق والباقون فى حيز العدم

هى العرش والكرسى نار وجنة   وعجب وأرواح وكذا اللوح والقلم

وهل بقاء عجب الذنب معلل أم هو أمر تعبدى لم يدرك العقل علته ؟ ، قيل إنه معلل بأنه جعل علامة للملائكة الموكلين بالإعادة على إحياء كل إنسان بحواهره التى كانت فى الدنيا، وهو تعليل ضعيف فالملائكة لا يخفى عليهم هذا، وإذا جاز أن يلتبس عليهم غير عجب الذنب فإنه يلتبس كذلك فى عجب الذنب. والصحيح أنه أمر تعبدى محض.

يقول صاحب الحوهرة فى هذا الشأن:

وفى فنا النفس لدى النفخ اختلف   واستظهر السبكى بقاها الذعرف

عجب الذنب كالروح لكن صححا   المزنى للبلى ووضحا

وكل شئ هالك قد خصصوا   عمومه فاطلب لما قد لخصوا

أجل المقتول

قد يصاب العبد فى حادث فتزهق روحه، وقد يتعجل البعض زهوق هذه الروح فيضربونه بما يزهق روحه فيسمى مقتولا.

فهل المقتول ميت بانقضاء عمره كمن مات حتف أنفه؟

يقول أهل السنة إن الأجل واحد لا يقبل الزيادة ولا النقص، فما قدره الله لشخص لا بد أن يتم حسبما قدر، كما فى قوله سبحانه ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُم لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾سورة الأعراف: ٣٤ وكما يقول عليه السلام: إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وتستوفى أجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب. فلو لم يقتل لجاز أن يموت فى ذلك الوقت وأن لا يموت حسب ما فى علم الله، لأنه لا اطلاع لنا على ما فى علمه سبحانه، وقد ظهر بالقتل أن عمره انقضى عند ذلك الحد ولا مدخل للقاتل فى إنهاء عمره، وإنما وجب عليه القصاص لأنه من كسبه فقط، وقد مر عليك مبحث الكسب فى أفعال العباد وعلمت ما فيه، ولا يعكر على هذا الرأى ورد من أن بعض الطاعات كصلة الرحموالصدقة يزيد فى العمر، فالمقصود بالزيادة هو الخير والبركة، أو الزيادة بالنسبة لما ثبت فى صحف الملائكة، وقد يعلق الله الزيادة فى العمر على الطاعة إظهارا لشأنها، وهو يعلم أنه سيفعل أو لا يفعل فيعلم سبحانه العمر الحقيقى، ولا بد من تحقق ما فى علمه سبحانه، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١)سورة الرعد: ٣٩

أما المعتزلة: فقد رويت عنهم أقوال ثلاثة فى الموضوع:

رأى الكعبى: أن القتل فعل العبد والموت فعل الله، فالمقتول ليس بميت ويدل على هذا قوله سبحانه ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أو قُتِلْتُم﴾سورة آل عمران: ١٥٨ والعطف يقتضى المغايرة فالقتل غير الموت، فهناك أجلان للمقتول، فلو لم يقتل لعاش إلى أجل الموت.

والرأى الثانى: لجمهور المعتزلة وهو أن المقتول له أجل واحد، وهو أجل الموت، حدده الله له لو لم يقتل، والقاتل قطع ذلك لأجل.

والرأى الثالث: لأبى الهزيل، وهو أن المقتول له أجل واحد وهو الوقت الذى قتل فيه، فلو لم يقتل لمات فى نفس اللحظة.

١- أم الكتاب أصل اللوح المحفوظ وهو علمه تعالى الذى لا محو فيه ولا ثبات، وأما اللوح المحفوظ فالحق المحو والإثبات كصحف الملائكة، وقيل أم الكتاب: اللوح المحفوظ.

يقول صاحب الجوهرة مقرراً رأى أهل السنة:

ووَاجِبٌ إيمانُنا بالموت   ويقبض الروح رسول الموت

وميت بعمره من يقتل   وغير هذا باطل لا يقبل

الشهيد

إذا كان القتل فى حرب بين المسلمين وأعدائهم سمى المقتول من المسلمين شهيدا. والحرب بين المسلمين وأعدائهم ضرورة تدعوا إليها مصلحة المجتمع ﴿وَلَو لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾سورة الحج: ٤٠.

ولا بد أن تزهق أرواح فى هذه الحرب دفاعا عن العقيدة والوطن، وقد رغب الإسلام فى الجهاد ووعد من انتصر بالعزة والكرامة، ومن مات بالشهادة والجنة، يقول سبحانه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُم أَن يُصِيْبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِن عِنْدِهِ أَو بِأَيْدِينَا﴾سورة التوبة: ٥٢ فالمؤمن الذى يجود بروحه دفاعا عن دينه وعقيدته ونشرا للهداية والسلام فى العالم ليس له جزاء إلا الجنة. يدخلها بغير حساب تسرح روحه فيها وتمرح فى حواصل طيور خضر، وقد كتب له الخلود والبقاء، فحياته فى البرزخ ليست كحياة من مات حتف أنفه، يقول سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّه أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِم يُرْزَقُون فَرِحِيْنَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُون بِالَّذِينَ لَم يَلْحَقُوا بِهِم مِن خَلْفِهِم الَّا خَوْفٌ عَلَيهِم وَلَاهُم يَحْزَنُون. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّه لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِين﴾سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١.

وقد قسم العلماء الشهيد ثلاثة أقسام: فهناك شهيد الدنيا والآخرة، وشهيد الدنيا فحسب، وشهيد الآخرة فحسب.

فشهيد الدنيا والآخرة هو المقصود بذلك البحث وهو الذى مات فى حرب يقصد وجه الله وإعلاء كلمته، أما شهيد الدنيا فهو الذى مات فى الحرب ولكنه يقصد أن يظهر شجاعته ويرائى الناس بذلك أو يحصل على الغنيمة، ولما كانت القلوب لا يطلع عليها إلا الله لم نستطع التفريق بينهما فى الدنيا فجعل حكمهما هنا واحدا، فلا يغسلان ويصلى

عليهما[1] ويدفنان بملابسهما التى قتلا فيها وبدمائهما التى سالت فى الحرب، ثم يفصل بينهما عند الله فيكون الأول شهيداً يدخل الجنة بغير حساب ويحصل على ما وعد الله به الشهداء، أما الآخر فليس له إلا ما قصد من غنيمة عاجلة أو رياء يحبط عمله فلا يكون له ثواب يوم القيامة، ولذلك سمى شهيد الدنيا فحسب.

أما القاسم الثالث: فهوى الذى ابتلي بما يشق على النفس حتى مات، كمن مات فى حريق أو هدم أو غرق أو قتل خطأ أو عمداً فى غير حرب.

وكذلك المحموم والمبطون، فإذا صبر على ما ابتلى به واحتسب أجره عند الله وكان له أجر شهيد فى الآخرة، أما حكمه فى الدنيا فإنه كسائر الأموات يغسل ويكفن ويصلى عليه.

وقد أخبر اللّه سبحانه أن شهيد الحرب حى وليس بميت، وأخبر الرسول أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح وتمرح فى الجنة، فكيف تكون حياته هذه مع أننا نراه ميتاً كغيره من الموتى؟

عرفنا أن هناك حياة برزخيه ينعم فيها الصالحون ويعذب الكافرون وهذه الحياة الغيبية متفاوتة، فالشهداء أكمل حياة من عامة الناس، وحياة الأنبياء أكمل من حياة الشهداء، وهى حياة ثابتة للذات والروح وإن كانت كيفيتها مجهولة لنا لأنها حياة غيبية.

أما كون الشهداء يرزقون فى الجنة ويأكلون ما يشتهون فليس ذلك لحاجتهم الى الطعام والشراب كشأنهم فى الدنيا، بل يكون ذلك تنعماً وتلذذاً من غير حاجة إليه، وتكون أجسامهم حية مع أن أرواحهم فى حواصل طيور خضر[2] لأن لها اتصالا وثيقا بها، وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن هذه الحياة لاتقاس على الحياة الدنيا لأنها حياة غيبية لا تخضع لقوانين الدنيا وأسبابها فهى خارقة للعادة الجارية بين أظهرنا - إذا اعتبرنا ذلك

(١) اتفقت المذاهب على أن الشهيد لا يغسل بل يدفن بملابسه ودمائه واختلفوا فى الصلاة عليه فيرى الشافعية أنه لا يصلى عليه لأن الصلاة شفاعة وهو ليس فى حاجة إليها لأن السيف محاء للذنوب. ويرى الأحناف أنه أحق بالصلاة لأنها لا ظهار كرامة الميت، والشهيد أولى بها كالنبى. وقد اختلف الأحاديث فى شهداء أحد فبعضها أثبت أن النبى صلى عليهم والبعض نفى الصلاة.

(٢) كون أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ليس حبساً لها ولا إضراراً بها فأجواف الطيور شفافه، أو هذا كناية عن سرعة قطع المسافات البعيدة كالطير.

وعرفنا أن العقل لا يمنع مثل هذه الحياة لعدم استحالتها - سهل علينا التصديق بها كما وردت دون حاجة إلى صرف النصوص عن ظاهرها.

وإنما سمى شهيداً لأن الملائكة تشهد موته، أو لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة، فهو شهيد بمعنى مشهود له له بالجنة، أو لأن روحه تشهد ما أعد الله لها من خير فهو شهيد بمعنى شاهد.

فإن قيل لقد دلت الأحاديث على أن جميع أرواح المسلمين تدخل الجنة فما ميزة الشهداء؟ أجيب بأن الحياة فى الجنة متفاوته فروح غير الشهيد لا تتمتع فى الجنة كما تتمتع روح الشهيد.

وقد رغب عليه السلام فى الاستشهاد فى سبيل الله حيث يقول: ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شئ الى الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة. وفى رواية لما يرى من فضل الشهادة. رواه الشيخان. بل أنه عليه السلام تمنى لو قتل مرات فى سبيل الله حيث يقول فيما أخرجه عن الشيخان: والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم اغزو فأقتل ثم أغزوا فأقتل.

وهل هناك أعظم من أن يشترى الله نفس المؤمن بالجنة لأنه يقاتل فى سبيل الله فيقتل ويقتل. وقد جعلت النية الصادقة والرغبة الملحة فى الشهادة فى سبيل الله كالشهادة الحقيقية فى المنزلة، فقد أخرج مسلم أن الرسول الله ﷺ قال: من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشة. فاللهم ارزقنا الشهادة فى سبيلك.

يقول صاحب الجوهرة.

وصف شهيد الحرب بالحياة ورزقه من مشتهى الجنات

الرزق

من الأفعال التى اختص الله بها ولم يقع خلاف فى نسبتها إليه أن يسوق الرزق إلى من أنعم عليه بالحياة، وقد تكفل بذلك تكرما حيث يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى

اللّه رِزْقُهَا ﴾سورة هود: ٦ ولم ينسب الرزق فى القرآن أو السنة إلى غيره سبحانه، وقد امتن به على عباده ليكون دافعاً لهم إلى القيام بواجب شكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم وَاشْكُرُوا للّهِ إِن كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُون ﴾سورة البقرة: ١٧٢ وقد تحدى المكذبين أن يلجأوا إلى غيره ليرزقهم ﴿هَل مِن خَالِق غَير الله يَرْزُقُكم مِن السَّمَاءِ وَالأَرض ﴾سورة فاطر: ٣ ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكم إِن أَمْسَكَ رِزْقِه ﴾سورة الملك: ٢١.

والرزق، بالفتح، مصدر رزق يرزق أى أعطى ما ينفع، والرزق، بالكسر اسم لما ينتفع به، وجمعه أرزاق، وقد خص أهل السنة الرزق بما انتفع به بالفعل حلالا كان أم حراما، أما المعتزلة فجعلوا الرزق ما وقع عليه الملك فلا يكون الحرام رزقا لأنه لايصلح تملكه، مستدلين بقوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُون ﴾سورة البقرة: ٣ فلا يصح أن يكون إنفاقهم مما انتفعوا به، لأن انفاق ما انتفع به بالفعل مستحيل، فلم يبق إلا تفسير الرزق بالملك، اى مما أعطيناهم وتملكوه بطريق شرعى ينفقون.

ويلزم هذا الرأى أن الحيوانات والأطفال ليست مرزوقة لأنها ليست من أهل الملك، وهذا يخالف صريح قول الله ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾سورة هود: ٦ وقوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم خَشْيَةَ إِملَاق نَحْنُ نَرْزُقُهُم وَإِيَّاكُم ﴾سورة الإسراء: ٣١ كما يلزمهم أن الإنسان قد يأكل رزق غيره ويأكل غيره رزقه، كما إذا غضبه أو سرقه، وقد يموت الشخص دون أن يستوفى رزقه، مع أن الرسول عليه السلام يقول: إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها...الخ وليس هناك تلازم بين الملك والرزق لا فى الثبوت ولا فى النفى، فليس كل مالك مرزوقا، والله سبحانه مالك الملك وليس ملكه رزقاً، وإلا لكان مرزوقاً وهو باطل، والدواب لا تمتلك فيلزم أنها ليست مرزوقة مع أن الله يقول ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾سورة هود: ٦ والرسول يقول: توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير...الخ.

فالمذهب الحق إذن هو رأى أهل السنة الذى تؤيده النصوص، وأما قول الله سبحانه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُون ﴾سورة البقرة: ٣ فالمقصود المعنى اللغوى، أى ومما أعطيناهم أو مما هيئ لأن يكون رزقا.

وعلى ذلك فالرزق يشمل كل ما انتفع به سواء أكان حلالا أم حراماً يشير إلى ذلك تخصيص الله سبحانه أمر المؤمنين بأن يأكلوا الطيب من الرزق أى الحلال، وأن لا يتبعوا خطوات الشيطان ﴿وكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا ﴾سورة المائدة: ٨٨، ﴿وَمِنَ الأَنْعَام حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَان إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِين ﴾سورة الأنعام: ١٤٢.

أما ما لا ينتفع به صاحبه فليس رزقا له وإن ملكه، وإنما هو رزق من ينتفع به بأى طريق، يشير إلى هذا قول الرسول عليه السلام: أيكم مال وارثه، أحب إليه من ماله؟ قالوا ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: فإن مالك ما قدمت ومال ما وارثك ما أخرت. أى أن مالك ما انتفعت به فى حياتك أو أنفقته فى سبيل الخير.

والرزق على هذا يشمل الأرزاق الظاهرة التى تنتفع بها الأبدان من مأكل ومشرب وملبس، والأرزاق الباطنة التى تنتفع بها القلوب كالعلوم والمعارف.

الخلاصة: الرزق عند أهل السنة ما ينتفع به سواء أكان حلالا أم حراما.

الرزق عند المعتزلة ما يملك، فالحرام ليس رزقا لأنه لا يملك.

يقول صاحب الجوهرة:

والرزق عند ما به انتفع وقيل لا، بل ما ملك، وما اتبع

فيرزق الله الحلال فاعلما ويرزق المكروه والمحرما

أى والرزق عند أهل السنة ما وقع الانتفاع به فعلا، وقال المعتزلة بل الرزق ما وقع عليه الملك، ولم يتبع الجمهور هذا الرأى لفساده، ويتفرع على رأى أهل السنة أن الله يرزق الحلال وهو المباح بنص أو قياس أو إجماع. أو هو ما جهل أصله. لأن الأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد نص بالتحريم. ويرزق المكروه وهو ما نهى عنه نهياً غير مؤكد كالنهى عن أكل الجلالة وشرب لبنها حتى تعلف أربعين ليلة. ويرزق المحرم وهو ما نهى عنه نهيا مؤكداً كالخمر والمغصوب والمسروق.

ولا ينبغى لنا اليوم أن نسأل عن أصل الشىء، فالأصول قد فسدت واستحكم فسادها، فلو سألنا عن الأصل ربما تبين لنا التحريم وفى ذلك تضييق فالأولى عدم السؤال والأخذ بظاهر الشرع فى الحل توسيعا على الناس. يقول الأمام القزوينى: ومن قال إن الحلال ليس بموجود فقد طعن فى الشريعة وهو أحمق حصل له ذلك من جهله فإن الله لم يكلف الناس عين الحلال فى علمه سبحانه. بل كلفهم أن يسيبوا الحلال فى اعتقادهم وظنهم.

سؤال القبر

عندما تنفصل الروح عن الجسد ويصبح جثة هامدة، تنقطع الصلة بينها وبين الحياة الدنيا دار العمل والامتحان، ويصبح فى دار البقاء والخلود والحساب والجزاء، وهناك فترة تمر على كل فرد منذ مفارقته هذه الدنيا إلى أن تقوم الساعة هى فترة البرزخ أو القبر، وهى تمهيد لما سيلقاه عندما تقوم الساعة، ولذلك يبدأ سؤاله عندما يقبر وقبره هو المكان الذى يستقر فيه جسده ولو كان جوف الوحوش والطير أو حيتان البحر، وكذلك لو أحرق وذرى فى الرياح، يبدأ سؤاله بأن يأتيه ملكان يسمى أحدهما منكراً والآخر نكيراً[1] ويعيد الله سبحانه اتصال الروح بالجسم اتصالا خاصاً غير اتصال الحياة، فلا نحسه ولا ندركه ولو كان الجسد فى صندوق من زجاج، فالمسؤل الشخص نفسه المكون من الروح والجسد بصورة يعلمها الله، ولا معنى لقول بعضهم يسأل الجسد بدون الروح أو العكس.

أخرج البخارى عن البراء بن عازب عن النبى ﷺ قال: إذا قعد المؤمن في قبره أتاه آت ثم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله فذلك قوله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الآخرة﴾سورة ابراهيم: ٢٧ فالمقصود بتثبيت المؤمنين فى الحياة الدنيا الثبات على الإيمان، وفى الآخرة عند سؤال الملكين، وقيل المقصود بالحياة الدنيا سؤال القبر لأنه متصل بالحياة الدنيا، وفى الآخرة أى عند الحساب.

والسؤال يعم المسلم والكافر والطائع والعاصى، فيترفق الملكان بالمسلم الطائع ويقسوان على الكافر والعاصى، ويكون سؤال كل فرد بلغته التى يعرفها، والملكان اللذان يقومان بالسؤال جنس خاص من الملائكة يوجه كل اثنين منهما إلى الفرد الذى يموت، وقيل هما فردان فقط أعطاهما الله القدرة على أن يسألا جميع الأموات، ولو مات عدد كبير فى وقت واحد فى مشارق الأرض ومغاربها، ورجح السيوطى القول الأول.

وإنما يسأل الميت فور انتقاله من الدنيا ليظهر ما كتمه، فيباهى الله ملائكة بالمؤمنين ويفضح الكافرين والعاصين.

والسؤال يكون عن أمور عامة فلا يتناول التفاصيل، وإنما يترك ذلك للحساب، فيسأل: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول فى الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول المؤمن:الله

(١) سموا بذلك لانهما يأتيان الميت بصورة منكرة فقد ورد أنهما أسودان أزرقان أعينهما كقدرة النحاس أو كالبرق وأصواتهما كالرعد بيد كل واحد منهما مطراق من حديد لوض به الجبال لذات.

ربى، والإسلام دينى، والرجل المبعوث فينا محمد ﷺ، فيقولان انظر إلى مقعدك فى النار قد ابدلك الله به مقعداً فى الجنة، ثم يقولان له نومة هانئة. أما المنافق والكافر فيقول: لا أدرى، فيقولان لا دريت ولا تليت ثم يضرب بالمقامع، وهذا السؤال خاص بالأمة الإسلامية، وقيل عام لجميع الأمم، وتسأل كل أمة عن رسولها.

وسؤال القبر هو نفس الفتنة التى ورد الأثر بإثباتها، وقيل المقصود بالفتنة التلجلج فى الجواب. وقيل بل المقصود ما ورد من أن يكون فى القبر، فإذا سئل الميت عن ربه أشار إلى نفسه. ولم يثبت أن النبى عليه السلام يحضر سوال القبر ولا رؤية الميت له. ولذلك يسن الدعاء للميت والاستغفار له بعد دفنه ليثبته الله بالقول الثابت. فقد ورد أن الرسول عليه السلام قال: استغفروا لإخيكم فإنه الآن يسأل.

وهناك أقوام يعفون من سؤال القبر تكريما لهم وتعظيما لشأنهم. فقد وردت آثار بعدم سؤال الأنبياء والصديقين والشهداء والمرابطين فى سبيل الله كما ورد أن من دوام على قراءة سورة تبارك الذى بيده الملك وكذلك سورة السجدة يعفى من سؤال القبر، وكذلك كل من أصيب بمرض فصبر ومات فيه، والصحيح أن غير الأنبياء يسألون سؤالا خفيفاً.

والمسئول هو المكلف من الإنس والجن، أما الأطفال فلا يسألون لعدم تكليفهم وأما الملائكة فلا ندرى عنهم شيئاً فى هذه الناحية، والظاهر أنهم لا يسألون.

عذاب القبر ونعيمه

عندما ينتهى سؤال القبر تبدأ مرحلة جديدة تستمر إلى أن ينفخ فى الصور إيذاناً بانتهاء هذه الدنيا، وفى تلك الفترة يلقى الميت معاملة تتناسب مع عمله فى الدنيا، وتكون مقدمة لما سيلقاه فى القيامة. فإن كان كافرا أو منافقاً ابتدأ عذابه بعد سؤاله بصورة خاصة غير ما سيلقاه بعد الحساب فى الآخرة، ويدل على ذلك قوله سبحانه فى حق آل فرعون ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَونَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾سورة غافر: ٤٦ فهذا العرض على النار هو عذاب القبر. ويقول فى حق من كذب نوحا ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً﴾سورة النوح: ٢٥ فدخولهم النار عقب الإغراق إنما هو عذاب القبر، ويسلط الله على الكافر فى قبره تسعة وتسعين تنينا [١] تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة، أما عصاة المؤمنين فيصيبهم بعض العذاب بما يتناسب مع آثارمهم وقد يخفف الله عنهم بدعاء أو صدقة أو غير ذلك.

(١) وحكمة هذا العدد أنه كفر باسماء الله الحسنى

وصالحوا المؤمنين ينعمون فى قبورهم، فتتسع بقدر أعمالهم وتفتح لهم فيها طاقه من الجنة وتمتلىء بالريحان، ويصير القبر روضه من رياض الجنة، ويجعل فى القبر قنديل ينور له كالقمر ليلة البدر. وقد ورد أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: تعلم الخير وعلمه الناس فإنى منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم. وعن عمر مرفوعا: من نور فى مساجد الله نور الله له فى قبره.

وعذاب القبر ونعيمه للبدن والروح معاً باتفاق أهل الحق. وخالف محمد بن جرير الطبرى وعبدالله بن كرار وطائفة فقالوا: المعذب البدن فقط ويخلق الله فيه ادراكا بحيث يسمع ويعلم ويتلذذ ويتألم.

وسؤال القبر وما يترتب عليه من نعيم أو عذاب أمور ممكنة عقلا وردت بها السنة الصحيحة، فوجب الإيمان بها دون حاجة إلى صرف النصوص عن ظاهرها، وهذه عقيدة أهل السنة وجمهور المعتزلة.

وقد أنكر الملحدون هذه الأمور الثلاثة لأن عقولهم لم تستطع إدراكها، وقالوا إن اللذة الناشئة عن النعيم والألم الناشىء عن العذاب والسؤال والجواب كل ذلك لا يتصور بدون حياة وإدراك، وقد فسد الجسم وتفرقت أجزاؤه وانتفت منه الحياة، فكيف يتصور أنه يعقل ويحس، ونحن نشاهد المقتول والمصلوب والميت يبقى مدة طويلة أمامنا دون أن نشاهد أثراً لهذه الحياة، وهذه أجسام قدماء المصريين محفوظة فى المتاحف منذ عشرات السنين يختلف عليها الحراس ولم نسمع أن أحدهم تحرك أو ظهرت عليه آثار هذه الحياة، ثم أن الميت قد يوضع فى مكان ضيق صلب لا يستطيع معه قعوداً ولا حركة فكيف يتصور جلوسه، وهذا الذى أكلته السباع أو أحرق وذرى فى الرياح كيف يتصور سؤاله وعذابه ونعيمه.

وهذه شبهة تافهة دفع إليها قياس الغائب على الشاهد، فهؤلاء الملحدون الماديون لا يؤمنون إلا بما يحسون، مع أن حياة البرزخ حياة أخرى غير حياتنا هذه، لها نواميسها ونظمها، وقد نجد لذلك مثيلا فى حياتنا الدنيا يقرب فهم الموضوع، فقد يكون بجوارك شخص نائم يشعر بألم أو نعيم، وأنت بجواره لا تحس بإحساسه ولا تشعر بشعوره.

وقد كان الوحى ينزل على النبى عليه السلام وهو بين أصحاب فيسمعه كصلصلة الجرس. والصحابة بجواره لا يسمعون شيئاً حتى يخبرهم عليه السلام.

وقد أجمع أهل الأديان السماوية على الاعتراف بسؤال القبر ونعيمه وعذابه، أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لما أعاذك الله من عذاب القبر، قالت عائشة فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال: نعم عذاب القبر حق، قالت: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.

يقول صاحب الجوهرة:

سؤالنا ثم عذاب القبر نعيمه واجب كبعث الحشر

البعث

هو إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم استعداداً للحشر والحساب، وهذه هى المرحلة الثانية من مراحل هذا الوجود.

وقد ثبت البعث بالكتاب والسنة والإجماع، يقول سبحانه ﴿يَومَ يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوه﴾سورة المجادلة: ٦ ويقول رداً على الكفار فى إنكارهم البعث ﴿زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَن لَن يُبْعَثُوا قُل بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ بِمَا عَمِلْتُم وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرُ﴾سورة التغابن: ٧ ويقول مؤكداً هذه الحقيقة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَن فِى الْقُبُور﴾سورة الحج: ٧ وإحياء الموتى يقتضى إعادة أجسامهم وأرواحهم.

هل الإعادة عن عدم أم عن تفريق:

وقد وقع الخلاف بين المتكلمين فى كيفية هذه الإعادة، وهل هى عن عدم محض، أو عن تفريق للأجزاء؟

أى أن الناس عندما يموتون هل تعدم أجسامهم فلا يبقى لها وجود أصلا؟ يشير إلى ذلك الرأى قوله سبحانه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَان﴾سورة الرحمن: ٢٦ والفناء هو العدم، وقوله سبحانه ﴿كُلُّ شَئٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ﴾سورة القصص: ٨٨ والهلاك عدم وقوله سبحانه ﴿كَمَا بَدَأَكُم تَعُودُون﴾سورة الأعراف: ٢٩ وقوله ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾سورة الأنبياء: ١٠٤ وقد بدأ خلق العالم من عدم محض فلم يسبق بمادة ليشكل منها.

أما أنهم عندما يموتون تفرق أجزاؤهم وتتحول من هيئة إلى هيئة، ومن مادة إلى مادة مع الاحتفاظ بمقومات المادة الأصلية، كما يقول الطبيعيون الآن: المادة لا تفنى، ويثبتون ذلك بالتجارب، فالشمعة التى تحترق لا تنعدم أصلا، وإنما تتفرق أجزاؤها ويمكن بالطرق العلمية جمع هذه الأجزاء، ويشير إلى هذا الرأى قوله سبحانه مبيناً لخليله إبراهيم عليه السلام كيفية إحياء الموتى ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ- أى قطعهن - ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾سورة البقرة: ٢٦٠ فهذا الإحياء وهذه الإعادة عن تفريق لا عن تفريق لا عن عدم محض، ويردون على أدلة أصحاب الرأى الأول بأن معنى «فان وهالك» أى قابل للفناء والهلاك، وأنه سبحانه بعيد الناس على هيئاتهم التى بدأ خلقهم عليها، دون تعرض لكون الإعادة عن عدم أو تفريق بل هى لإثبات مطلق الإعادة.

وعلى كلا الرأيين فلا بد من الإعادة، وهى تشمل الأجسام والأعراض، والمقصود بالأجسام الأجزاء الأصلية التى يقوم بها وتبقى معه طول حياته، بخلاف الأجزاء التى تعرض وتزول كالشعر والأظافر والسمن.

والأعراض التى تعاد هى الأعراض اللازمة كالطول واللون، أما الأعراض غير اللازمة كالمشى والقيام والأصوات، وكذلك الأزمان التى وقعت فيها فالصحيح أنها تعاد كذلك متتابعة كما حدث، لا مجتمعة فى وقت واحد حتى يلزم اجتماع المتناقضات.

وقد توصل العلم فى أيامنا هذه إلى الاحتفاظ بالأعراض دون الأجسام التى قامت بها، فسجل الأصوات والصور على أجسام أخرى، ثم أعاد عرضها فسمعنا أصوات قوم ورأينا صورهم بعد أن ماتوا، وهذا جهاز التليفزيون ينقل إلينا الأعراض دون الأجسام التى قامت بها فنرى الصور ونسمع الصوت كأن صاحبه أمامنا.

وقد رأى غير الأشاعرة أن الأعراض لا تعاد بذاتها إنما تقوم بالأجسام أعراض أخرى تشبهها وقد علمت ضعف هذا الرأى.

وفى قولنا إن المعاد من الأجسام هو الأجزاء الأصلية رد على الشبهة التى يلقيها الماديون، وهى قد يأكل إنسان إنساناً آخر فتتكون أجزاء الآكل من المأكول فيختلط كلاهما، وقد ظهرت المغالطة فى هذه الشبهة، إذ أن أجزاء الآكل الأصلية تتكون قبل الأكل، وإنما هذه الأجزاء التى نشأت عن الأكل عارضة بالنسبة للآكل وهى الأصلية بالنسبة للمأكول، والله سبحانه، القادر على الخلق والإيجاد، قادر على تميز أجزاء كل فرد وإعادتها إلى أصلها، يقول سبحانه ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ

بَنَانَهُ﴾سورة القيامة: ٣،٤ فتسوية البنان وإعادتها إلى أصلها بما فيها من خطوط وتعاريج لا تشابه بينها وبين وغيرها فى إنسان آخر آية القدرة الكاملة والعلم الشامل فسبحان رب العالمين.

وقد وردت نصوص تفيد أن بعض الأشخاص كالأنبياء والشهداء الذين ماتوا على حق، والمؤمنين احتساباً، والعلماء العاملين - لا تأكل الأرض أجسامهم بل تبقى محفوظة كما هى، فإعادتها لا تكون عن تفريق أو عدم.

والعقيدة التى يلزم المؤمن الاعتراف بها هى الإعادة مطلقاً. أما كون الإعادة عن عدم محض أو عن تفريق فليست مما يلزم المؤمن اعتقاده، ولذلك توقف بعض العلماء كإمام الحرمين عن القطع بأحد الأمرين.

وأول من تنشق الأرض عنه للبعث نبينا عليه السلام، ثم نوح ثم بقية الأنبياء، ويلى هؤلاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه كما وردت بذلك بعض الآثار.

وقد أشار صاحب الجوهرة إلى الرأيين فى إعادة الأجسام مرجحا القول بأن الإعادة عن عدم حيث يقول:

وقل يعاد الجسم بالتحقيق ... عن عدم ، وقيل عن تفريق

محضين لكن ذا الخلاف خصا ... بالأنبياء ومن عليهم نصا

وفى إعادة العرض قولان ... ورجحت إعادة الأعيان

وفى الزمان قولان، والحساب.

الحشر

هو سوق الناس جميعاً إلى الموقف الذى يحاسبون فيه، وهو الأرض المبدلة كما يقول سبحانه ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيرَ الأَرْضِ وَالسَّموَاتَ وَبَرَزُوا اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾سورة ابراهيم: ٤٨.

وقد ورد الحشر بمعان أربعة، أولها إخراج اليهود من جزيرة العرب، وهو قوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِم لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾سورة الحشر: ٢ وثانيها

النار التى تخرج من عدن باليمن قرب قيام الساعة فتسوق الكفار إلى المحشر، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل[1] معهم حيث قالوا، تدور الدنيا وتطير ولها دوى كدوى الرعد يمتحن الله بها الناس، فمن علم أنها مرسلة من عند الله وانساق معها سلم منها، ومن لم يكن كذلك أحرقته وثالثها حشر الناس إلى الموقف وهو موضوعنا، ورابعها صرف الناس من الموقف إلى الجنة أو النار.

والذين يحشرون هم كل من يحتاجون إلى الفصل بينهم، لا خصوص من يلقون جزاءهم، وعلى ذلك يحشر الإنس والجن والملائكة والحيوانات من بهائم ووحوش، هذا هو الذى ذهب إليه المحققون، ويؤيده قوله عليه السلام: حتى يقضى للشاة الجماء من الشاه القرناء. وذهبت طائفة إلى أنه لا يحشر إلا من يجازى فيكون الحشر مقصوراً على الثقلين.

ومراتب الناس فى الحشر متفاوتة، فمنهم الراكب ومنهم الماشى على رجليه ومنهم الماشى على بطنه.

اليوم الآخر

عندما يريد الله سبحانه نهاية ذلك الكون، وتأتى الساعة المحددة فى علمه سبحانه والتى لم يطلع عليها أحداً من خلقه كما يقول ﴿وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّىْ لَايُجَلِّيْهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُو﴾سورة الأعراف: ١٨٧ ينفخ فى الصور النفخة الأولى فيصعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وبين النفختين مدة لا يعلمها غيره سبحانه، ثم يقول ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوم﴾سورة غافر: ١٦ فيجيبه لسان الحال حيث لا حياة إلا الحى الدائم: ﴿لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار﴾سورة غافر: ١٦.

هنا تبدأ مرحلة أخرى من مراحل هذا الوجود، وهى مرحلة القيامة، أو اليوم الآخر، وقد تعددت أسماء هذه المرحلة لكثرة ما فيها من معان وأحداث، حتى بلغت ثلاثمائة اسم، أشهرها اليوم الآخر والقيامة والقارعة والحاقة، وسمى باليوم الآخر لأنه يتصل بآخر أيام الدنيا، وسمى بيوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم وقيامهم بين يدى خالقهم، وقيام الحجة لهم أو عليهم.

(١)تقيل معهم أى تلازمهم وقت القيلولة وهى نصف النهار والمقصود الملازمة كل الوقت.

ويبدأ ذلك اليوم من النفخة الثانية حيث يقوم الناس كالجراد المنتشر ويستمر إلى مالانهاية، أو نهايته دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

ويستمر ذلك اليوم فترة طويلة يعلم الله حقيقة مقدارها، وقد أخبر سبحانه عن طولها مرة بأنه كألف سنة مما تعدون، ومرة أخرى بأنه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ولا تنافى بين الخبرين لأن المقصود طول المدة، والعدد لا مفهوم له، أو أن اليوم يختلف باختلاف أحوال الناس، فيرى الكفار أنه كخمسين ألف، ويرى الفساق أنه كألف سنة، ويرى غيرهم أنه فترة يسيرة حتى ليرى المؤمن أنه أخف من صلاة مكتوبة كما فى حديث أبى سعيد فى مسند أحمد.

وفى هذا اليوم يشتد الهول على الناس، وتقترب الشمس من الرؤوس ويغرق العصاة والكفار فى عرقهم المنتن، فمنهم من يكون العرق إلى كعبيه أو إلى ركبتيه أو إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً. كما قال عليه السلام فى الحديث الذي أخرجه مسلم. وقد أخبرنا عليه السلام أن الناس يحترون فى ذات اليوم حفاة عراة غرلاً محجلين، فعجبت عائشة رضى الله عنها وسألت: أينظر بعضهم إلى عورة بعض؟ فأجابها عليه السلام بقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُم يَومَئذٍ شَأنٌ يُغْنِيه﴾سورة عبس: ٣٧.

حقاً إن كل فرد يحاول أن يدافع عن نفسه وأن ينجو من الهول فينسى الأهل والصحب والمال والولد: ﴿يَومَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِن أخِيه، وَأُمِّهُ وَأَبِيْه، وَصَاحِبَتِه وَبَنِيْه، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم يَوْمَئذٍ شَأنٌ يُغْنِيه﴾سورة عبس: ٣٤-٣٧ ولا يزال الناس فى شدة وضيق حتى ينفع لهم عليه السلام فى نهاء الموقف فيبدأ الحساب. ولا يشعر الأنبياء والصالحون بهذه الأهوال، بل هناك من يكون منعها فى ظل العرش، والناس يقاسون ما يقاسون. ففى الحديث الصحيح: سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.....الخ لا يحزنهم الفزع الأكبر، وإنما يخافون خوف إجلال وإعظام.

واليوم الآخر حق لامراء فيه، آمن به جميع العقلاء من الفلاسفة والمفكرين كما اعترفت به جميع الأديان، ولو لم ترد به الشرائع لأدركه العقل وحده، فإننا نجد بعض المحسنين يموتون دون أن يلقوا جزاء ظلمهم. وعدالة الحياة تقتضى أن يكون هناك يوم يلقى فيه كل فرد جزاء عمله، وهو ماتضافرت على إثباته جميع الأديان والعقول السليمة، فلم ينكروه إلا الماديون الذين لم يستطيعوا إدراك شئ مما وراء الطبيعة، وفى كل يوم تقوم أدلة جديدة على بطلان رأيهم وصحة رأى المتدينين عامة والمسلمين خاصة.

وقد جعل الإسلام الإيمان باليوم الآخر جزءاً من الإيمان العام. فلا يقبل الإيمان بدونه، كما فى حديث سؤال جبريل السابق: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

والقرآن الكريم مشحون بذكر اليوم الآخر وتصوير ما فيه من أهوال وتحذير الناس منه حتى يعدواله العدة، يقول سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم وَاخْشَوْا يَوْماً لاَيَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِه وَلاَمَولُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنيَا وَلاَيَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُور﴾سورة لقمان: ٣٣ ويقول فى وصف الوجوه فى هذا اليوم نتيجة العمل فى الدنيا ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوه﴾سورة آل عمران: ١٠٦ ويقول ﴿يَوَمَ يَأتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُم شَقِىٌّ وَسَعِيْدٌ﴾سورة هود: ١٠٥.

علامات اليوم الآخر: ولليوم الآخر علامات بعيدة وأخرى قريبة، أو علامات صغرى وأخرى كبرى، أما البعيدة أو الصغرى فأولها مبعث خاتم المرسلين عليه السلام حيث يقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، وضم السبابة والوسطى، أخرجه مسلم عن أنس.

ومنها ظهور المغاصى وانتشارها، وتطاول الحفاة العراة فى البنيان كما جاء فى حديث جبريل حينما سأل عن الساعة. فقال عليه السلام: ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكنى أخبرك عن أشراطها.... الخ.

وهناك علامات كبرى قريبة منها ما أخرجه مسلم عن حذيفة قال: اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة. قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم يقول صاحب الجوهرة:

اليوم الآخر ثم هول الموقف   حق فخفف يارحيم واسعف

الشفاعة

عندما يشتد هول اليوم الآخر يتجه الناس إلى الأنبياء يسألونهم الشفاعة عند الله لإنهاء ذلك الموقف، فيعتذر كل نبى حتى يصل الجمع إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فيقول: أنا لها أنا لها، ويسال الله سبحانه، فيقبل شفاعتة ويبدأ الحساب.

وهذه هى الشفاعة العظمى التى اختص بها عليه السلام، أخرج الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لكل نبى دعوة قد دعاها لأمته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى. وذكر عليه السلام أنه أعطى خمساً لم مطهن أحد قبله، ومنهن الشفاعة.

وقد ورد ذكر الشفاعة في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، يقول سبحانه ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾سورة طه: ١٠٥، ويقول، ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾سورة يونس: ٣ ويقول ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾سورة البقرة: ٢٥٥، ويقول على لسان الكفار ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾سورة الأعراف: ٥٣ ولكنهم لم يقدموا إيماناً ﴿فَمَا تَنْفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾سورة المدثر: ٤٨.

فما هي الشفاعة الثابتة بالكتاب والسنة؟ وما مدى نفعها وأنواعها؟

الشفاعة لغة الوسيلة والطلب، واصطلاحا هي سؤال الخير من الغير للغير، وقد تنسب الشفاعة إلى الله سبحانه، كما في قوله:﴿قُل لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾سورة الزمر: ٤٤ فيكون معناه قبول الشفاعة أو العفو، وله سبحانه أن يعفو عمن اعترف له بالوحدانية ولمحمد عليه السلام بالرسالة، ولو لم يعمل خيراً قط، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾سورة النساء: ٤٨.

وقد تنسب الشفاعة إلى نبينا عليه السلام وتختص به وهي أول الشفاعة العظمى وقد تكون له ولغيره من الأنبياء والصالحين، كما في قوله سبحانه ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾سورة طه: ١٠٥.

والشافع هو طالب الخير من الغير للغير، والمشفَّع «بفتح الفاء» مقبول الشفاعة، وأول من يشفع يوم القيامة نبينا عليه السلام، فقد روى الشيخان أنه قال: أنا أول شافع وأول مشفع.

فقد اختص عليه السلام بأمور ثلاثة: فهو أول شافع وهو مشفع وشفاعتة أول شفاعة مقبولة. وبذلك يفتح باب الشفاعة لغيره من الأنبياء والصالحين، ولعل هذا هو المقام المحمود الذي وعد سبحانه به نبيه في قوله ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُوداً﴾سورة الإسراء: ٧٩ أو هو أول المقام المحمود، وآخره استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، والشفاعة أنواع:

١. الشفاعة العظمى، وهم لم ينكرها أحد من المسلمين.
٢. شفاعته عليه السلام في إدخال فريق الجنة بغير حساب.
٣. شفاعته في رفع درجات بعض المؤمنين، وقد يشفع غيره عليه السلام في رفع الدرجات كذلك.

وهذه الشفاعات الثلاث موضع اتفاق بين علماء الكلام.

٤. الشفاعة لمرتكب الكبيرة الذى مات دون توبة بأن لا يدخل النار أصلا، أو أن يخرج من النار بعد أن دخلها.

وقد أثبت هذا النوع من الشفاعة أهل السنة، وأنكره المعتزلة الذين يرون وجوب تعذيب أهل الكبائر، كما أنكره الخوارج الذين يحكمون بالكفر على مرتكب الكبيرة ويوجبون تخليده فى النار، والحق مع أهل السنة فقول، الله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾سورة النساء: ٤٨ صريح فى إثبات هذا الرأى، فلم يعلق سبحانه المغفرة على توبة، وإنما علقها على المشيئة، أما إذا تاب فهناك وعد آخر بقبول التوبة، ووعد الكريم لا يتخلف، يقول سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾سورة الشورى: ٢٥.

أما قوله سبحانه ﴿فَمَا تَنفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾سورة المدثر: ٤٨ فالمقصود بهم الكفار الذين اعترفوا بقولهم ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾سورة المدثر: ٤٦ وكذلك قوله سبحانه على لسان الكفار يوم القيامة ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيْكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ، فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾سورة الشعراء: ٩٧-١٠١.

أما قوله سبحانه ﴿وَاتَّقُوا يَومًا لَّا تَجْرِى نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَة﴾ سورة البقرة: ٤٨، فقد استثنى من ذلك العموم الشفاعة فإذنه سبحانه فى قوله ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا﴾سورة طه: ١٠٥ وقد أمر الله رسوله بأن يستغفر للمؤمنين ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤمِنِينَ﴾سورة محمد: ١٩ والاستغفار شفاعة، وقد روى أنه عليه السلام قال: شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى. أما ما قيل من أنه عليه السلام قال: لا تنال شفاعتى أهل الكبائر من أمتى. فهو موضوع باتفاق، وعلى فرض صحته يحمل على من ارتد منهم.

وليست الشفاعة قاصرة على الأنبياء، بل قد يشفع الأولياء والصالحون والعلماء العاملون والشهداء والملائكة، كل على قدر درجته ومنزلته عند الله سبحانه، ويتفضل سبحانه بالإذن بالشفاعة لمن شاء ويقبل شفاعتهم. وشفاعة الملائكة على الترتيب فأولهم جبريل وآخرهم التسعة عشر التى على النار.

يقول صاحب الجوهرة مقررا رأى أهل السنة ومشيراً إلى الرد على من خالفهم:

وواجب شفاعة المشفع　　محمد مقدماً لا تمنع

وغيره من مرتضى الأخيار　　يشفع كما قد جاء الأخبار

إذ جاز غفران غير الكفر　　فلا تكفر مؤمناً بالوزر

الحساب

بعد ما يشفع الرسول عليه السلام لإنهاء الموقف الذى اشتد أمره على الناس يبدأ الحساب ليعرف كل فرد نتيجه عمله فى الدنيا ويجنى ثمره فعله.

والحساب لغة: العدد، واصلاحا: توقيف الله الناس على أعمالهم خيراً أكانت أو شراً، قولا كانت أو فعلا.

ويكون الحساب لجميع المكالفين من إنس وجان مؤمنين وكافرين إلا من وردت السنة بدخولهم الجنة من غير حساب تكريماً لهم، ففى الحديث يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً ليس عليهم حساب، فقيل له هلا استزدت ربك، فقال: استزدته فزادنى مع كل واحد من السبعين الفاً سبعين ألفاً، فقيل هلا استزدت ربك؟ فقال: استزدته فزادنى ثلاث حثيات بيده الكريمة. وإذا كان من المؤمنين من يدخل الجنة بغير حساب فهناك من الكافرين من يدخل النار بغير حساب لشدة الغضب عليهم ولعظم جرمهم.

فالناس ثلاثة طوائف، طائفة تدخل الجنة بغير جساب، وطائفة تدخل النار بغير حساب، وطائفة توقف توقف للحساب، وبهذا يجمع بين النصوص الواردة فى هذا الشأن.

كيفية الحساب: لم يأت نص صريح يوضح كيفية الحساب، ولذلك اختلف فيها، فقال الفخر: يخلق الله علماً ضروريا فى قلوب المحاسبين بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب.

ونقل عن ابن عباس أن الله سبحانه يوقف الناس بين يديه ويؤتيهم كتب أعمالهم فيها حسناتهم وسيئاتهم.

والظاهر أن المراد هو أن يكلمهم سبحانه فى شأن أعمالهم، فهذا ما يؤخذ من ظاهر القرآن والسنة، والكافر ينكر كفره فيأمر الله جوارحه أن تشهد ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم أَلْسِنَتُهُم وَأَيْدِيهِم وَأَرجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾سورة النور: ٢٤. ولا يشغله سبحانه محاسبة أحد عن أحد بل يحاسب الجميع معاً حتى يظن كل فرد أنه المحاسب وحده.

تفاوت الحساب: والحساب منه اليسير والعسير، ومنه السر والجهر وقد يكون بالعدل أو الفضل.

حكمة الحساب: إظهار تفاوت المراتب فى الكمال، وفضائح أهل النقص وتحقيق العدل أو الفضل، وفى ذلك ترغيب الناس فى الدنيا فى عمل الحسنات واجتناب السيئات.

دليل الحسنات وحكمه: وقد ثبت الحساب بالكتاب والسنة فمنكره كافر. يقول سبحانه ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا. وينقلب إلى إهله مسرورا. وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا. ويصلى سعيرا ﴾سورة الإنشقاق: ٧-١٢ ويقول سبحانه ﴿ وَإِن تُبدُوا مَا فِى أَنفُسِكُم أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّه ﴾سورة البقرة: ٢٨٤ ويقول ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَاب ﴾سورة إبراهيم: ٥١. ويقول عليه السلام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. ويقول: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه. روه الترمذى والنصوص فى هذا الباب أكثر من أن تحصى.

يقول صاحب الجوهرة: والحساب حق وما فى حق ارتياب

الحسنات والسيئات

بم تغفر الذنوب

تنقسم الأعمال التى يحاسب عليها المكاف إلى قسمين: حسنات وسيئات. فالحسنات جمع حسنه وهى ما يمدح فاعله شرعاً. والسيئات جمع سيئة وهى مايذم فاعله شرعاً.

وقد تفضل سبحانه فوعد المحسن بمضاعفة جزاء حسناته المقبولة، سواء عملها أو عملها غيره ووهبها له كما إذا تصوق شخص عن شخص آخر بصدقة. وأقل مراتب

التضعيف عشر، يقول سبحانه ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾سورة الإنعام: ١٦٠ وقد تضاعف إلى سبعين أو سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله سبحانه ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم﴾سورة البقرة: ٢٦١ وتتفاوت مراتب التضعيف تبعاً للتفاوت فى الأخلاص وحسن النية، أما إذا هم بحسنة فلم يعملها فإنها تكتب حسنة واحدة من غير مضاعفة، وكذلك إذا عزم على معصية ثم تركها تكتب له حسنة.

وقد يكون على شخص ظلامات لآخرين فيؤخذ من حسناته يوم القيامة لتعويض أصحاب الظلامات، فإذا لم تبق له حسنات أخذ من سيئاتهم ووضعت عليه ثم طرح فى النار، وهو الذى سماه عليه السلام المفلس.

أما من فعل سيئة فإنها لا تضاعف له، بل تحسب عليه سيئة واحدة ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُم لَا يُظْلَمُون﴾سورة الإنعام: ١٦٠، وهذا منتهى العدل.

والسيئات منها كبائر وصغائر، والكبائر كما يقول ابن الصلاح: كل ذنب كبر كبراً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة، أو هى الذنوب العظيمة التى وضع لها الشارع حدا فى الدنيا أو توغد صاحبها بالعذاب الأليم، أو وصف بالفسق أولعنة الله ورسوله، وأعظمها الشرك فإنه ظلم عظيم، وقد بين عليه السلام بعض الكبائر حيث يقول: اجتنبوا السبع الموبقات- أى المهلكات- قيل يارسول الله وما هن؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات وهناك من الكبائر غير هذه السبع كثير كالكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور وعقوق الوالدين. أما الصغائر فهى ما ليس فيه حد فى الدنيا ولا توعد بعذاب فى الآخرة.

وتعطى الصغائر حكم الكبائر بالإصرار عليها والتفاخر بها، أما إن فعلها من غير نية العود فهى صغائر، وتغفر الصغائر باجتناب الكبائر كما يقول سبحانه ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنهُ نُكَفِّرُ عَنكُم سَيِّئَاتِكُم﴾سورة النساء: ٣١ ويفعل بعض الصالحات كالوضوء والعمرة وصلة الرحم والصدقة، يقول سبحانه ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾سورة هود: ١١٤ فالسيئات كالأمراض والحسنات دواء لها يمحوها.

وقد اتفق المسلمون على أن التكفير يترتب على الاجتناب. فقد وعد سبحانه بذلك ووعده لا يتخلف، ثم اختلفوا هل هذا الترتب قطعى أم ظنى؟ فذهب جماعة من الفقهاء

والمحدثين والمعتزلة إلا أنه قطعى بدليل قطعى وهو قوله سبحانه ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنهُ نُكَفِّرْ عَنكُم سَيِّئَاتِكُم﴾سورة النساء: ٣١ وذهب أئمة الكلام إلى أنه ظنى لا حتمال تعلقته على المشيئة.

أما الكبائر فمنها ما يتعلق بالله وحده، وهو يغفر بالتوبة، وأشد الذنوب المتعلقة به سبحانه الكفر وهو يغفر بالتوبة، يقول سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يَغْفِر لَهُم مَا قَد سَلَف﴾سورة الأنفال: ٣٨ فغيره أول بالمغفرة فضلا منه سبحانه.

أما الذنوب المتعلقة بالناس فلا بد من رد المظالم إلى أهلها، فمن تاب وعزم على رد المظالم ولم يستطيع ثم مات وهو صادق النية أرضى الله عنه أصحاب هذه المظالم.

يقول الصاحب الجوهرة:

فالسيئات عنده بالمثل　　والحسنات ضوعنت بالفضل

وباجتناب للكبائر تغفر　　صغائر وجا الوضوء يكفر

وتقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر هو رأى جمهور أهل السنة. أما المرجئة فرأو أن الذنوب كلها صغائر، وقالوا: لا تنفع مع الكفر طاعة، كما لا تضر مع الإيمان معصية، وهو قول باطل ومذهب فاسد.

أما الخوارج فقد ذهبوا إلى جميع الذنوب كبائر، وكل كبيرة كفر، وهو رأى فاسد كذلك. وبعضهم يقول: إن جميع الذنوب كبائر لعظمة من عصى بها، ولا يكفر منها إلا الإشراك والسجود لصنم وإهانة المصحف وما شابه ذلك.

التوبة

هى لغة مطلق الرجوع، وكذلك المتاب وهو مصدر ميمى بمعنى التوبة، وشرعا الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على ألا يعود، فلو لم يقلع أو لم يندم أو عزم على العود فليس بتائب.

والتوبة واجبة فوراً على من ارتكب ذنباً سواء أكان صغيرة أم كبيرة، فتأخير التوبة ذنب آخر، ويتفاوت هذا الذنب باعتبار التأخير. وعند المعتزلة يتعدد الذنب بالتراخى فتتراكم الذنوب كلما تأخر فى التوبة.

فإذا كان الذنب يتعلق بحقوق الناس فلا تصح التوبة حتى يرد المظالم إلى أهلها - كما مر - ولا تقبل التوبة إلا فى حالة السعة، أما إذا ضاقت الحياة عند الغرغرة فلا تقبل التوبة، يقول سبحانه ﴿وَلَيْسَت التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْت قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُم كُفَّار﴾سورة النساء: ١٨. وكذالك قبل أن تتحقق علامة الساعة الكبرى بأن تطلع الشمس من مغربها إذ عند ذلك يغلق باب التوبة.

وعدم صحة التوبة عند الغرغرة بالنسبة للكافر والعاصى هو رأى الأشاعرة، وقد نسب إلى الماتردية أن توبة العاصى عند الغرغرة مقبولة وتوبة الكافر غير مقبولة، وروى العكس. والحق رأى الأشاعرة فالآية صريحة ولم تفرق بين الكافر والعاصى فى عدم قبول التوبة عند الغرغرة.

أما الدليل وجوب التوبة فشرعى عند الأشاعرة وهو قوله سبحانه ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤمِنُونَ لَعَلَّكُم تُفلِحُون﴾سورة النور: ٣١. وعند المعتزلة يثبت الوجوب بالعقل، لأن العقل يدرك حسنها فيوجبها.

شروط التوبة:

يتضح من هذا أنه يشترط التوبة وقبولها:

١. الإقلاع عن الذنب
٢. الندم على فعله.
٣. العزم على عدم العودة إليه.
٤. رد المظالم إلى أهلها.
٥. أن تكون التوبة قبل الغرغرة.
٦. أن تكون التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها.

حكم من عاد إلى الذنب بعد التوبة

هل العود إلى الذنب ينقض التوبة؟

يرى المعتزلة: أن العود إلى الذنب ينقض التوبة فيعود ذنبه الذى تاب معته يعود إليه، فشرط صحة التوبة عندهم ألا يعاود الذنب بعد التوبة.

وعند الصوفية: معاودة الذنب بعد التوبة أقبح من سبعين ذنباً بلا توبة. وهما رأيان ضعيفان، لأنهما يصدان الناس عن التوبة إذ لا يعلم أحد ماذا تاتى به الأيام.

أما أهل السنة: فيرون أن العود إلى الذنب لا ينقض التوبة، مادام عازماً عند التوبة على عدم العود وعليه إن وقع فى الذنب مرة أخرى أن يجد توبة أخرى وهكذا، فلا يضر إلا الإصرار على المعاصى، يقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾سورة البقرة: ٢٢٢، وهم الذين يتوبون كلما أذنبوا، ويقول فى وصف المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾سورة آل عمران: ١٣٥ ويقول عليه السلام: التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ويقول: والذى نفس بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم.

قبول التوبة: وقد تفضل سبحانه فوعد بقبول التوبة إذا استجمعت شرائطها حيث يقول ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾سورة النساء: ١٧ ويقول سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾سورة الشورى: ٢٥ فهذا وعد كريم، ووعد الكريم لا يتخلف وإنما ندعو بقبولها خوفاً من أن تكون شروطها غير متحققة من الإخلاص وحسن النية، وهذا رأى الإمام الأشعرى.

أما إمام الحرمين والقاضى فلم يقطعا بالقبول بل هى معلقة بالمشيئة.

وقد أجمعوا على أن توبة الكافر مقبولة بدليل قوله سبحانه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾سورة الأنفال: ٣٨ وهذا يؤيد رأى الأشعرى إذ لا فرق بين الكافر وبين المؤمن العاصى فى قبول التوبة، بل العاصى أولى بالقبول إذا تحققت شروطها. وهذا معنى صاحب الجوهرة:

ثم الذنوب عندنا قسمان صغيرة كبيرة فالثانى

منه المتاب واجب فى الحال ولا انتقاض إن يعد للحال

ولكن يجدد توبة لما اقترف وفى القبول رأيهم قد اختلف

حكم مرتكب الكبيرة

الذى مات ولم يتب

عرفنا أنه يجب على من ارتكب إثماً أن يتوب فوراً ويأثم بالتأخير.

فإذا مات قبل أن يتوب من الصغائر فالأمر فيها موكول إلى الله سبحانه، إن شاء غفر وإن شاء عذب، وكذلك إذا مات قبل أن يتوب من الكبائر عند أهل السنة فأمره مفوض إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء أدخله النار دون خلود فيها، وهذا مفهوم من عموم قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾سورة النساء: ٤٨ يقول صاحب الجوهرة:

ومن يمت ولم يتب ذنبه فأمره مفوض لربه

أما المعتزلة: فيرون أن مرتكب الكبيرة الذى مات دون أن يتوب منها لا بد من خلوده فى النار.

وهذا رأى يخالف صريح القرآن والسنة، فقوله سبحانه ﴿وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾سورة النساء: ٤٨ صريح فى جواز المغفرة ولو لم تعتمد على توبة، ويقول عليه السلام: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال أبو ذر: وإن زنى، وإن سرق، قال وإن زنى وإن سرق، فأعاد أبو ذر سؤاله ثلاثا والرسول يرد بنفس الرد. ثم قال فى الثالثة: وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر.

وفى حديث الشفاعة، أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان الخ:

وفى تخليد مرتكب الكبيرة فى النار تسوية بينه وبين الكفار، مع أن الله خاطب العصاة بوصف الإيمان كما فى قوله سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾سورة الحجرات: ٩.

وإذا ثبت جواز غفران الكبائر بدون توبة فهل لا بد من تحقق العقاب على كل كبيرة بعينها فى بعض أفراد أمة محمد عليه السلام بأن يعذب من الزناه طائفة ومن القتلة طائفة ومن شاربى الخمر طائفة وهكذا.

يقول الماتريدية نعم إنه يجب تعذيب بعض العصاة ليتحقق الوعيد.

ويقول الأشاعرة إنه لا يجب تعذيب أحدا، بل تجوز المغفره للجميع، بناء على جواز تخلف الوعيد لأنه على تقدير المشيئة كما هو عادة الكريم. وعلى هذا فيجوز عند الأشاعرة أن تقول اللهم اغفر لجميع المؤمنين جميع ذنوبهم، ولا يجوز ذلك عند الماتردية، ورأى الأشاعرة هنا جدير بالاعتبار، هذا إذا كان المقصود بالأمة أمة الإجابة التى تشمل الطائعين والعاصين من المسلمين.

وقد رأى الشيخ عبد السلام أن المقصود بالأمة أمة الدعوة فتشمل الكفار والذين لم يستجيبوا فيجوز أن يكون البعض المعذب على بعض الكبائر من الكفار، وعلى هذا يجوز غفران ذنوب جميع المسلمين عند الإشاعرة والماتريدية.

يقول صاحب الجوهرة على طريقة الماتريدية:

وواجب تعذيب بعض ارتكب   كبيرة ثم الخلود مجتنب

أما إذا سار على رأى الأشاعرة فيجب تعديل البيت؟

ولا يجب تعذيب بعض ارتكب   كبيرة ثم الخلود مجتنب

صحائف الأعمال

عندما يبدأ الحساب تعد المستندات الدامغة حتى لا يكون لأحد حجة، وأول هذه المستندات صحف الأعمال التى سطرت فيها الملائكة كل ما يفعله المرء فى الدنيا وكان لكل يوم صحيفة، كما يقول عليه السلام: ما من مؤمن إلا وله كل يوم صحيفة، فإذا طويت وليس فيها استغفار طويت وهى سوداء مظلمة، وإذا طويت وفيها استغفار طويت ولها نور يتلألأ، فإذا كان يوم الحساب وصلت هذه الصحف بعضها ببعض حتى تكون صحيفة

واحدة، أو أن هناك من ينسخ هذه الصحف المتعددة فى صحيفة واحدة، فالكتاب الذى يعطى لصاحبه كتاب واحد فيه كل صغيرة وكبيرة كما يقول الله علي لسان المجرمين المشفقين مما فى الكتاب ﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾سورة الكهف: ٤٩.

وقد ميز الله المؤمنين فى طريقة أخذ الكتاب فجعلها بأيمانهم تكريما لهم كما جعل صحف المجرمين بشمالهم ومن وراء ظهورهم، وصور سبحانه حال كل فريق تصويراً بديعاً فى قوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ.....﴾سورة الحاقة: ١٩ الآيات.

وإعطاء الكتب ليس خاصاً بالأمة الإسلامية، بل هو عام فى جميع الأمم، لكل من قدر عليه الحساب، أما من عوفى من الحساب كالأنبياء ومن أكرمهم الله بإدخالهم الجنة بغير حساب فليس هناك حاجة لإعطائهم كتبهم، وسيكون على رأس من يدخلون الجنة بغير حساب أبو بكر رضى الله عنه كما ورد فى الأثر.

طريقة أخذ الكتاب: ورد أن ريحاً تطير الكتب من خزانة تحت العرش فلا تخطئ صحيفة عنق صاحبها، كما ورد أن كل شخص يدعى فيعطى كتابه، فالريح تطيرها والملائكة يسلمونها لأصحابها بأيمانهم إن كانوا مؤمنين، وبشمالهم ومن وراء ظهورهم إن كانوا كافرين.

أما المؤمن العاصى فقد اختلفت الأقوال فى شأنه، ولم يقل أحد بأخذه بشماله وتوقف البعض عن الحكم، والصحيح أنه يأخذ بيمينه لأنه مؤمن، كما جزم بذلك الإمام الماوردى وهو المشهور.

الدليل والحكم: وقد ثبت أخذ صحائف الأعمال بالكتاب والسنة والإجماع، فمنكر ذلك كافر، يقول سبحانه ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا. وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ سورة الإنشقاق: ٧-١٢ وقال ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾سورة الإسراء: ١٣،١٤.

وكيف يقرأ كتابه وقد يكون أمياً؟ وما هى اللغة التى تكتب بها الصحف وللناس لغات شتى ولهجيات مختلفة؟

قيل إن القرآن ليست مقصودة بحقيقتها بل ذلك مجاز عن العلم، فتعرض عليه أعماله بصورة سريعة يدرك فيها كل شئ فيقول: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾سورة الكهف: ٤٩.

وليس هناك ما يدعو إلى هذا التأويل فالحقيقة ممكنة، والله سبحانه قادر على أن يخلق فيه القدرة على القراءة والفهم ليقيم عليه الحجة، ونفرض تفاصيل هذا الأمر له سبحانه ونقف عند الوارد. يقول صاحب الجوهرة:

وواجب أخذ العباد الصحفا　　　كما من القرآن نصا عرفا

الوزن والميزان

بعد أن يطلع كل فرد على سجل حسناته وسيئاته يريد أن يعرف غلبة أحدهما على الآخر فيأتى دور وزن الأعمل وتقديرها لمعرفة الراجح والمرجوح ولا يكون الوزن إلا لمن يعطى الكتاب استعداداً للحساب، وأما من أعفوا من الحساب فلا يعطون صحفاً ولا توزن لهم أعمال. وعملية الوزن والتقدير تحتاج إلى آلة يكون بها الوزن وهى الميزان.

دليل الوزن والميزان وحكمهما:

وقد ورد إنبات الوزن والميزان فى الكتاب والسنة وأجمعت عليهما الأمة، فأنكار شئ من ذلك كفر، يقول سبحانه ﴿وَالْوَزْنُ يَومَئِذ الْحَقّ فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون. وَمَن خَفَّتْ مَوَازِيْنُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُون﴾سورة الأنبياء: ٤٧ ويقول سبحانه ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ ويقول ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَت مَوَازِنُهُ. فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَة. وَأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِنُهُ. فَأُ مُّهُ هَاوِيَة. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَة. نَارُ حَامِيَة﴾سورة القارعة: ٦-١١.

وقد فسر المعتزلة: الميزان بالعدالة المطلقة، وجعلوه رمزاً لها وليس هناك- فى رأيهم - ميزان حقيقى، وشبهتهم فى ذلك أن الأعمال معان ليس لها ثقل حتى توزن.

أما أهل السنة: فيرون أن حمل هذه النصوص على ظاهرها وحقيقتها أولى من تأويلها وصرفها، فالحقيقة ممكنة بأن تصور المعانى صوراً حسية لها وزن، أو بأن توزن نفس

الصحف، ويشهد لذلك حديث البطاقة الذى ذكر فيه أنه يؤتى بشخص ينشر عليه تسعة وتسعون سجلا يعترف بكل ما فيها من سيئات ثم توضع فى كفة حسانته بطاقة فيها كلمة التوحيد فتطيش السجلات وهذا لمن أراد الله له الخير، أو توزن الأشخص أنفسهم، وقد وردت آثار تشهد لكل رأى من هذه الآراء.

ويكون الميزان على صورة يعلمها الله، وقد وردت اثار بوصفه ولكنها لم تبلغ مبلغ الصحة، فيقولون قصبة وكفتان ولسان كهيئة موازين الدنيا. ولكنا نترك علم هذه التفاصيل لله وحده.

ويكون ثقل الميزان وخفته على هيئته فى الدنيا، وقيل عكس ذلك فيصعد الثقيل إلى أعلى ويهبط الخفيف إلى أسفل أخذا من قوله سبحانه ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه﴾سورة فاطر: ١٥ والأولى التفويض فى هذه التفاصيل، وهل هو ميزان واحد أو موازين متعددة لكل شخص ميزان، أو لكل عمل ميزان، أقوال مختلفتة. وهل توزن أعمال الكفار أم يكفى الكفر ليدخلهم النار؟ وقد تكون للكافر حسنات وسيئات غير الكفر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظُلَّام لِّلْعَبِيد﴾سورة فصلت: ٤٦ فلا بد من وزن حسناتهم وسيئاتهم فيرجح الكفر ويلقى فى النار، أما قوله سبحانه ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُم يَومَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾سورة الكهف: ١٠٥ أى نافعاً يعود عليهم بنعيم أو تخفيف العذاب.

فائدة الوزن: يكون الوزن دليلا على العدالة المطلقة. واطمئناناً للنفوس وتبشيراً للسعداء وإنذاراً للأشقياء وإقامة للحجة على المخالفين.

يقول صاحب الجوهرة:

ومثل هذا الوزن والميزان   فتوزن الكتب أو الأعيان

أى الوزن والميزان مثل أخذ العباد الصحف فى وجوب الأيمان والتصديق بها.

الصراط

عندما ينتهى الحساب يأخذ الناس طريقهم إلى النعيم أو العقاب، فيمرون على الصراط الذى يوصلهم إلى تلك الغاية.

والصراط فى اللغة الطريق الواضح، وفى الاصطلاح: جسر ممدود على متن جهنم ترده جميع الخلائق ما عدا طائفة من الكفار يعجل بإلقائهم فى جهنم من الموقف مباشرة. ويسير على الصراط من يدخل الجنة بغير حساب، والكل صامت لا يتكلم إلا الأنبياء الذين يقولون: اللهم سلم سلم.

وقد ورد ذكر الصراط فى القرآن الكريم حيث يقول سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ﴾ سورة يس: ٦٦ كما ورد فى السنة الصحيحة ذكر الصراط وأوصافه، يقول عليه السلام: ويضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أنا وأمتى أول من يجوز. وذكر أنه أذق من الشعرة وأحد من السيف، وورد بجوار ذلك أن الملائكة تقوم على جانبيه: وكذلك الكلاليب التى تأخذ العصاة فتلقى بهم فى النار، وأن فيه طريقين، فأهل السعادة بسلكون طريق اليمين، وأهل الشقاء يسلكون طريق الشمال.

وقد اشتبه الأمر على بعض العلماء فظنوا أن هناك تعارضاً فى الأوصاف، ولذلك لم يعترفوا بالصراط على حقيقته المشهورة، بل صرفوه عن ظاهره وقالوا: المراد به الأدلة الواضحة، فليس هناك صراط حقيقى ممدود على متن جهنم يمر عليه الناس، وهذا رأى كثير من المعتزلة.

أما أهل السنة فوجدوا أن الحقيقة ممكنة، فليس هناك إذن ما يدعوا إلى التأويل وصرف النصوص عن ظاهرها، واختلاف الأوصاف فى الضيق والسعة يمكن فهمه باعتبار المارين عليه حسب أعمالهم التى تنيرلهم الطريق، فالعصاة يشق عليهم المرور حتى يبدو أمامهم الطريق ضيقاً حاداً، والصالحون يستبشرون بنعمة من الله وفضل فيرون الطريق أمامهم واسعاً سهلا. ونحن نشعر بمثل هذين الشعورين فى الدنيا فتبدو الطريق واسعة مفتحة عند الهدوء والاطمئنان النفسى، أما إذا أسيب المرء بكارثة ووقع فى مأزق ظن أن الطرق مغلقه دونه، وأن الأبواب موصدة فى وجهه.

يفسر هذا ما ورد فى الحديث الصحيح أن الناس يختلفون فى المرور على الصراط فمنهم من يجتازه كطرف العين، ومنهم من يمر كالبرق الخاطف، أو كالريح العاصف، أو كالطير، أو كالجواد السابق، ومنهم من يختازه سعياً أو مشيا، ومنهم من يحبو حبواً وإنما كان ذلك التفاوت حسب التفاوت فى الأعمال والاعراض عن المحرمات.

ومرور جميع الخلائق فوق الصراط المنصوب فوق متن جهنم يفسر قول الله تبارك وتعالى ﴿وَإِن مِّنْكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيّاً. ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ

الظَّالِمِيْنَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾سورة مريم: ٧١،٧٢ فجميع الخلائق ترد جهنم بمرورهم فوق الصراط حتى الأنبياء والشهداء والصالحون، فينجو هؤلاء وتأخذ الكلاليب العصاة فتلقيها فى النار.

أما المادة المخلوق منها الصراط، وطوله الحقيقى وعرضه وغير ذلك من الأوصاف الدقيقة فإننا نفوض علمه إليه سبحانه.

الخلاصة: أن جميع المؤمنين يعترفون بالصراط فى الجملة. والمعتزلة منهم يصرفون النصوص عن ظاهرها، ويرون أن المقصود الطريق أو الأدلة الواضحة. وأهل السنة يبقون النصوص على ظاهرها لأن الحقيقة ممكنة، وهذا هو الحق. ومنكر الصراط فى الجملة كافر لأنه أنكر القرآن والسنة، أما منكر هذا التفصيل فليس بكافر ولا فاسق.

حكمة الصراط: أن يفرح المؤمنون بنجاتهم، ويتحسر الكافرون لوقوعهم فى النار وهم يرون المؤمنين يمرون سالمين. يقول صاحب الجوهرة:

كذا الصراط فالعباد مختلف   مرورهم فسالم ومنتلف

اى كذلك يحب الإيمان بالصراط كما آمنا بالميزان بأخذ الصحف، وأن العباد يختلفون فى المرور عليه فمنهم من يسلم من الوقوع فى جهنم ومنهم المنتلف الهالك بوقوعه فيها.

الحوض

عندما يشتد الموقف بالناس يظهر الله سبحانه كرامة هذه الأمة وخصائصها فتكون لرسولها الشفاعة العظمى فى إنهاء الموقف، ثم يكون أتباعه أول من يمر على الصراط. ثم يخصهم الله سبحانه بخاصة أخرى فيمدلهم حوضا يشربون منه فلا يظمأون أبداً.

والحوض جسم مخصوص كبير متسع الجوانب يكون على الأرض المبدلة والبيضاء كالفضة من شرب منه لا يظمأ أبدا.

وقد ورد فى الصحيحين عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه أكثر من نجوم السماء من شرب منه فلا يظمأ أبداً.

وهذا الحوض بهذه الأوصاف من خصائص رسولنا عليه السلام، وهذا لا يمنع أن يكون لكل نبى حوض يرده من آمن به كما ورد عن الحسن مرفوعا أن لكل نبى حوضاً وهو قائم على حوضه وبيده عصا يدعو من عرفه من أمته، ألا وإنهم يتباهون أيهم أكثر تبعاً، وإنى لأرجوا أن أكون أكثرهم تبعاً.

والأحاديث التى ذكرها فيها الحوض تكاد تبلغ مبلغ التواتر، وكلها مجمعة على نسبة الحوض إلى نبينا عليه السلام، وإن اختلفت فى سعته وبعض أوصافه ففى بعضها ان سعته مسيرة شهر وفى البعض الآخر أنه مسيرة شهرين وبعضها يمثله بالمسافة بين مكة وأيلة، أو بالمسافة بين عدن وعمان، أو بين صنعاء والمدينة أو بين المدينة وبيت المقدس. والمقصود من كل ذلك أنه واسع لحد كبير، ويريد عليه السلام أن يقرب الفهم من السامعين، فيمثل لكل فريق بما يعرف، ويخاطب كل جماعة بما تفهم، فليس هناك تعارض ولا اختلاف.

وقد حمل هذا الاختلاف فريقا من المعتزلة على إنكار الحوض بهذه الصفة وتأويله بأنه نوع من رضوان الله ونعمه، وليس هناك ما يمنع أن يكون رضوان الله بهذه الصورة التى وردت فى الأحاديث. وليس هناك ما يدعوا إلى صرف هذه النصوص عن ظاهرها ما دامت الحقيقية ممكنة، وهذا هو الحق، وهو رأى أهل السنة.

أما مكانه فلم يرد فى السنة الصحيحة تحديد له وقد اختلفت الأقوال فيه، فهناك من يقول إنه قبل الصراط ليشرب منه المؤمنون بعد خروجهم من القبور عطاشا، وفريق آخر يرى ان موضعه بعد الصراط قبل الجنة، فقد ورد أن الماء ينصب فيه من الكوثر، وهو نهر فى الجنة، والناس فى حاجة إلى الشرب منه فى هذا الموضع لأنهم يحبسون بعد الصراط ليتحللوا من المظالم فيما بينهم، وفريق ثالث يرى أن هناك حوضين لنبينا عليه السلام، أحدهما قبل الصراط والآخر بعده، ولا حرج على فضل الله.

وإنما يشرب من ذلك الحوض من وفى بعهده الذى أخذه الله على الناس فى عالم الدر، حين قال ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى﴾سورة الأعراف: ١٧٢ فمن استمر على عهده ولم يشترك به قال هذه الميزة. وهذا يشمل كل من آمن من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فيشرب مؤمنو كل نبى من حوضه، أما الكفار فيصدون عنه، وكذلك المرتدون والزنادقة وأهل الزيغ والبدع، اما عصاة المؤمنين فالصحيح أنهم يمنعون أولا عقابالهم ثم يباح لهم الشرب منه.

وهذا معنى قول صاحب الجوهرة:

إيماننا بحوض خير الرسل حتم كما قد جاءنا فى النقل

ينال شربا منه أقوام وفوا بعهدهم؟ وقل يذداد من طغوا

الجنة والنار

عندما ينتهى الموقف ويمر الناس جميعاً على الصراط تتلقف الكفار والعصاة كلاليب فتلقى بهم فى النار، ويمر الناجون حتى يجتازوا الصراط ويشربوا من الحوض ثم يؤذن لهم بدخول الجنة، والجنة فى اللغة البستان وفى الاصطلاح دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين لتكون دار إقامة خالدة مؤبدة معدة للسعداء الذين فارقوا الدنيا على الإيمان.

والجنة درجات بعضها فوق بعض، أفضلها الفردوس وهى أعلاها، وتليها جنة عدن ثم جنة الخلد، ثم النعيم ثم المأوى، ودار السلام ودار الجلال فهى سبع، وكلها متصلة بمقام الوسيلة والدرجة الرفيعة، لينعم أهل الجنة جميعاً بمشاهدة المصطفى عليه السلام.

وقيل إن الجنات أربع فحسب. أخذاً من قوله سبحانه ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ سورة الرحمن: ٤٦ وهما جنة النعيم وجنة المأوى. ثم يقول سبحانه ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ سورة الرحمن: ٦٢ وهما عدن والفردوس، والصحيح أنها جنة واحدة تتفاوت درجاتها، وهذه الأسماء كلها جارية عليها، فهى عدن أى إقامة ومأوى لأن المؤمنين يأوون إليها، وجنة خلد لخلودها وخلود من دخلها، ودار السلام لأن من دخلها يسلم من كل خوف وحزن، وجنة النعيم لتوفر أصناف النعيم فيها، ودار الجلال لظهور عظمة الخالق، وهى بعد ذلك الفردوس لأنها بستان فيه ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين.

والنار فى اللغة جسم لطيف محرق، وفى الاصطلاح: دار العذاب المعدة للعصاة، والنار دركات: أعلاها جهنم لعصاة المؤمنين، وتحتها لظى ثم الحطمة ثم السعير، ثم سقر ثم الجحيم، ثم الهاوية أو هى نار واحدة تختلف طبقاتها، وشدة العذاب فيها كما يقول سبحانه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾سورة النساء: ١٤٥.

وقد أخبر الله سبحانه عن إعداد الجنة والنار، وكونهما دارى ثواب وعقاب فى كثير من آى القرآن الكريم كقوله سبحانه ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً﴾ سورة مريم: ٦٣ وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾سورة الكهف: ١٠٧،١٠٨ وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً﴾سورة الأحزاب: ٦٤ فالجنة والنار حقيقتان ثابتتان بالقرآن والسنة والإجماع، ولم ينكرها إلا الفلاسفة الذين ينكرون البعث وتوابعه، وقد عرفت بطلان رأيهم.

وجود الجنة والنار: وجمهور المسلمين على أنهما موجودتان فعلا الآن، يدل على ذلك قصة آدم التى جاءت فى أكثر من موضع من القرآن، ويدل أيضا قول سبحانه ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾سورة آل عمران: ١٣٣ فهى معدة فعلا، وفى حديث الإسراء ما يفيد رؤية الرسول عليه السلام للجنة.

ولم يخالف فى وجودهما الآن إلا أفراد من المعتزلة كأبى هاشم وعبد الجبار فقالوا إنه لا داعى لوجودهما الآن، وإنما يوجدان بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات، ثم إن الله ذكر أن عرض الجنة كعرض السماء والأرض فكيف يتصور وجودها الآن؟

وهذه شبه واهية، فليس ملك الله محدوداً بهذه السموات السبع والأرضين حتى لا يجد مكانا للجنة والنار، وإعدادهما منذ خلق السموات والأرض لحكمة سامية يعلمها سبحانه ويشعر بوجودهما كل من ينتقل من هذه الحياة، فيرى مقعده من الجنة أو النار فيتنعم أو يتعذب بذلك، والشهداء تسرح أرواحهم فى الجنة منذ مفارقة هذه الحياة، والنصوص صريحة فى وجودهما الآن، وليس هناك ما يدعوا إلى التأويل أن التأويل من غير ضرورة إلحاد.

أما مكان الجنة والنار الآن فلم يرد نص صريح بتعيينه، ويرى كثير من العلماء أن الجنة فوق السموات السبع وتحت العرش، وأن النار تحت الأرضين السبع والحق تفويض علم ذلك لله.

خلود الجنة والنار: نصوص القرآن صريحة فى استمرار الجنة والنار وعدم فنائهما، ففى كثير من الآيات يذكر سبحانه الخلود على وجه التأبيد ليدل على استمرار البقاء، يقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّه حَقّاً وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾سورة النساء: ١٢٢، ويقول فى حق الكافرين ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُم سَعِيراً، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيرًا﴾سورة الأحزاب: ٦٤،٦٥ ولا يشذ عن هذا الإجماع غير الجهمية الذين قالوا بفنائهما بعد النعيم والعذاب.

والخلود فى النار يكون للكافرين، أما عصاة المؤمنين فإنهم يخرجون منها ويدخلون الجنة فيدخلدول فيها.

والمؤمنون هم السعداء المخلدون فى الجنة، والكفار هم الاشقياء المخلدون فى النار وهم المقصودون بقوله سبحانه ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُم فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا

مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾سورة هود: ١٠٦،١٠٧ والمقصود بالسموات والأرض المعلق بقاء أهل الجنة والنار على بقائهما فيها هى سماء الجنة وأرضها وسماء النار وأرضها وليس المقصود سماء الدنيا وأرضها لأنهما بدلتا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيرَ الأرض وَالسَّمَوَاتُ﴾سورة ابراهيم: ٤٨ وتعليق البقاء على المشيئة للدلالة على أن بقاء الجنة والنار ومن فيهما ليس واجباً لذاته، ولا واجباً عليه سبحانه، وإنما هو جائز فى حد ذاته تفضل به سبحانه، ولزومه جاء من ناحية وعده ووعيده.

مصير غير المكلفين من الثقلين: المكلف من الثقلين إما أن يموت على الإيمان فيكون سعيداً، أو يموت على الكفر، فيكون شقيا، وقد رحم الله البشر فجعل تكليفهم مشروطا بالبلوغ، أما من مات قبل البلوغ، فإما أن يكون من أولاد المؤمنين أو من أولاد الكفار.

فأولاد المؤمنين فى الجنة، وهذا هو رأى الجمهور، وقال غير الجمهور: إن أولاد الأنبياء فى الجنة وأولاد غيرهم م المؤمنين فى مشيئة الله، والصحيح رأى الجمهور.

أما أولاد غير المؤمنين،فالصحيح أنهم فى الجنة كذلك، وهناك رأى آخر أنهم فى النار، ورأى ثالث أنهم على الأعراف، وهى أقوال يعوزها الدليل.

أنواع النعيم والعذاب: الجنة مشحونة بأنواع النعيم، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنها من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم.

والنار مشحونة بأنواع العذاب والأهوال، فوقودها الناس والحجارة، ويسقون ماء حميما يقطع أمعاءهم، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، ويقال لهم أنطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون، أنطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب، إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالت صفر. ويقال للملائكة خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه. ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه. إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين. فليس له اليوم ههنا حميم، ولا طعام إلا من غسين. لا يأكله الخاطئون.

وقد حثنا عليه السلام على أن نستعيذ بالله من النار وعذابها، وأن نسأله الجنة ونعيمها، فالدعاء الخالص مرجو الإجابة. يقول عليه السلام ما استجار عبد من النار سبع

مرات إلا قالت النار يارب إن عبد فلانا استجار منى فأجره، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة يا رب إن عبدك فلانا سألنى فأدخله الجنة. رواه أبو يعلى بإسناد على شرط الشيخين، وفى مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن الكريم يقول: قولوا: اللهم إنى أعوذبك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، يقول صاحب الجوهرة:

والنار حق أو جدت كالجنة فلا تمل لجاحد ذى جنة

دارا خلود للسعيد والشقى معذب منعم مهما بقى.

الكليات التى أوجب الشارع حفظها

كان الإنسان صالحاً للتكاليف الشرعية كما ركب فيه من العقل والشهوة، والإنسان ميال بطبعه لتحقيق أغراضه وشهواته، وجاءت الشرائع لتنظم هذه الطبيعة، وتحد من الشهوة والحرية، وقد جعلت الشريعة لكل فرد حقوقاً وألزمته بواجبات.

فواجباته نحو نفسه تنحصر فى أمور خمسة يسميها العلماء الكليات الخمس، وتلزمه الشريعة بالمحافظة عليها، بل كادت الشرائع كلها تجمع على وجوب المحافظة عليها لأنها أساس الحياة السعيدة لما يتفرع عليها من أمور، وهى:

١. الدين: وهو اول ما يجب على المرء المحافظة عليه، فيه تكون النجاة فى الآخرة. وقد شرع الله جهاد الكفار والمرتدين والملحدين محافظة على الدين العقيدة وأوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر محافظة عليه كذلك، وأمر بطاعة أولى الأمر ما داموا يقيمون شعائر الدين.

٢. النفس: وقد أمرت الشريعة بالمحافظة على النفس وحرمت إزهاق الروح بغير حق، فالإنسان بنيان الرب ملعون من هدمه، وجعل جزاء القاتل المتعمد جهنم خالداً فيها، وشرع القصاص محافظة على النفس ﴿وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِى الأَلْبَابِ﴾سورة البقرة: ١٧٩ كما حرم الانتحار وجعل جزاءه أن يعذب بمثل ما فعل بنفسه فى نار جهنم، أخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله عليه السلام قال: من تردى من جبل فقتل نفسه

فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سماً فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً.

٣. النسب والعرض: والمحافظة على النسب تقوى أواصر المودة بين الأسر وتجعل العلاقة بين الوالدين والمولودين وبين الأقرباء علاقة محبة وتعاون، وقد أمر الإسلام بالمحافظة على العرض والنسب، ولذلك شرع الزواج، وتوعد من تعدى على العرض والنسب بقذف أو فعل بالعذاب في الدنيا والآخرة، يقول سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُوا لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾سورة النور: ١٩ أما عذاب الدنيا فهو حد القذف وحد الزنا ووصفه بالفسق إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. أما عذاب الآخرة فما أعد للفساق والمعتدين من عذاب أليم.

٤. العقل: هو النعمة العزمى التى ميزت الإنسان عن الحيوان، وبه كان مكلفاً، والاعتداء عليه اعتداء على أهم ما يملك الإنسان فى هذه الحياة، ولذلك أمر الإسلام بالمحافظة عليه، وشرع القصاص لمن جنى عليه، كما شرع حد الشرب إن سكر الشارب لما فى ذلك من إهدار للانسانية.

٥. المال: من النعم التى تفضل بها سبحانه على الإنسلن نعمة التملك، وأباح للمالك أن ينتفع بملكه فى الحدود المشروعة، وقد وصف الله المال بأنه زينة الحياة الدنيا، وحرم إنفاقه فى غير مصلحة ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾سورة الإسراء: ٢٦،٢٧ كما حرم كنزه ومنع الانتفاع به ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم هَذَا مَا كَنَزْتُم لِأَنْفُسِكُم فَذُوقُوا مَا كُنتُم تَكْنِزُونَ ﴾ سورة التوبة: ٣٤ وحرم الاعتداء على مال الغير بطريق الغصب والنهب ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِن أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُم تَعْلَمُونَ ﴾سورة البقرة: ١٨٨ وشرع حد الشرقة محافظة على أموال الناس من الاعتداء خفية ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾سورة المائدة: ٣٨ وقد جمع معظم هذه الكليات قول الرسول عليه السلام فى حجة الوادع: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحزمة يومكم هذا فى شهركم بلد كم هذا. يقول صاحب الجوهرة:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

حكم انكار

المعلوم الدين بالضرورة

الأحكام التى جاءت بها الشريعة بعضها ظاهر مشتهر يعرفه الناس جميعاً سواء منهم العلماء والعامة، وذلك كوحدانية الله ورسالة محمد عليه السلام، ووجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج وكحرمة الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا النوع يعرف بأنه المعلوم من الدين بالضرورة، وبعض الأحكام خفى على العامة فلا يدركه إلا الخاصة، كاستحقاق بنت الابن السدس مع البنت الصلبية وكجعل الأخوات عصبة مع البنات.

وهناك أحكام ثتت بإجماع من يعتبر إجماعهم من الأمة سواء أكان إجماعا صريحا أم إجماعا سكوتيا، وهناك أحكام أخرى اجتهادية وقع الخلاف بين العلماء فيها، والمنكر لحكم من أحكام الشريعة الغراء يختلف الحكم عليه تبعا لاختلاف الحكم الذى أنكره، فمن أنكر المعلوم من الدين بالضرورة سواء ثبت بالنص أو بالإجماع الصريح فقد كفر، لأنه كذب الرسول عليه السلام وكذب القرآن وخرج على إجماع الأمة الصريح وهو قطعى الدلالة على الحكم، والمرتد يقتل كفراً لاحداً، ونعامله معاملة الكفار، بخلاف الفاسق الذى نقيم عليه الحد فإنه يعامل معاملة المسلمين، ويكون الحد جابراً لذنبه على الصحيح، أما منكر ما يخفى على العامة فليس بكافر، وكذلك من أنكر حكما مجمعا عليه إجماعا سكوتيا، لأن دلالة السكوتى ظنية لا قطعية.

وكذلك الحكم فيمن استباح ما حرمه الإسلام فان استباح ما علم تحريمه من الدين بالضروره أو ما أجمع إجماعا سكوتياً على تحريمه فهو كافر، ولا فرق بين استباحه الصغائر والكبائر، بل العبرة بأن يكون معلوماً بالضرورة أولا، فاستباحة الزنا وشرب الخمر والنظر إلى عورة الأجنبية كفر لأنه معلوم من الدين بالضرورة واستباحة تحلى الرجال بالذهب ولبسهم الحرير لا يعتبر كفراً لأنه ليس من المعلوم من الذين بالضرورة، ولا فرق بين أن يكون تحريم الشئ لذاته كتحريم الزنا والسرقة والغيبة والنميمة، أو لعارض كصوم يوم العيد ووطء الصائم امرأته فى رمضان، فحرمة عموم يوم العيد لا لذات اليوم وإنما للإعراض عن ضيافة الله. وحرمة وطء الصائم فى رمضان لا لذات الوطء وإنما لحرمة صوم رمضان، وهذا رأى جمهور أهل السنة، وقد خالف بعض الماتردية فجعل استباحة المحرم لغيره ليس كفراً.

ومن لمعلوم ضرورة جحد　　　من ديننا يقتل كفراً ليس حد

ومثل هذا من نفى لمجمع　　　أو استباح كالزنا فلتسمع

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

تمتاز الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع بتوزيع المسئوليات على جميع الأفراد وتعاونهم على تنفيذ الأحكام وإقامة مجتمع فاضل يسوده الخير ويرفرف عليه السلام، وقد طلبت الشريعة أموراً على طريق الندب أو الإيجاب، ونهت عن أمور أخرى على سبيل التحريم أو الكراهة، وشرعت حدوداً لمن يرتكب بعض هذه المنهيات، وتوعدت من يرتكب البعض الآخر بعذاب يوم القيامة، وزيادة فى إقامة الحجة على الناس ندبت فريقاً منهم ليذكر بأوامر الله ونواهية فيحث على الخير وينهى عن الشر، يقول سبحانه ﴿وَلْتَكُن مِنْكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرَ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَونَ عَنِ الْمنكَر وَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾سورة آل عمران: ١٠٤.

والمقود بالمعروف: ما عرف الشرع خيره وطلبه على سبيل الندب أو الوجوب.

والمقصود بالمنكر: ما أنكره الشرع ونهى عن فعله على سبيل الكراهة أو التحريم وقد مدح الله هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كما لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وكل فرد من أفراد المسلمين مطالب بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى حدود علمه وقدرته، لذاك يقول عليه السلام: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، والناس يتفاوتون فى قدرتهم ومراكزهم وسلطانهم فيتفاوتون تبعا لذلك فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فرب الأسرة قادر على أن يغير بعض المنكرات فى حدود أسرته، أما الغريب عنهم فلا يمكنه إلا أن ينصح بلسانه أو ينكر بقلبه، والحاكم يستطيع أن يغير بعض المنكرات بما له من سلطان وهكذا.

ويندب الأمر بالمندوب والنهى عن المكروه، أما الأمر بالواجب والنهى عن الحرام فهو واجب وجوباً كفائياً، فإذا قام به البعض سقط عن الباقين، ويجب الأمر والنهى فور وقوع المخالفة وبمناسبتها فإذا تأخر أثم.

وإنما يكون الأمر والنهى واجبين على من تحققت فيه شروطها وهى:

١. أن يكون الداعى عالما بالحكم الذى يدعو عليه. أما الجاهل فلا يجب عليه لأنه قد يأمر بمنكر وينهى عن المعروف.
٢. ألا يؤدى إنكاره إلى منكر أشد بأن يترتب عليه فتنة مثلا.

وفقد أحد هذين الشرطين يحرم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٣. أن يغلب على ظن الداعى أن أمره أو نهيه سيترتب عليه الامتثال، فإذا قطع بأنه لن يؤثر سقط عنه الوجوب وأصبح جائزاً فحسب فإذا فعل أثيب وإذا لم يفعل يؤاخذ. أما إذا شك فى تحصيل أثر الأمر والنهى ندب له.

والصحيح، كما يقول العلماء، عدم اشتراط هذا الشرط، فالذى عليه هو الأمر والنهى لا القبول، كما يقول سبحانه ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغ﴾سورة المائدة: ٩٩ وقد أمر سبحانه بالتذكير من غير اشتراط تحقق النتيجة كما يقول ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِين﴾سورة الذاريات: ٥٥ أما قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُم﴾سورة المائدة: ١٠٥ فمعناه إذا قمتم بجميع ما طلب منكم، ومنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فلا يضركم ضلال من ضل بعد ذلك، ففيها دلالة على وجوب الأمر والنهى، يقول ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد. اتق الله فيقول: عليك بنفسك.

وجوب اجتناب المنكرات: وإن كان من واجب المسلم أن يذكر غيره ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر فواجبه نحو نفسه أشد، فعليه أن يقى نفسه من عذاب الله بالابتعاد عن محارمه، فإن لكل ملك حمى، وحمى الله محارمه، واجتناب المناهى فى استطاعة كل فرد، أما المأمورات فقد يستطيع بعضها ولا يستطيع البعض الآخر، لذلك يقول عليه السلام: إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه.

وجوب التخلى عن الرذائل

و التخلى عن المحرمات وتطهير النفس من الموبقات من ألزم الواجبات، لذلك كان الشارع الحكيم حريصاً على تبغيض الناس فى المحرمات، وتصويرها لهم بصور بشعة قاتمة.

وسنذكر أمثله للمحرمات التى لم يشرع لها حد فى الدنيا وأجل جزاؤها إلى يوم القيامة.

النميمة: نقل بعض الناس إلى البعض الآخر على سبيل الإفساد، أو هو كما يقول الغزالي: كشف ما يكره كشفه بالقول أو الكتابة أو الرمز أو نحوها، سواء أكان المنقول من الأعمال أم الأحوال، وسواء أكان عيباً أم غيره، فليست النميمة قاصرة على الكلام.

قال النورى: فحقيقة النميمة إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه. قال: وكل من حملت إليه نميمة لزمه ستة أمور:

١. أن لا يصدقه لأن النمام فاسق مردود الخبر.
٢. أن ينهاه عن ذلك وينصحه.
٣. أن يبغضة فإنه بغيض عند الله.
٤. أن لا يظن عنه السوء لقوله تعالى ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّن﴾سورة الحجرات: ١٢.
٥. أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك قال تعالى ﴿وَلَاتَجَسَّسُوا﴾سورة الحجرات: ١٢.
٦. أن لا يحكى بنميمه عنه فيقول: فلان حكى فى نميمة كذا فيصير بذلك نماماً.

وقد حرم الشارع النميمة لما يترتب عليها من الفساد وقطع أواصر المودة بين الناس روى الشيخان عنه عليه السلام: لا يدخل الجنة نمام. وفى رواية مسلم قنات أى: نمام، من: الحديث أى نمه.

وقد أجاز الشارع الحكيم النميمة إذا دعت إليها الحاجة والمصلحة - كما أجاز الكذب عند الحاجة- لأنها عندئذ نصيحة لا نميمه كما إذا علمت أن شخصاً يريد البطش بآخر أو بماله، أو يتصل بالأعداء ليدلهم على مواضع الضعف، فأخبرت عنه لتأخذ الحذر منه فهذا واجب إذا تيقنت من وقوع ما عمله، أما إذا شككت فى الوقوع فيكون الإخبار مندوبا وليس حراماً على كل حال دفعاً للمفاسد كما ذكره الإمام النووى.

الغيبية: ذكرك أخاك بما يكره، ولو كان فيه. فقد سئل عليه السلام: أرأيت إن كان فى أخى ما ذكرت؟ قال: إن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته. أى افتريت عليه الكذب والبهتان فارتكبت إثمين، وقد صور سبحانه الغيبة تصويرا بشعاً فجعلها كأكل لحم الأخ الميت، ولما قالت عائشة رضى الله عنها لرسول الله حسبك من صفية-ضرتها- كذا وكذا تعنى أنها قصيرة، فقال لها عليه السلام: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته. أى لغيرت طعمه وريحه من شدة تتنتها وقبحها.

وليست الغيبية قاصرة على الكلام بل هى ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم، باللفظ أو الكتابة أو الإشارة أو التقليد ونحوه، والغيبة لا تكون إلا فى إنسان معين أو جماعة معينين، أما إذا كانوا مبهمين كأن تقول إن جماعة يفعلون، فليست غيبة، وكذالك لا غيبة لكافر وفاسق متجاهر بفسقه، ويشيز إلى ذلك قوله عليه السلام: ذكرك أخاك وتخصيص الأخ أى المسلم غير المتجاهر بالفسق لأن هذا وجب نصحه وتقويمه فتكون نصيحة لا غيبية.

والغيبية من الكبائر كما ذكره القرطبى وقيل من الصغائر.

وجزم ابن حجر الهيثمى فى شرح الشمائل أن غيبة العالم كبيرة وغيبة غيره صغيرة وهو المعتمد.

وكما تحرم الغيبة غلى المعتاب يحرم سماعها وإقرارها، ويجب على السامع أن ينهى المغتاب، فقد ورد أن من رد غيبة مسلم رد الله النار عن وجهه يوم القيامة.

وقد ذكر العلماء أن الغيبة تباح فى أحوال للمصلحة مثل: التظلم كأن يقول للقاضى: فلان ظلمتى فى كذا، وكذلك الاستعانة على تغيير المنكر كأن يقول لوالد: إن ابنك يفعل كذا وهو يقصد إصلاحه، وكذالك التحذير لمن يستشيرك فى زواج أو شركة، وكذلك التعريف إذا لم يمكن إلا به كالأعشى والأعرج، وكذلك المجاهر بالفسق فيجوز ذكر ما يجاهر به دون غيره من العيوب.

والتوبة من الغيبة تتوقف على عفو صاحبها إذا بلغته، وإذا لم تبلغه كفى الاستغفار. كما حرم الإسلام جميع الخصال الذميمة كالعجب بما يفعل من خير، والكبر وهو بطر الحق وغمط الخلق، كما يقول عليه السلام فيما رواه عنه مسلم: لن يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من الكبر. فقالوا يا رسول الله إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسنة ونعله حسناً. فقال إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس.

وكذلك الحسد: وهو تمنى زوال نعمة الغير، وهو خسة فى الخلق، ولو تمنى أن يكون له مثل ما لغير لكان حسناً فهذه غبطة ولا حرج على فضل الله.

ومن الخصال الذميمة: المراء والجدال بغير حق، يريد إثبات قوله وإبطال قول خصمه وهو يعلم أنه على غير حق، وإنما يستغل قدرته على التلاعب بالألفاظ كما يفعل بعض

المحامين للحصول على أحكام لصالح موكليهم وهم يعلمون ألا حق لهم فيها، كما يقول عليه السلام: قد يكون أحدكم ألحن بحجته من صاحبه فأقضى له، فمن قضيت له بشئ ليس له فإنما قضيت له بقطعة من النار فليأخذها أو فليدعها.

التحلي بالفضائل

وإذا حاول المسلم أن يطهر نفسه من أدران الرذيلة، كان عليه بعد ذلك أن يتحلى بالفضائل ويستزيد من الخيرات، ويتأسى بخيار الخلق من الصحابة والتابعين فكل خير فى اتباع ما جاء به المصطفى عليه السلام، فليس هناك خير يقرب إلى الله إلا أمر به، ولا شر يبعد عن الله إلا نهى عنه، وقد كملت الشريعة واستوعبت كل خير، وأنارت الطريق للسالكين. يقول صاحب الجوهرة:

واؤمر بعرف واحتنب نميمه   وغيبة وخصلة ذميمة
كالعجب والكبر وداء الحسد   وكالمراء والجدال فاعتمد
وكن كما كان خيار الخلق   حليف حلم تابعاً للحق
فكل خير فى اتباع من سلف   وكل شر فى ابتداع من خلف
وكل هدى للنبى قد رجح   فما أبيح افعل ودع ما لم يبح
فتابع الصالح ممن سلفا   وجانب البدعة ممن خلفا

كلمة ختامية

وبعد، فهذا أيها القارئ الكريم مجهود المقل، وقد كنت فيه عالة على السابقين، ولا أدعى أنى وفقت غاية التوفيق، ولكني أستطيع أن أقول: إننى ما بذلت ما أستطيع لتوضيح هذه العقائد، فإن وجدت فيها خيراً فمن توفيق الله، وان وجدت غير ذلك فهو من تقصيرى.

أسأل الله أن يجعل ذلك العمل خالصاً لوجهه، وأن ينفع به، وأن يحفظ على الإسلام قوته ومجده.

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى خاتم النبيين، والمبعوث إلى الناس كافة رحمة للعالمين، والحمدلله رب العالمين.

نموذج أسئلة الإمتحان

الأزهر

الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية

امتحان الشهادة الثانوية الأزهرية المعادلة لسنة ١٣٨٩-١٣٩٠ هـ (١٩٧٩/١٩٧٠م) الدراسية.

الدور الأول   التوحيد (للصف الرابع الأدبي) لجميع الطلاب   الزمن: ساعتان

١. ما الملائكة؟ وما العصمة لغة واصطلاحا؟ وهل هي مغايرة لصفة الأمانة؟ وهل يجوز لنا سؤال العصمة بمعناها الاصطلاحي؟ وهل هي واجبة لجميع الملائكة؟ وهل قولهم: ﴿أيجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ يعد غيبة أو اعتراضاً على الله؟ وما رأيك في ﴿هاروت وماروت﴾؟ وهل الملائكة أفضل مُن الأنبياء؟ أجب عن هذا كله مع التعليل لما تقول.

(١٤-٤٠)

٢. عرف البعث واشرح تعريفه، وافرق بينه وبين الحشر: وفصل المذاهب في كيفية إعادة الأجسام، مبيناً أدلة كل مذهب، مختاراً الرأى يليق بعظيم قدرة الله تعالى، وهل يتناول الخلاف بين هذه المذاهب أجسام الأنبياء والشهداء؟ ولماذا؟

(١٤-٤٠)

٣. المعتزلة فرقة أسسها علم من أعلام الإسلام، وعلى أصول خمسة، متبعاً منهجاً معيناً في البحث والدرس، وكان من أنباعه كثير من عظماء الرجل. اشرح هذه العبارت شرحاً وافياً، يبين مدلولها، ويفصل مجملها.

(١٢-٤٠)

دليل الكتاب

الموضوع	صفحة

الجزء الاول

منهج التوحيد ١
علم التوحيد ونشأة علم الكلام ٥
العقيدة والأحكام فى القرآن الكريم ٥
أثر الفتوحات الإسلامية فى العقائد ٦
نشأة الفرق الكلامية فى الإسلام ٨
الشيعة ١٠
فرق الشيعة ١١
الزيدية ١١
الإمامية ١١
الإسماعيلية ١٢
النصرية ١٢
الدروز ١٣
البابية ١٣
البهائية ١٣
القديانية ١٤
الخوارج ١٤
المرجئة ١٦
القدرية الأولى ١٧
الجبرية ١٨
المعتزلة ١٩
أهل السنة ٢١
أبو الحسن الأشعرى ٢١
أبو منصور الماتريدى ٢٢

علم التوحيد ٢٢
التكليف ٢٤
الحكم وأقسامه ٢٥
الحكم العقلى ٢٦
معرفة الله عزوجل ٢٧
طريق الوصول إلى المعرفة ٣١
أول الواجبات ٣١
النظر ٣٣
التقليد ٣٤
حكم إيمان المقلد ٣٤
الإيمان ٣٦
مراتب الإيمان ٣٧
الإيمان عند أهل السنة ٣٧
مذهب أبو حنيفة وبعض الأشاعرة ٣٩
مذهب المعتزلة ٤٠
مذهب الخوارج ٤٠
الرأى الصحيح وأدلته ٤١
الإسلام ٤٢
الصلة بين الإيمان والإسلام ٤٢
زيادة الإيمان ونقصانه ٤٤
حدوث العالم ٤٧
نماذج أسئلة ١ توضيح التوحيد ٥٢
كلمة ختامية ٥٤

الجزء الثانى

منهج التوحيد ٥٦
مباحث علم التوحيد ٥٨

الإلهيات ٥٨
صفات الله عزوجل ٥٩
الصفة النفسية-الوجود ٦٠
الدور والتسلل ودليل بطلانها ٦٢
الصفات السلبية ٦٤
القدم ٦٤
البقاء ٦٥
المخالفة للحوادث ٦٧
النصوص الموهمة للتشبيه ٦٨
القيام بالنفس ٧٠
الوحدانية ٧٢
تنزيه الله ٧٥
صفات المعانى ٧٧
القدرة ٧٧
الإرادة ٧٩
العلم ٨١
الحياة ٨٢
الكلام ٨٣
القرآن الكريم ٨٥
السمع والبصر ٨٦
الإدراك ٨٨
التكوين ٩٠
الصفات المعنوية ٩٠
وصف الله بأنه قادر عالم ٩١
صفات المعانى ٩٢
تعلقات صفات المعانى ٩٤
(١) ما يتعلق بالممكن ٩٥
(٢) ما يتعلق بأقسام الحكم ٩٦
(٣) ما يتعلق بالموجودة ٩٧
(٤) ما لا يتعلق بشئ ٩٨

المستحيل فى حق الله ٩٨
الجائز فى حق الله ٩٩
أفعال العباد ١٠٠
خلق الله تعالى ١٠١
أفعال العباد ١٠٢
مذهب الجبرية ١٠٣
مذهب المعتزلة ١٠٥
مذهب أهل السنة ١٠٧
الثواب والعقاب ١١٣
إرادة الخير والشر ١١٧
الفرق بين الإرادة والامر ١١٧
القضاء والقدر ١٢٢
بعض النصوص التى على أن القدر العلم ١٢٦
بعض النصوص التى تفسر القضاء بالإرادة والإيجاد ١٢٧
هل يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر ١٢٧
رؤية الله تعالى ١٢٧
كلمة الختامية ١٣٢

الجزء الثالث

منهج التوحيد ١٣٤
القضاء والقدر ١٣٦
رؤية الله تعالى ١٤٣
ترجيح رأى أهل السنة ١٤٦
النبوات ١٤٩
الوحى وأنواعه وإمكان وقوعه ١٥٠
إمكان وقوع الوحى ١٥١
النبى والرسول ١٥١

حكم إرسال الرسل ١٥٢
الإيمان بالرسل والأنبياء ١٥٣
النبوة والرسالة منحة من الله وليست اكتسابا ١٥٤
صفات الرسل ١٥٥
الأمانة (العصمة) ١٥٦
بعض النصوص التى توهم عدم العصمة ١٥٧
الصدق ١٦٢
الفطانة ١٦٣
التبليغ ١٦٤
المستحيل فى حق الرسل والأنبياء ١٦٥
الجائز فى حقهم عليهم السلام ١٦٥
المعجزة ١٦٧
بعض معجزات الأنبياء ١٧٣
معجزات نبينا عليه الصلاة والسلام ١٧٣
المعجزات الخالدة للقرآن الكريم ١٧٤
بعض خصوصيات الرسول عليه السلام ١٨١
كلمة ختامية ١٨٤

الجزء الرابع

منهج التوحيد ١٨٦
مقدمة ١٨٧
المعتزلة ١٨٨
واصل بن عطاء ١٩٠
أهل السنة ١٩١
أبو الحسن الأشعرى ١٩٢
أبو منصور الماتريدى ١٩٣
الشيعة ١٩٤

فرق الشيعة ١٩٥
الإمامية ١٩٥
الزيدية ١٩٦
الخوارج ١٩٨
الإباضية ٢٠٠
المرجئة ٢٠١
الإسماعلية ٢٠٢
البابية ٢٠٤
البهائية ٢٠٤
أساليبهم فى الدعوة ٢٠٦
القديانية ٢٠٦
السمعيات ٢٠٨
الملائكة ٢٠٨
الجن والشياطين ٢١٤
العرش والكرسى ٢١٦
القلم واللوح ٢١٦
الروح ٢١٧
الموت ٢١٩
أثر الموت فى جزئى الإنسان ٢٢٠
عجب الذنب ٢٢١
أحل المقتول ٢٢٢
الشهيد ٢٢٤
الرزق ٢٢٦
سؤال القبر ٢٢٩
عذاب القبر ونعيمه ٢٣٠
البعث ٢٣٢
الحشر ٢٣٤
اليوم الآخر ٢٣٥
الشفاعة ٢٣٧
الحساب ٢٤٠

الحسنات والسيئات ٢٤١
التوبة ٢٤٣
حكم من عاد إلى الذنب بعد التوبة ٢٤٥
حكم مرتكب الكبيرة ٢٤٦
صحائف الأعمال ٢٤٧
الوزن والميزان ٢٤٩
الصراط ٢٥٠
الحوض ٢٥٢
الجنة والنار ٢٥٤
الكليات التى أوجب الشارع حفظها ٢٥٧
حكم انكار ٢٥٩
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢٦٠
وجوب التخلى عن الرذائل ٢٦٤
التخلى بالفضائل ٢٦٤
كلمة ختامية ٢٦٥
نموذج أسئلة الإمتحان ٢٦٦